

رحلتى

# من الكفر إلى الإيمان

قصة استلام الكاتبة الأمريكية المهتدية

مريم جميلة

د. محمد يحيى

المخاض  
الأساسي

د. محمد يحيى

رحلتى

# من الكفر إلى الإيمان

قصة إسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية  
مريم جميلة



للطبع والنشر والتوزيع  
١٦ شارع كامل صدق بالفجالة  
القاهرة ن ٩١١٣٧١

نوراً

١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة للناشر

## مقدمة

في منتصف السبعينات قدم لي أحد الأصدقاء كتاباً صادراً في باكستان بالإنجليزية عنوانه «الإسلام في مواجهة أهل الكتاب .. الماضي والحاضر». حمل الكتاب تاريخ عام ١٩٦٨ أى بعد عام واحد من النكسة أو الهزيمة التي لحقت بجيوش عدد من حكام العرب على يد بعض «أهل الكتاب». وكان اسم المؤلف اللافت للنظر لغرابته على الأذن المصرية هو مريم جميلة. ولما لاحظ الصديق استغرابي وجهلي بالمؤلفة وبالكتاب بادر إلى التوضيح. مريم جميلة هي سيدة أمريكية من أصل يهودى اعتنقت الإسلام وتزوجت من باكستاني وسافرت لتقيم معه في بلده وقد كتبت هذا الكتاب عن تحولها من الكفر إلى الإيمان بالإسلام وعن مقارنة الإسلام بأديان أهل الكتاب مبيّنة أوجه الحق في دينها الجديد ونواحي الانحراف والضلال في المعتقدات الأخرى.

أخذت الكتاب وشغلني عنه مشاغل شخصية وأحداث السبعينات الملتبة بضرب الإسلام وضمود دعائه وشبابه. وفي أواسط عام ١٩٨٤ ذكرني صديقي بالكتاب خلال لقاء بيننا سائلاً عن رأيي فيه. أخبرته أنني قرأته قراءة عابرة ووعدته بالعودة إليه قارئاً متأنياً. وقبل أن أبدأ هذه القراءة أخذت أتساءل وقد بهت في ذاكرتي إنطباعات القراءة الأولى السريعة الحافظة: ما الذي يجذب امرأة أمريكية يهودية مثقفة إلى الإسلام؟

ووجدت أفكارى تخوم حول الكلمات الأربع الأولى في سؤالى . لماذا تقبل امرأة على دين يقول عنه قومها في الغرب من دارسين مستشرقين إلى صحفيين في وسائل الإعلام : إنه يحط من شأن المرأة ويحقرها ويجردها من إنسانيتها حسب مفهومهم للإنسانية ؟ وبلغ من قوة وتغلغل هذا التصور الغربى أن صدقه كثير من المسلمين وصاروا بين معتر عن موقف الإسلام من المرأة وبين داع إلى رتق هذا الفتق في ثوب الإسلام بتقل المفاهيم الأوروبية الحديثة عن المرأة تحت بند الاجتهاد والإصلاح . وإذا كان بعض من نشئوا في كنف الإسلام ويقال لهم مثقفون قد صدقوا ما قاله الغرب عن ظلم دينهم للمرأة وردوده والقرآن والسنة والفقه والتاريخ الإسلامى بين أيديهم وعلماء الدين بالقرب منهم فكيف يمكن لسيدة ولدت وعاشت في مصدر التهمة أن تقبل على دين لا يعدها إلا بالتحقير والظلم وهضم الحقوق ؟

وهذه السيدة أمريكية أى بنت مجتمع مفتوح متعدد الثقافات متنوع الاتجاهات يشبع حاجات الفرد المادية والفكرية وإن ظمى بعدها الفرد لحاجات الروح فعنده هناك المذاهب المسيحية المتنوعة وعقائد وأديان شرقية كالبوذية والهندوكية تروج بين القوم تارة بدافع الهرب من مجتمع مغرق في المادية وتارة أخرى بدافع حب الطرافة والغرابة والاستعلاء على البيئة باتباع مذاهب غريبة عنها . وإذا لم يكن للفرد حاجة روحية حسب ذلك التصور الغربى

الضيق والمبهم عن ذلك الشئ الغامض الذى لا يكاد يؤمن به أحد ويسمى الروح فهناك مذاهب الفلسفة الأوروبية الكبرى والعلوم المختلفة من طبيعية وإنسانية والفنون والآداب . فلماذا تكفر إنسانة أمريكية بكل هذه العطايا والفرص والإمكانات التى يقدمها مجتمعها لبنية وتهجره بالروح والعقل إلى الإسلام ثم بالجسد إلى بلد إسلامى بعيد ومتخلف بمقاييس قومها ؟ وما الذى ينقصها فى مجتمع يقال عنه انه أعطى المرأة كل شئ من حرية الجنس إلى صعود الجو والفضاء إلى مناصب الحكم والقضاء والإدارة ؟

ثم نحن نتحدث عن امرأة يهودية (أو كانت كذلك) مع ما نعرفه عن تمسك اليهود وترابطهم الذى لا يدع مجالاً لردة أو مروق وهو الترابط الذى تحدثنا عنه الكاتبة باستفاضة فى كتابها . واليهودية فى أمريكا ليست ديناً ضعيفاً مضطهداً يهرب منه الأتباع إلى النصرانية أو دين آخر يلتمسون فيه العزة أو حتى مجرد النجاة كما حدث لليهود فى أوروبا خلال فترات من تاريخها الوسيط والحديث . والمؤلفة من نيويورك حيث يتركز خمسة ملايين يهودى أو يزيد أى أكثر من يهود فلسطين المحتلة . ونيويورك مدينة اليهود وعاصمة ملكهم المالى والإعلامى بلا منازع فكيف تغترب هذه السيدة وسط هذا الحشد البشرى المترابط المنظم المنتصر والمسيطر بالاقتصاد والفكر على القارة الأمريكية الشمالية ومن خلالها على ما يزيد عن نصف العالم إن لم يكن كله ؟ واليهودية دين كثنى فيه

عقيدة وفيه شريعة يتغلق أتباعه على تصوراتهم شعب الله المختار الموعود بالفرديوس على الأرض وهو ما تحقق بعضه لهم في أمريكا بالذات فلماذا ترفض الكاتبة هذا الدين وتبذره إلى الإسلام الذي يكرهه بنو دينها السابق أشد الكراهية ويصفونه بأنه نسخة مشوهة من دينهم نقلها بدوى إلى قومه؟ لماذا ترك الأصل الواضح إلى الصورة المشوشة؟ بل لماذا تفقد الإيمان بالأصل ثم تؤمن بالصورة المنقولة عنه كما يقول أجاز دينها عن الإسلام؟

والسيدة الأمريكية اليهودية هي كما يتضح من كتابها مثقفة فكيف أقبلت على دين أصبح عند الغربيين رمزاً للجهل والتخلف. إن المسلمين الناشئين على الثقافة الغربية قد كفروا بدينهم ناعتين إياه بالعداء للعقل ومعلنين أنهم لن يؤمنوا به إلا إذا تعدل وتبدل وتغير وأصبح كالفلسفات ومذاهب أوروبا التي اعتنقوها بلا فهم في غالب الأحيان. فكيف تأتي الآن مثقفة غربية لتقبل على الإسلام بشروطه هو لا بشروط ثقافتها. وربما لم يعد في الأمر غرابة الآن بعد إسلام رجاء جارودى في أوائل الثمانينيات وإسلام غيره من مفكرى الغرب. لكن السؤال يبقى قائماً: إن الكثيرين من أبناء المسلمين كفروا بدينهم محتجين بأنهم قروء في مذاهب غربية فكيف يسلم مثقفون غربيون هم من المتعمقين في فلسفات حضارتهم إن لم يكونوا من أعمدتها كما كان جارودى المتبحر في مذاهب ثقافته كلها وليس في الماركسية وحدها؟ لعل الإجابة كامنة في صلب السؤال: فالفتنون

بشذرات متناثرة من فلسفات الغرب قروءها مبتورة من سياقها ولحيت طويتهم وكفر طبيعتهم سارعوا إلى المروق عن الإسلام متسقين مع جبلتهم ومتعللين ظاهرياً بالثقافة والفكر بينما أدرك المتعمقون في هذه الفلسفات محدوديتها وتضاربها وقلة زادها وضعف هدايتها لكنهم استناروا ببعض مناهجها فوجدوا الحق في الإسلام. لكنها ليست إجابة شافية لما زالت الفلسفة ومجمل الثقافة هناك مصطبغة بالطابع اللاديني المتشكك في الأديان - كل الأديان - واصماً إياها بالخرافة. فكيف يسهل على امرأة رضعت هذه الثقافة الغربية أن تتحول إلى الإسلام لا بل تكسب مدافعة عنه وموضحة تهافت عقائد الغرب الدينية؟

دارت هذه الأسئلة ونحوها في ذهني ثم تبددت وتجلت أمام ناظري تافهة محدودة عندما قرأت الكتاب متديراً ما فيه. ليس هذا كتاب عن تجربة شخصية أدت بصاحبها إلى الإيمان بالإسلام. بل هو دراسة مقارنة للأديان التي اصطلح على تسميتها بالكتائية. ولسنا نتعامل هنا مع سيدة أقبلت على دين لأنه منحها حقاً أو مكانة لم تجدها في حضارتها. ولو كان الأمر كذلك لما احترمتنا امرأة تتعامل مع الأديان والعقائد بمنطق الرشوة والمزايدة لا بمنطق الحق والصدق. إن من يقبل على دين فقط لأنه منحه حقاً يبدو له أفضل مما منح له دين آخر سبتره غداً إلى عقيدة تدعى منح الشركل ما يطمحون إليه أو يلبق بهم من حقوق. والمذاهب الوضعية لا تعدم وسائل المزايدة والرشوة الفكرية

وإيهام الأتباع المستهدفين بأنها أكملت لهم إنسانيتهم حسب تعريفها لهذه الإنسانية .

ومؤلفتنا لم تقبل على الإسلام هاربة من مجتمع لم تستطع التكيف معه كما يقول خصوم الإسلام هذه الأيام كاذبين عن شبابه والتمسكين به . فهي تحلل مجتمعها خلال حديثها عن المسيحية واليهودية وتصف بعض أوجه القوة والضعف فيه وتقدم نظرتها هذه للمسلمين ، أهلها الجدد ، كي يسترشدوا بها في تعاملهم مع من تصفهم الكاتبة بأعداء الدين . ليست مريم جميلة إذن عنصراً سحقتة الحضارة الغربية كما سحقت الآفاً أو ملايين من أبنائها فبحثوا عن الملاذ في الجنس الحيواني أو المخدرات أو الأديان الشرقية . إنها صاحبة اختيار واع وعقل يقظ يجسده مؤلفها بما يحتويه من تحليلات متعمقة ونظرات ثاقبة .

ومريم جميلة لم تترك دينها سعياً وراء زوج أو هرباً من مشاكل أسرية وما أشبه بل لأنها تبينت ضلاله وضلال البديل الآخر الذي تطرحه الحضارة الغربية وهو النصرانية . ولما أيقنت أن الإسلام هو الدين الحق لجأت إليه تاركة ديناً يعلو نجم أتباعه إلى دين يكاد يستأصل المؤمنون به في بلادهم . فهي ليست باحثة عن القوة أو الأمن المادى بل هي تدور مع الحق حيث وجدته ولو أدى بها إلى هجرة الأهل والوطن . ولأن الإسلام هو الحق فلم ينفع ترابط اليهود ولم تجد منعهم كعوامل إبقاء لمريم داخل حظيرتهم .

والكاتبة لم تسلم لأنها وجدت في هذا الدين ثقافة وفلسفة وفنوناً تنافس ما تعرضه حضارتها . فالمسألة كما أسلفنا هي مسألة الحق والصدق وليست مسألة المزايدة والرشوة . وهي لا تكاد تذكر الفنون والثقافة الإسلامية في كتابها المنصب على فحص أديان أهل الكتاب وبيان عدواتهم للإسلام . وهي لا تعادى ثقافة قومها لأنها لا تحسها أو لا تعرفها . إنما تعاديا لأنها تعرفها وتخبرها حق المعرفة . وعندما استنارت هذه المعرفة بنور الإسلام تبدى لها انحلال هذه الثقافة وخطرها وزيفها فشرعت تكشف للمسلمين في كتابها بعض جوانب التهافت والضرر في ثقافة وحضارة الغرب . وهي تستخدم كتابات من نفس هذه الثقافة لإيضاح ضلالها وعداوتها للإسلام .

وعدت أراجع نفسي في تساؤلاتها الأولى . هل فقدنا الثقة في ربنا وديننا إلى حد أصبحنا فيه لا نتصور أن يؤمن بالإسلام إلا طالب منفعة ولا يؤمن به أحد لأنه الحق ؟ تؤمن المرأة فتقول انها آمنت لأن الإسلام يمنحها حقوقاً لا تجدها في بيئتها الغربية . ويؤمن الرجل فتقول إنه هرب من حضارة المادة إلى حضارة الروح ويؤمن الغربي عموماً فتقول إنه أعجب بهارة المساجد القديمة أو ببساطة القيم الإسلامية . ونسى أن الإسلام مضروب في بلاده ولا يحصل أحد على حقوقه الإسلامية ولا تقوم لهذا الدين الآن حضارة روحية أو مادية ولا تمارس قيمه في واقع حياة أبنائه . وقل بيننا من يعتقد بأنه يمكن الإيمان بالإسلام فقط بمجرد

التصديق أنه وحى إلهي إلى الرسول سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام. نعم بالإسلام حقوق للمرأة تحفظ إنسانيتها وبه ثقافة وفنون خاصة به وفيه قيم رائعة. ولكن كل هذا ينبع ويستمد الحياة من صدق هذا الدين وكونه رسالة الله الواحد الأحد إلى البشرية نقلها جبريل الأمين إلى النبي الكريم وحفظت في القرآن والسنة وخدمها الفقهاء والعلماء المؤمنون المخلصون فظلت منارة تهدي البشر وتدعوهم إلى النور والهداية التي يريدها الله لعباده وتوضح لهم معنى حياتهم ومنشأهم ومآلهم كما حدده خالق البشر. القضية في الإسلام ليست قضية حقوق تعطي لهذا أو ذاك وليست قضية فنون معمار أو زخرف تسر الناظرين أو قيماً يسمونها بالروحية تنافس قيم الغرب التي أطلقوا عليها المادية في سوق جذب الأتباع. إنها قضية الحق والوحي الإلهي والمصدر الرباني. هي ببساطة قضية الدين الحق في مواجهة الباطل والضلال من عقائد ومذاهب وثقافات وحضارات. فليس هذا الدين كغيره من الأديان أو الفلسفات مجرد صناعة بشرية تطرح على الناس وتنافس على قلوبهم وعقولهم وأرواحهم. ليس بضاعة فكرية تضارب غيرها فتغلبهم تارة ويغلبونها أخرى لتعود في صورة وتغليف أفضل فتغلبهم وهكذا دواليك. إنه يختلف عن غيره في النوع وليس في الدرجة فقط.

وهنا تكمن الأهمية الكبرى لكتاب «الإسلام في مواجهة أهل الكتاب». فهو كما قلت لا يعرض لتجربة المؤلفة الشخصية التي

دفعتها إلى الإسلام إلا في قسم صغير لا يتعدى بضعة وعشرين صفحة من صفحاته الثلاثمائة. ويركز في قسمين رئيسيين على عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم من الإسلام لي طرح قضية الكتابة الأساسية وهي ان الإسلام دين الحق الذي يتعرض لمكائد أهل الباطل. وكان مريم جميلة ترك لنا رسالة جلية تقول فيها ان الإسلام هو (أو يجب أن يكون) محور الاهتمام ومناطق البحث عند المؤمنين به وعند من يدخل فيه. فلا يجب أن نشغل بقضايا جزئية أو فرعية عند النظر في دوافع الإيمان لمن دخلوا الإسلام ولا يحسن أن نفرح بمن دخله باحثاً عن حقوق أو فنون أو روحانية أو ماض مجيد أو فلسفة ظن أنه واجدها فيه. ينبغي أن نطرح القضية من جذرها الذي لا بديل عنه ألا وهو الإيمان بصدق الإسلام ومصدره الإلهي وضرورة الانقياد المحب الخاشع (أو الإسلام) لهذا الدين سواء منح حقوقاً أو فرض واجبات سواء ارتحنا لتعاليمه أو ثقلت علينا فروضه ومتطلباته سواء أطلعنا برؤية جذابة للحياة أو صدمنا بالحقائق التي لا تعجبنا كالتكليف والحساب والموت.

ولا أريد أن أقول هلموا ندعو غير المسلمين إلى ديننا مرددين فقط أنه دين الحق وأن عليهم ترك باطلهم إليه، فليست هذه دعوة. بل لا بد من طرح الحجج والأدلة وتوضيح العقيدة والشريعة ومفاهيم القرآن وقيم السنة ولا يغني أن نبين الفوائد العائدة على الفرد والجماعة من حقوق وراحة وخير مادي ومعنوي. ويتحتم أن نشير إلى الحضارة الكبرى التي أثمرها تطبيق



الإسلام على واقع الشعوب التي آمنت به . فالدعوة الإسلامية لا يمكن أن تنحصر في مجرد القول بأن الإسلام حق وغيره باطل . فلا بد من التدليل والتحليل وتوكيد المقولة والفعل . وهذا هو في الواقع ما فعله مريم جميلة في كتابها . إنها تقول أنني آمنت بالإسلام لأنه الحق ولم أدخله لأنه يعطيني حقاً كامراً افتقدته في بيتي الغربية أو يمنحني الملاذ من حضارة لم أتكيف معها أو ارتحت إليه بعد هروبي من دين كفرت به . ولكنها وهي تطرح القضية من جذورها وأساسها لا تكتفي بالقول بأن الإسلام هو الدين الحق بل تدلل على ذلك وتشرحه وتخصص جل كتابها لتفنيد انحرافات أهل الكتاب وبيان تأمرهم في الماضي والحاضر على الدين الذي أيقنوا أنه الحق ولكنهم جحدوه .

وكتاب مريم جميلة يعتبر وثيقة فريدة في تاريخ كتابات الغربيين المعتنقين للإسلام . فهو لا يقدم سرداً مفصلاً لتحول المؤلفة من الكفر إلى الإيمان . ولا ينصب على الإسلام نفسه بشرحه ويحلله سواء بموضوعية أو ليحمله يتمشى مع رؤية خاصة للكاتب كما نجد في أعمال جارودي مثلاً . لكن هذا الكتاب يقدم لنا هدية فكرية إن جاز التعبير . فالمؤلفة لا تكتفي بأن تدخل الإسلام بل تقدم لإخوانها في الدين ما فرضه الله عليها هؤلاء الإخوة ألا وهي النصيحة . تدخل مريم جميلة الإسلام في وقت حرج . فالدعوة الإسلامية تضرب في بلادها وحوادث فحج الإخوان في مصر والانقلاب الصليبي في نيجيريا ثم عدوان

إسرائيل الكاسح ما تزال ماثلة أمام ذهنها عند الكتابة . وهنا نلمس صدق الإيمان . فبدلاً من أن تكتب عن تجربتها الشخصية أو تتناول عموميات مألوفة عن عظمة الإسلام نجدتها تختار موضوع أهل الكتاب والإسلام لتعالجه . وهي بهذا الاختيار تقول أشياء كثيرة . إنها تعبر عن حماسها وغيرها على الدين الذي اختارته بأن تبين تهافت عقائد أعدائه وشدة تأمرهم عليه . وتؤكد على مفاصلها لقومها السابقين يهوداً أو أمريكان وهو من مقتضيات الإيمان الداعي إلى مفارقة الكافرين . وتنبه المسلمين إلى ضرورة الحذر والتعرف الفكري على الأعداء من موقع الإيمان بالإسلام دونما انبهار وذوبان في فكر هؤلاء المخالفين الحاقدين . وهي تحذر من موقع العارفة بمكانم الخطر وتدابير المتربصين وأفكارهم فقد كانت بينهم . هكذا يجوز لنا القول أن مريم جميلة تأتي إلى زمرة المؤمنين وفي يدها هدية قيمة نافعة بدلاً من الحديث عن تجربتها المؤمنين وفي يدها هدية قيمة نافعة بدلاً من الحديث عن تجربتها الشخصية المحدودة أو الإشارة إلى النواحي التي شدتها إلى الإسلام .

\* \* \*

وقد ارتحت لدخل الكاتبة هذا وشدني إلى متابعة أفكارها باهتمام . وكنت كلما أوغلت في قراءة الكتاب أشعر بالرغبة في أن يشاركني غيري هذه الخبرة المفيدة المثيرة للتدبر . لأنها كما قلت تجربة لا تندرج في ما ألفناه من كتابات وتعليقات الداخلين في

عقائد أهل الكتاب وعلاقتهم بالإسلام والمسلمين . ففي وقت  
تضرب فيه الحركات الإسلامية في كل بلاد الإسلام على يد  
الأعداء في الداخل والخارج ويلعب أهل الكتاب أخطر الأدوار  
ضد ديننا وبأخذون مواقع الصدارة في ركب الأعداء ومسيرات  
الغزو . وتكفي الإشارة إلى شراذم المعسكرين في فلسطين السلبية  
وطوفان حركة التنصير في أطراف العالم الإسلامي وقلبه وتآمر  
الأقليات وتطلعها إلى ضياع الإسلام . ومن المأمول أن تكون لما  
سطرته مريم جميلة فائدة في التذكير والايقاظ والحفز على المقاومة  
والفعل الإيجابي . هكذا أرادت الكاتبة وهكذا أبغى . والله أسأل  
أن يحقق القصد وأن يقبل السعي قربة إلى مرضاته سبحانه  
وتعالى . ولا أقول إنني بهذا الجهد المتواضع أخدم الإسلام فبعد  
دماء الشهداء وعذاب الأسرى وكفاح العلماء من المسلمين في كل  
مكان لا يبق مكان لمستزيد ولا طريق غير طريق الجهاد . كل ما  
أرجوه أن أوقد شمعة على طريق الجهاد الإسلامي هذا وأدعو الله  
أن ينصر المجاهدين ويحفظهم فهو غالب على أمره ولكن أكثر  
الناس لا يعلمون .

د . محمد يحيى

الإسلام من الغريين وتفتح لنا مجالاً نجهله عن عقائد أهل  
الكتاب ومواقفهم تجاه الإسلام . ومع تزايد الرغبة في أن أشارك  
غيري فيما أدركته من قراءة الكتاب كانت حيرتي في شكل  
المشاركة هذه هل تكون عن طريق ترجمة النص بأكمله وهو أمر  
مجهّد فضلاً عن تعذر الاتصال بالكاتبة لاستئذائها في هذا الأمر .  
أم تكون في شكل عرض للكتاب يلم إماماً عابراً بموضوعه  
ومدخله . لكن هذا العرض لا يبي الكتاب حقّه ويتحتم لضيق  
المساحة أن تسقط فيه تفاصيل تغني الكتاب وتهم القارئ .  
واستقر رأبي على أن أفضل شكل لتعريف من لم يقرأ الكتاب  
برحلة مؤلفته من الكفر إلى الإيمان وهديتها الفكرية للمسلمين هو  
أن أعرض لمؤلفها عرضاً مطولاً متأنياً لا يثير الملل ولا يضيع قيمة  
العمل . وحرصت على أن لا يكون هذا العرض مجرداً بل ضمنته  
تعليقات متناثرة في المواضع التي رأيت أنها تستحق التعليق لا  
لانتقاد الكاتبة أو أتطفل عليها برأى لا تستطيع أن ترد عليه أو  
لا يكون معبراً عنها بل لأجري حواراً مع كاتبها : حوار ينبثق من  
النص ولا يتجاوزه ، يكمله ولا يعارضه ويخرج هذا العمل  
المطروح للقارئ العرنى عن أن يكون مجرد شكل مهجن لا هو  
بالترجمة ولا هو بالعرض المؤلف للكتب في الصحف  
والدوريات .

وأرى لمحاولتي هذه هدفاً أبعد من تعريف القارئ برحلة سيده  
أمريكية من الكفر إلى الإيمان أو اطلاعه على جوانب خافية من

## مریم جمیلة والإسلام

تخطيطه . ولا يقتصر أثر هذه المراكز على الغرب بل إنها تمتد إلى عالم الإسلام لتصوغ طبقات المثقفين بأفكارها المحرفة عن دينهم وتقتل الأمل في أي نهضة إسلامية . والهجوم الإسلامي المضاد يجب أن يتخذ شكل الوعي الفكري بالعدو .

هكذا تطرح مریم جمیلة قضية الكفر والإيمان طرحاً موضوعياً جهادياً منذ البداية . لا مجال هنا للحديث عن تجربة فردية فلا وقت لذلك . ولا معنى للحديث عن عمل ثقافي فكري مجرد فالأمر يتعلق بحرب معلنة شعواء تتخذ من الفكر والمعهد والجامعة ساحة وسلاحاً . الخدمة الجليلة والوحيدة التي يمكن للمثقف المسلم أن يقدمها هي أن يعلن عن ولائه أو يحدد موقفه بصراحة ثم يدخل المعركة لا بسلاح الدعاية الساذجة للإسلام وإنما بدراسة العدو والتعريف به وبمخططاته . هكذا تعلم مریم جمیلة المثقفين المسلمين وهكذا تكشف عن خيانة من انضموا إلى صف أعداء المسلمين صراحة أو اختاروا السبيل الأخطر ، سبيل النفاق والمداراة فراحوا يهدمون الدين ويميعون فكره ويدسون فيه أفكار الغرب تحت شعارات براقة كالاستنارة والعصرية والاجتهاد والتجديد .

لكن مریم داخلته إلى الإسلام حديثاً (في عام ١٩٦١) وهي تريد أن تقدم أوراق اعتمادها ، تجربتها الذاتية . وتختار أن تخصص لذلك صفحات قليلة تقدم بها الكتاب ونكاد نحس فيها بنغمة الاعتذار عن

تصدر مریم جمیلة كتابها بهذه الكلمات : أوجه هذا الكتاب لمن يريدون مكافحة خطر الصهيونية والنشاط المسيحي التبشيري في البلدان المسلمة . وهي تحدد بهذا التصدير طبيعة مؤلفها وتربطه بواقع المسلمين وتجعل منه دليل عمل قبل أن يكون وعاء معرفة ومعلومات . وتضعنا في قلب موضوعها بإحدى عشرة صفحة ترجمت فيها معظم الآيات القرآنية الواردة في أهل الكتاب وعقائدهم ومعها بعض الأحاديث النبوية في هذا الشأن لتؤكد ما تقوله في مقدمتها القصيرة للكتاب من أنها تنطلق من مفاهيم الإسلام وتتخذها منهاجاً ومعياراً لها . فما هو إذن موضوع الكتاب بالتحديد ؟ إنه ، حسب قول المؤلفة ، دراسة وتحليل لليهودية والمسيحية والتطورات التي طرأت على هذين الدينين في الغرب لاسيما تحت تأثير الفكر المادي الحديث . ثم هو أيضا البحث في تأثير هذا الغرب الديني الفلسفي على المسلمين في شتى نواحي الحياة . والرؤية الكامنة وراء اختيار هذا الموضوع أو الهدف من معالجته هدف عملي وليس نظريا . فالإسلام أقوى منافس ومواجه للثقافة الغربية والصدام بينه وبين أديانها ومذاهبها واقع . وطلائع الهجوم هي عشرات المعاهد ومراكز الأبحاث المخصصة لفهم الإسلام بغرض واحد فقط هو

إقحام ذاتها بعد أن نهت إلى أهمية موضوعها وجسامته الأخطار الحاقة بالمسلمين . فكيف أسلمت مريم جميلة ؟

كان مدخلها إلى الإسلام هو نفسه مدخل السابقين من أبناء هذه الأمة : القرآن . وطريقها إلى القرآن كان غريباً يرى فيه الفرد يد المصادقة الطريفة ويلمح فيه المؤمن فعل القدر والهداية الإلهية . لم تعرف الكاتبة القرآن عن طريق مركز إسلامي أو داعية مجاهد . وإنما وصلت إليه عن طريق حبها للموسيقى . إذ نشأت في طفولتها على حب الموسيقى الغربية الكلاسيكية وكانت من المتفوقات في مادة الموسيقى خلال دراستها . وبصدفة محضة كما تقول استمعت ذات يوم إلى موسيقى عربية في المدياع فشدتها وخلبت لها وصرقتها عن موسيقى الغرب . وبعد إلحاح اصطحبها والدها إلى محل في نيويورك ، حيث نشأت ، لشراء بعض الأسطوانات العربية . وبصدفة أخرى كان بين هذه الأسطوانات تسجيل لأم كلثوم تتلو فيه آيات من سورة مريم . وتقول مريم إن حلاوة الصوت العربي تغلغت في داخلها وهيأتها فيما بعد للانجذاب إلى القرآن . وهي لم تسلم في تلك الأيام المبكرة من حياتها وإنما أدركت أن هناك عالماً آخر غير عالمها الغربي وأن بهذا العالم موسيقى ذات وقع مختلف وفيه نص مقدس يسرى إلى الكيان إذا تلى مجرداً . وتحكى الكاتبة أنها بعد إسلامها ما فتئت تستمع إلى تلاوات القرآن وأن أقوى ما أثر فيها كان تلاوة استمعت إليها في مسجد

نيويورك من طفل قادم من زنبار صوته وتجويده أفضل من كثير من المقرئين المشهورين . وهنا تساءلت عن مصير طفل زنبار هذا بعد أن فزع الصليبي جولوس نيريري قومه ومحى الإسلام من هذه الجزيرة التي أشرقت الهداية منها على جنوب شرق أفريقيا . ولعلت بذهني أفكار عن إغلاق الكتابات وإبعاد حلاوة القرآن عن الأذهان والأطفال بخاصة وهجر كتاب الله واحتقار فنون تلاوته وتجويده وربطها بالموت والمقابر وكيف يكون ذلك وقراءة القرآن تُحْيِي نفوساً بالإيمان كما نرى مع مريم جميلة .

ونغض مع خيط آخر من خيوط رحلة الكاتبة إلى الإيمان . ونلمح المصادقة أو القدر أو الهداية مرة أخرى . فهي تهتم منذ سن العاشرة بقراءة كل ما تستطيع الحصول عليه عن العرب . وتتكون لديها قناعة راسخة وهي بعد في سن المراهقة أن الإسلام هو سر عظمة العرب وليس العكس . وعندما تشتاق إلى الإطلاع على هذا الدين الذي غير العرب أيما تغيير يصيبها مرض مفاجئ في صيف عام ١٩٥٣ يقعدتها عن الذهاب للجامعة عام بأسره . وخلال فترة المرض تطلب من والدتها أن تحضر لها ترجمة لمعاني القرآن من مكتبة عامة . وتبدأ قصتها مع الترجمات . فأول ما يقع في يديها ترجمة جورج سال المبشر الانجليزي الذي عاش في القرن الثامن عشر . وتجدها نفسها تنفر من هذا العمل بلغته الركيكة ومحاولات المبشر الطعن في مفسري القرآن كاليضاوي

والزمنحشرى عبر هوامش مطولة ومملة . كانت صدمة على الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً أن تجد القرآن هكذا في ترجمة سيئة معادية . وكادت تنفر من القرآن ذاته لولا ان عثرت ذات يوم كما تحكى على طبعة رخيصة من ترجمة مارماديوك بكتال الإنجليزي الذي اعتنق الإسلام . استراحت مريم جميلة لترجمة بكتال وانهرت ببلاغة اللغة الإنجليزية فيها وسلاستها وجزالتها . وزاد تمسكها بها؛ عندما قارنتها بترجمات أخرى رأت أنها تشغل عن الاقتراب من حلاوة القرآن وحسن نقل معانيه وتوجه إلى الاعتذار والتبرير والسعى غير المقنع لمواءمة مفاهيم القرآن مع بعض الأفكار الفلسفية والعلمية الجزئية المتغيرة . ومن هذه الترجمات التي لم ترتح إليها ترجمة يوسف على ومحمد على اللاهورى وعبدالمجيد الدرايبادى . ويتبين من حديث مريم عن الترجمات أنها كانت تدخل إلى الدين بحماس ويقظة بل وغيره . فهي تريد من ينقل حلاوة ودقة اللفظ والمعنى القرآنى وترفض من يفقد الثقة في دينه إلى حد يلجأ فيه بذلة إلى تطويع معاني كتاب الله لأفكار قطاع من البشر وهم الغربيون تقريباً منهم وظناً أن هذا سيحوز رضاهم وتقبلهم . ولكن تثبت تجربة مريم وشعورها أن المدخل الصحيح هو العزة بالإيمان وصدق الاخبار عن القرآن والدين وليس التلاعب فيها بحجة أن ذلك سيجذب الغربيين إلى الإسلام . فالصدق هو السبيل الوحيد للدعوة إلى دين الحق .

وتؤكد مريم أن التفسير الذى أفتعها بمعانى القرآن لم يأت من تعليقات المترجمين وإنما من كتاب اسمه **مشكاة المصابيح** لعالم هندى من كلكتا هو مولانا الحاج فضل الرحمن . والكتاب يدور حول السنة والأحاديث النبوية . وتكلمنا مريم كمسلمة صحيحة الدين فتقول : كيف يمكن الدخول إلى القرآن إلا من خلال السنة وتفسير الرسول وتوضيحه للقرآن . وترى أن من يكفر بالسنة لا بد أنه سيكفر بالقرآن . وماذا بعد قراءة القرآن والأحاديث النبوية ؟ تذكر مريم صراحة أن الذى أفتعها نهائياً بصدق الإسلام وصحته هو إجابته الشاملة والواضحة على مشاكل كانت تؤرقها طيلة مراهقتها وشبابها . وأول هذه العضلات تتصل بالموت والخوف منه . كانت لا تجد إجابة عند والديها عندما تسألها عن المصير بعد الموت . إذ كانا يعجبان من سؤالها ويقولان لها : إن الحياة أمامها طويلة . لكنها في الواقع كانا لا يؤمنان بالآخرة وبالبعث والحساب والجنة والنار . ولم تسعفها التوراة والتلمود برأى فالجزء فيها دنيوى محض ، أما الإنجيل فكانت صورة الآخرة فيه مهمة غير مفصلة . ولم يكن هناك غير القرآن يجب على هذا السؤال فيريح العقل المعضب الحائر بتصور عن المنشأ والهدف ومعنى الحياة والمآل والثواب والعقاب والمغفرة . وقد أحسنت مريم حينما ذكرت أن معضلة الموت كانت تحيرها . فالموت هو اللغز الذى حير فلاسفة حضارتها وهو ليس بالمشكلة المقتصرة على فتاة في سن المراهقة تعانى من

هواجس ناجمة عن المرحلة الحرجة في نموها الجسدى الشعورى . لقد أعطت الحضارة الأوروبية ظهرها للموت أو للدين فيما سمي بعصر النهضة مختارة طريق الحياة الدنيوية بأعرض وأوسع معانيها وأقامت النظم والفلسفات والدول والثقافات وعمرت واستعمرت وظنت أنها بالعلم المادى الطبيعى والفكر البشرى الوضعى قد سيطرت على مجرى الحياة إلى خلود وحصرت الموت فى نطاق مصيبة فردية مصيرها إلى زوال مع تقدم العلوم الطبية أو الجنائية . لكن الموت عاد ليتقمم فى شكل هزات عنيفة زلزلت هذه الحضارة منذ القرن الماضى وحتى الآن مذكرة بوجود الفناء والضياغ وحافزة على البحث الجدى فى القضايا الكبرى المتعلقة بأهداف وطبيعة ومصير الوجود البشرى . وبعد فشل الأديان الروحية الكهنوتية حاول الغرب أن يرد على الموت بالفلسفات الشمولية الكبرى التى نظم بها المجتمعات وأشبع الحاجات المادية والنفسية وحقق الرخاء الظاهرى . لكن الموت كان بالمرصاد فى شكل القلق البشرى والتلمل الجاعى ووساوس وهواجس البحث عن اليقين الكلى والشوق إلى معنى يعلو على مجرد العيش الحياتى .

وإذا كان القرآن قد حل مشكلة مريم أو بالأصح معضلة الغرب المستحدثة من خلالها فإنه أيضاً قد حل لها أو أجاب على مشكلة أخرى كانت تواجهها . ونقصد مشكلة الجدبة والرغبة فى أن يكون للحياة معنى وأهداف يحققها الإنسان . فاجأها والدها ذات مرة فى حديث

مفها وهى الفتاة الداخلة إلى أعتاب الحياة بقوله : إنه لا توجد قيم مطلقة وأن ما يهم هو أن يعيش الإنسان حياته متمتعاً بقرب الأهل والأصدقاء ورفاهة العيش فى المجتمع الغربى . وصدمة مجتمعها بتفاهته وانفاس أقرانها فى اللهو والرقص والاختلاط والتواعد بين الرجال والنساء وانشغال الفتيات بالتبرج والعرى . لم تجد الهدف الأسمى الذى يودى الإنسان واجبه نحوه ويحاسب نفسه على أساسه وينتظر الجزاء على معياره . وهنا جاء الإسلام مرة أخرى ليعين ويستجيب لأعمق الرغبات معطياً الهدف والمعنى والجدبة ومنقذاً من تفاهة وصغر الحياة الأمريكية .

وبعد أن نندمج فى متابعة خيوط رحلة الإيمان تتركنا مريم جميلة فجأة . ولا ندرى هل هو الحياء من الدخول فى التفاصيل الشخصية أم الرغبة فى ترك المجال لصلب كتابها المتحدث عن أهل الكتاب والإسلام . ولعلها اكتفت بهذه الإشارات التى جمعت فيها قصتها مع الإسلام : حلاوة القرآن واليقين الذى ولده الإسلام فى صدرها بإجابته عن المشاكل والمعضلات الوجودية التى لم تجد لها حلاً فى دينها وحضارتها . وهى لا نتحدثنا عن حالها بعد الدخول فى الإسلام وهجرتها إلى الباكستان مع زوجها وإنما تنسحب فى هدوء رافعة الستار عن بحثها الفكرى فى عقائد أهل الكتاب ومواقفهم من الإسلام بادئة باليهودية دينها الذى لم تجد فيه المعنى والهدف والرد الشافى على ما حيرها . لكننا

## الإسلام في مواجهة

### اليهودية والصهيونية

تبدأ مريم جميلة بحثها في اليهودية ببيدية وسؤال . تقول إن خطر الصهيونية ماثل اليوم في كل ذهن مسلم لاسيما بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ولكن كم من المسلمين بل ومن علماءهم يعرف اليهودية ويعلم ما بينها وبين الصهيونية من علاقة فضلاً عن إدراكه لطبيعة الصهيونية كحركة داخل اليهودية نادت بالتحديث متأثرة بمبادئ القومية والعلمانية في أوروبا بالقرن التاسع عشر. تدعونا الكاتبة إذن إلى العلم بالأعداء وتدخل إلى ذلك من باب استعراض العلاقات التاريخية بين اليهود والمسلمين .

والحاضر القريب يمهل للعودة إلى الماضي . إذ تصل إلى الكاتبة رسالة من عمته في نيويورك ترفق بها قصاصة تتضمن خبراً نشر في جريدة نيويورك بوست في السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٦٧ . ويقص الخبر أن مسلماً اشترك في مؤتمر للمعهد اليهودي المتحد بأمريكا وصعد إلى منصة الحفل بجانب حاخام وخطب الجمع اليهودي بقوله: إنه لا داعي للعزلة بين المسلمين واليهود بعد الآن فعندما يلتقي الطرفان يشعرون أنهم بشر. وهناك قدر مشترك من التفاهم لقضايا كل من

نخطئ إذا طمعنا منها في أكثر من القرآن وحل مشاكل الوجود الإنساني كبواعث للإيمان بالإسلام . نخطئ إذا رغبتنا منها في دوافع جزئية مفصلة لأننا كما قلت في المقدمة يجب أن نثق في معجزة القرآن صوتاً مجوداً بأسر النفس ويلفتها إلى الله ومعنى متعالياً يخاطب قضية الإنسان نفسه قبل أن يتوجه إلى جزئيات الحياة وما يندرج تحت الوجود البشري من نظم وشرائع وسياسة واقتصاد وعلاقات ومعاملات . فإذا وصل القرآن إلى أعماق النفس وأحدث رجوع الإيمان والمواقفة والتسليم وشغل اللب والجنان بخطاب الرحمن وإذا حل معضلة الوجود والمعنى والمصير فأراح فقد انفتح الباب أمام الإيمان ويدخل بعدها المسلم إلى جنة دينه ليقتطف ثمار الشرع والعبادات ويستظل بما أقامه دينه من أنظمة وقواعد وقيم وما أرساه من مفاهيم وأفكار متدوفاً حلاوتها بعد أن ذاق حلاوة اليقين متخذاً من حكمتها وملاءمتها وتفوقها على ما وضع البشر أداة لتوكيد الإيمان وترسيخ اليقين والإسلام . فالدين كل لا يتجزأ يكمل بعضه بعضاً ويسانده ويعضده .

نحترم إذن صمت الكاتبة ولا نتطفل عليها ونتركها حيث اختارت أن تسكت معتبرين بما وجدناه في رحلتها إلى الإيمان من عبرة هي التحدى والدعوة بالقرآن والبدء بموقف الإسلام من قضايا الحياة الكبرى الناجمة عن أساسيات الوجود البشري في هذا العالم . ونفتح معاً خيوط هديتها الفكرية ناظرين فيما جلبته لنا .

استعراض لجوانب من العلاقات التاريخية بين المسلمين واليهود لترى ما إذا كان يمكن حقاً للوفاق أن يقع بين الطرفين لاسيما في ظل أوامر الإسلام ومفاهيمه .

تقول مريم جميلة أن الله فضل بني اسرائيل أو اليهود الأول على كثير من الأمم الموجودة في عهدهم لانهم التزموا بالتوحيد . وقد أنعم عليهم بإرسال التوراة ومزامير داود والجم الغفير من الأنبياء . لكن الخصلة التي أردتهم كانت الكبرياء العنصرى والتعصب القومى التي تجلت في تحريف كتبهم المقدسة وقتل أنبيائهم اتباعاً لهواهم كما اتضح في رفضهم التصديق بالرسول عليه الصلاة والسلام لأنه عربى أمى . ولهذا لعنوا وتوعدهم الله بالعذاب وأنبأ عنهم في القرآن أنهم أشد الناس عداوة للمسلمين مع المشركين . ولأن المسلمين قد خالفوا أمر الله في عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء فقد أنزل الله بهم العقاب تلو الآخر إلى العصر الحديث فهذا الأمر بالغ الأهمية على ضوء العداة العنصرى اليهودى للإسلام والمسلمين .

وتمر بنا المؤلف على لمحات من هذا العداة . رفض الإسلام مع تيقن أبحارهم من صدق الدعوة المحمدية . نقض اليهود مع الرسول عليه الصلاة والسلام . تشييب الشعراء اليهود بالنساء والمسلمات في صدر الإسلام وتفضيلهم لوثنية العرب على دين الإسلام إقدام يهودية خبير على دس السم في الشاه التي قدمت للنبي . طرد عمر بن الخطاب لليهود

الجانين وقيمها الدينية وآمالها بالإضافة إلى الفوارق بينها . وأعرب المتحدث عن رأيه بأن اتهام المسلمين بالعداء لليهود اتهام خاطئ . ورد الحاخام بكلمة مشابهة دعا فيها إلى الوفاق بين العرب واليهود . والمسلم المذكور هو شخص يدعى محمد عبدالرؤوف ظل فترة طويلة مديراً للمركز الإسلامى بنيويورك ثم بواشنطن بعدها . ويقدر ما كان شعور عمه مريم جميلة بالفرح والأمل من هذا الخبر فإن مريم نفسها شعرت بالصدمة والإحساس بالخيانة . وهى تتساءل كيف يحدث هذا والدماء التي سالت في عدوان ١٩٦٧ لم تجف بعد ولم تُزل آثار النابالم من أجساد الضحايا وبيت المقدس أسير والأراضى الشاسعة محتملة ؟ .

وبعد أكثر من خمسة عشر عاماً على هذا الإحساس بالصدمة تتساءل بدورنا : ماذا كان شعور الكاتبة عندما علمت برحلة السادات إلى القدس وما تبعها من معاهدات وتنازلات وخيانات ؟ بل ماذا سيكون شعورها عندما تعلم أن عبدالرؤوف المعين من حكومة مصر للمركز الإسلامى بأمرىكا قد بارك رحلة السادات كما دعا إلى المودة مع أعداء الدين بعد أشهر قليلة من عدوانهم الوحشى وأنه هو نفسه الذى شارك أحياء السادات من اليهود والنصارى في الصلاة على روحه داخل كنيسة بعد إعدامه ؟ حقاً لقد تغيرت المقاييس في عشر سنوات ولكنها مؤامرة مستمرة كما تقول مريم جميلة في كتابها .

ويدفع موقف المدعو عبدالرؤوف محب اليهود بالكاتبة إلى



بأكملهم من شبه الجزيرة العربية إلى سوريا بعد تبين وتكرر خيانتهم .  
نفاق عبدالله بن سبأ ودوره في إشعال الفتنة الكبرى التي سقط فيها  
عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم استعر أوارها حتى خسر الإسلام فيها  
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وتقف مريم جميلة عند نواح من التآمر لا تسلط عليها الأضواء  
عادة . فتقول أن العديد من الباحثين يرجعون الحركات المنحرفة في  
الإسلام كالمعتزلة مثلاً الذين انغمسوا في مجادلات عقيمة إلى تأثير أعداد  
من اليهود المتبحرين في العلم ممن تظاهروا باعتناق الإسلام ليخربوا  
الإيمان بواسطة البدع والزندقة . وهي تعود إلى مؤرخ باكستاني  
لتقتبس منه طرفاً من تاريخ التآمر اليهودي على الإسلام . وتكر  
الحوادث التي قلما سمعنا عنها في ظروف الإظلام المحيطة بالأمة . ففي عام  
٧٢٠ ميلادية نظم يهودى سورى يدعى سيرين حملة للاستيلاء على  
القدس لكنه هزم . وبعد ذلك بثلاثين سنة قام عباديا أبو عيسى ابن  
إسحاق بتمرد يهودى في أصفهان انتهى بالفشل وقد عضد اليهود  
المغول ضد المسلمين إبان غزوة هؤلاء للعالم الإسلامى لكنهم لقوا جزاء  
سناهم عندما استأصل المغول الطائفة اليهودية في دمار بغداد عام  
١٢٥٨ . وإذا انتقلنا إلى المغرب الإسلامى فس نجد التسامح من جانب  
المسلمين يقابل بالتنكر والجحود . وتبرز مثلاً حادثة صمويل ابن كاتب  
الشكاوى اليهودى في الأندلس الذى رفعته العدالة الإسلامية إلى

مصبب الأمير وكبير الوزراء في دولة إسلامية في عام ١٠٥٥ . وقابل  
ذلك بالاستهزاء بالقرآن والطنع في عقائده .

وتستمر قصة التآمر مع الدولة العثمانية رغم أنها هي التي استقبلت  
الكثيرين من اليهود المضطهدين في أوروبا . وكان من بين هؤلاء مهاجر  
أسباني يدعى شباطى ادعى في عام ١٦٤٨ أنه المسيح المنتظر عند  
اليهود . وقد انتشر صيته في أنحاء أوروبا واحتفل به أتباعه كنبى عند  
وصوله إلى مدينة أزمير عام ١٦٦٥ . وعند التحقيق في أمره أنكر  
ادعائه واعتنق الإسلام . وعندئذ تحول أتباعه بولائهم إلى شقيقه  
يعقوب باعتباره المسيح المنتظر بل والمجسد للإله في شخصه . ولكنه سار  
على نهج أخيه فعندما استجوب في دعواه تنكر لما قاله وأسلم . وألف مع  
أتباعه مذهباً جديداً مزيجاً من اليهودية والإسلام أطلق عليه اسم الدعوة  
يزور أتباعه المساجد والمعابد اليهودية . وقد تحالف هذا المذهب اليهودى  
مع البنائين الأحرار أو الماسونيين ليسيظروا معاً على حركة تركيا الفتاة التي  
أنقضت السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٨ مما أدى إلى بدء سلسلة  
الأحداث التي انتهت بإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ على يد كمال أتاتورك  
الذى أعجب به السادات صديق اليهود .

وتصل الكاتبة في سلسلة المواجهات إلى أكبر مؤامرة يهودية في  
العصر الحديث ضد المسلمين وهي قيام الحركة الصهيونية ودولة  
إسرائيل : ومن ملاحظاتها الذكية أن الحركة الصهيونية يمكن اعتبارها

نقض أهم أسس المذهب المسيحي بالإعراب عن تبرئة اليهود من أى مسئولية فى الأحداث التى أدت إلى صلب المسيح المزعوم .  
وترجع المؤلفة إلى كاتب باكستانى درس التآمر اليهودى على الإسلام ونقتبس منه رأيه بأن اليهود تحالفوا دائماً مع أعداء المسلمين وأنهم كانوا المسئولين دوماً بصورة مباشرة أو غير مباشرة علنية أو خفية عن كل مصيبة حلت بالعالم الإسلامى . ويبدو أن اليهود فى إنتظار بابا إسلامى جديد يبرئهم من دماء المسلمين كما حاول السادات أن يفعل ولا تنسى مريم جميلة أن تتحلى بالموضوعية فى عرضها للعلاقات عبر التاريخ بين المسلمين واليهود . فالفرصة لا تقتصر على فعل إيجابى هو التآمر يقابله فعل سلبي من الغفلة والمعاناة عند المسلمين . فهى تذكر أن الصراع أو المواجهة ليست مع كل شئ تطلق عليه كلمة اليهودى . فهناك اليهود الأول الذين كانوا مسلمين حقاً قبل تحريف ديانتهم وضرروا المثل فى الشهادة فى وجه وثنية اليونان والرومان . وتعرض لنا تصدى بعض الحاخامات لوثنية الألعاب الأولمبية اليونانية التى كانت تقام لتمجيد آلهتهم ويتبارى فيها الرياضيون وقد تجردوا تماماً من ملابسهم وكذلك مقاومتهم لوحشية الألعاب الرومانية حيث كانت تذبح الألوف من الحيوانات والمئات من البشر بعد تعذيب وتشويه أليم خلال هذه المصارعات المشهورة .

وكان خط التسامح الإسلامى يقابل دوماً خط التآمر اليهودى الذى

صلحاً بين اليهودية والمسيحية الغربية على حساب المسلمين فى قلب بلادهم . فتاريخ أوروبا مع اليهودية ملئٌ بالاضطهاد وعزلهم داخل الجيتو أو الحى اليهودى المغلق داخل المدن هناك حيث تسود ظروف صحية واجتماعية سيئة . وحرَم اليهود من تملك الأراضى ووسائل إكتساب الرزق باستثناء التجارة على نطاق محدود والتعامل بالربا . وعلى الرغم من انفتاح اليهود على المجتمعات الغربية واندماجهم فيها فى فترات التاريخ الحديث نتيجة للمناخ السائد من ضعف التمسك بالدين وعلو نجم الحركات القومية . إلا أن استمرار الاضطهاد فى بلدان شرق أوروبا وروسيا خلال السنوات الأخيرة من القرن الماضى بالإضافة إلى فضيحة دريفوس المشهورة فى فرنسا خلال تلك الفترة والتى تمحيز فيها القضاء ضد ضابط يهودى اتهم بالخيانة قد دفع باليهود مرة أخرى إلى تبنى شعار الحركة الصهيونية المطالب بدولة يهودية فى فلسطين .

وهنا دخلت القوى الغربية وبالذات الاتجاهات الاستعمارية فى حلف مع الحركة الصهيونية وبدأت سلسلة الأحداث المعروفة من وعد بلفور عام ١٩١٧ الذى كان نقطة التحول فى العلاقات اليهودية المسيحية إلى دخول الحكومة الأمريكية برئاسة ترومان عقب الحرب العالمية الثانية فى جانب الصهاينة كأبرز مؤيد ومعين . وتوجت هذه التحالفات بعدوان ١٩٥٦ ثم عدوان ١٩٦٧ وبوثيقة الفاتيكان المشهورة الصادرة فى أواخر عام ١٩٦٤ والتى أعلن فيها البابا بولس

نجت منه قلة أسلموا في الماضي مثل ابن سلام والمخريق وكانا من أحبار المدينة أو في الحاضر مثل كميل باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية خلال حكم السلطان عبد الحميد والكاتب النمساوي المعروف محمد أسد وكان اسمه قبل إسلامه ليوبولد فايس . وتأتى في قمة التسامح والإنسانية الإسلامية دفاع الرسول صلى الله عليه وسلم عن السيدة صفية رضي الله عنها عندما عبرتها السيدة حفصة زوج الرسول وبنت عمر بن الخطاب بأصلها اليهودي . فقد هدأ النبي من روح السيدة صفية وطمأنها بأنها بنت نبي وعمها نبي وهي الآن زوجة نبي فلا فخر لحفصة عليها . وتقول الكاتبة انها لم تتعرض أبداً خلال جولاتها في العالم الإسلامي وإقامتها مع زوجها في باكستان إلى أى طعن أو تمييز بسبب كونها من أصل يهودي .

وفي ظل التسامح الإسلامي عاش اليهود داخل الحضارة الإسلامية أحراراً وانطلقت ملكاتهم الفكرية تبداً في إطار عقائدهم . وتبرز كثر لهذا التسامح تلك الكوكبة المشهورة من دارسي اليهود الذين لمعوا تحت الحكم الإسلامي وإن كان ردهم على ذلك انعدام الولاء للمجتمع الذي برزوا فيه . فهناك سعاديا بن يوسف جاعون الذي عاش في العراق في القرن التاسع الميلادي وفسر التوراة وقيل عنه أنه لولاه لضاعت إلى الأبد . وهناك المجموعة التي عاشت في الأندلس المسلمة خلال القرن الحادي عشر وشملت الشاعر الفيلسوف سولومون ابن

جبريول وموسى بن عزرا الشاعر ومفسر الإنجيل ابراهام بن عزرا والناسك باهيا بن باكودا ثم أعظم شعراء اليهود في الأندلس يهودا هاليني . وحالة هذا الأخير مثيرة للاهتمام فعلاً . فعلى الرغم من الحرية الواسعة التي تمتع بها في نشر أشعاره وكتاباتهِ الدينية التي دارت حول نفوق اليهودية على كل من الإسلام والمسيحية إلا أنه لم يشعر بالامتنان أو الولاء للمجتمع الإسلامي أبداً ووصف نفسه في شعره بأنه «يرسف في أغلال عربية» . وكان دائم البكاء على مصير صهيون الضائعة وسافر للاستقرار بفلسطين . ومازالت أشعار هذه المجموعة من الكتاب تكون جزءاً أساسياً من كتب الصلاة اليهودية الأرثوذكسية ويردها اليهود المتدينون في المعابد كل يوم .

وأشهر شخصية يهودية نبغت تحت حضارة الإسلام هو موسى بن ميمون الذي ولد في الأندلس ثم اضطر هو وعائلته إلى الهجرة إلى المغرب بعد سقوط هذه البلاد في أيدي النصارى . ودرس ابن ميمون في جامعة القرويين في فاس وقد تظاهر بالإسلام لمدة تسع سنوات نتيجة وجوده في وسط متدين ومتحمس من قبائل البربر . وبعد أن هاجر إلى مصر عاد إلى اليهودية مؤكداً أنه لم يعتنق الإسلام أصلاً إلا مضطراً . وقد أقر القاضي القاهري هذا الادعاء ورفض الحكم بأنه مرتد لأنه لم يسلم عن اختيار . وكتب ميمون كتابه الشهير دلالة الحائرين بالعربية دفاعاً عن الدين اليهودي وكان الطبيب الشخصي لصلاح الدين

الأيوبي . وتأثر في كتاباته الطيبة بأعمال ابن سينا والرازي وأكمل هذه الكتابات ابن أخته الذي دخل في الإسلام . أما ابنه ويدعى ابراهيم فقد تزعم الطائفة اليهودية في القاهرة وحاول أن يجعل الشعائر اليهودية أقرب إلى العبادات الإسلامية فأدخل السجود على الصلاة في معبده بدلاً من الجلوس على أرائك وأصر على أن تؤدي الصلوات اليهودية بنوع من الدقة والنظام اللذين تتسم بهما الصلاة في الإسلام . ويعقب باحث يهودى على ظواهر النبوغ اليهودى في وسط الحضارة الإسلامية فيحاول كما توضح مريم جميلة أن يني آثار التسامح الإسلامى بل يرجع السبب إلى أن الإسلام ليس بغريب على اليهودية فهو نسخة موسعة منها مثلما العربية مشتقة من العبرية ! ولذلك فلم يشعر اليهود بغربة وسط هذه الحضارة مثلما شعروا في وسط الحضارة الغربية مثلاً . وترى الكاتبة أن هذا الباحث اليهودى نفسه واسمه سولومون دافيد جويتين من كلية الدراسات الشرقية التابعة للجامعة العبرية بالقدس يعتبر دليلاً على كراهية اليهود للإسلام . وهي تنقل عنه آراء خطيرة كتبها عام ١٩٥٥ في كتاب عنوانه « اليهود والعرب صلاتهم عبر العصور » .

وفي الحقيقة تكشف آراء الكاتب اليهودى عن مجريات الأحداث في مصر بالذات . فهو يقول : « ومن الخطورة بمكان ذلك الهدف المعلن للإخوان المسلمين التي تفاخر بولاء أغلبية الشعب المصرى لها وهو

إعادة الإسلام ليكون قانوناً للدولة فإذا كتب للإخوان المسلمين ومن يشابهونهم في البلدان الأخرى أن ينجحوا في مسعاهم فإن ذلك سيعنى أن مصر وتلك البلدان ستتخس إلى حالة دول العصور الوسطى ويعود المسيحيون واليهود المحليون إلى وضع مواطنين من الدرجة الثانية . وقد أدرك قادة الثورة العسكرية هذا الأمر جيداً وحاربوا الإخوان » . ويمضى بعد ذلك إلى التحذير من تطبيق الشريعة . وربما نفهم هذا الكلام جيداً الآن بعد مضى حوالى ثلاثين سنة لنجد نفس المنطق الذى تحارب به الشريعة الآن مطروحاً منذ فترة . ونفهم أيضاً لماذا ضربت الإخوان ولماذا تضرب الحركات الإسلامية حتى وقتنا هذا . فالجريمة ليست جريمة تطرف أو إرهاب أو محاولة لاغتيال عبدالناصر أو اغتيال فعلى للسادات . إنما هو إجهاض مسبق ومحرض عليه من الخارج بل ومن أعداء البلاد . وربما يكون من المسلمى أن نرى أحد الكتاب الإسرائيليين يمتدح قادة الثورة المباركة لأنهم ضربوا الإخوان وعلينا أن نسترجع في هذا السياق اتصالات عبدالناصر مع اليهود في أوائل وأواخر عهده ثم مع الأمريكان وهى اتصالات أكملها السادات وسار بها إلى النهاية المنطقية والمتوقعة والمتسقة مع ما بشر به الكاتب الإسرائيلى : ضرب للإسلام يتوافق مع صلح مع الصهاينة . وكما بدأت مريم جميلة من الحاضر بخيانة مصرى يخطب ود الأعداء بعد أشهر من تدمير جيش بلاده على أيديهم تختم مسحها

وجه الخصوص تاريخ مصنوع ليس فقط فيما يتعلق بالتفسير والتصوير وإنما حتى في ذكر الأحداث وإبراز بعضها أو إخفاء البعض الآخر. والمهمة المطروحة على كل مسلم مؤمن يسعى للجهاد في سبيل دينه هي أن ينقد هذا التاريخ ويمحصه ويكشف الأيديولوجيات المستترة خلفه والمتظاهرة بالموضوعية والمتخفية وراء باب من الدرس يظنه الناس قرة في ذكر الحقائق واستجلائها. ولا بد من تأريخ صادق وإسلامي يواجه التأريخ العلماني المتغرب الذي فرض علينا كحق لا يأتيه الباطل وهو الباطل بعينه. ويكفي مريم جميلة أن عملت في حدود جهدها المتواضع على ذكر لمحات تلفت بها الأنظار ويبقى دور المتخصصين المتمكنين كما يبقى أيضاً دور شباب الإسلام المتحمس والمثقف.

لمواجهات اليهود ضد الإسلام بالعودة إلى الحاضر لتدين خيانة فئة بأكملها وتكشف عن تواطؤ بين من ضربوا الإسلام وبين من حرصوا عليه حتى ولو غطت الدعايات الرنانة على هذا الموقف. وما بين الحياتين يتضح تاريخ مؤلم مازال بحاجة إلى درس وبحت إذ لا تكفي تلك اللمحات العابرة التي أوردتها الكاتبة عن طريق دارسين هنا وهناك. علينا أن نعيد النظر في العهد الحديثة من منظور هذا التآمر اليهودي الصهيوني. وينبغي أن ننظر في خلفيات الأحداث ونعيد تفسيرها من خلال الإسلام وهجمات المتكالبين عليه. إن تاريخنا الحديث كبه متغربون على اختلاف مواقعهم من يسار ويمين حسب المفاهيم الأوروبية لهذه المصطلحات. وقد فسروا هذا التاريخ وكيفوا وقائعه وصوروه حسب رؤيتهم ولخدمة أغراضهم. فدعاة التغريب والعلمنة هم الأبطال المجددون التقدميون العاملون على النهضة ونشر الاستنارة وبث العلم. أما دعاة الإسلام فهم الرجعيون أعداء المسيرة المعرفلون بجحى الظلام ومثري الثورات المضادة وهم الشياطين الموصومون بكل الألفاظ التي أصبحت ألفاظ سب وشم عند العلمانيين بعد أن فقدت كل معنى ومضمون لها حتى داخل فلسفاتهم ونعني بها ألفاظ الجمود والتخلف والترتمم والتعصب والتطرف ومعاداة العقل إلى آخره.

إن التاريخ الحديث للبلاد الإسلامية وبالذات العربية ومصر على

## عقائد وكتب اليهودية

على الرغم من كثرة ما قيل عن عداة اليهود للإسلام والمسلمين إلا أن الكثير من عقائد ومفاهيم اليهود مازال خافياً علينا أو على الغالبية منا . وفي فترة تلت حرب يونيو عام ١٩٦٧ راجت الكتابة في الديانة اليهودية بغرض التعرف على الأعداء الذين هزمونا . وكان لهذه الكتابات طرائق شتى . فمنها من أغرق في البحث والتعمق إلى حد ينفر القارئ العادي ويجهد المتابع فلا يخرج منها بشيء . ومنها ما صيغ بلغة صحفية خفيفة متلونة تركز على الطريف وتقف عند النادر والغريب بحيث ضاع الهدف وهو التعريف بمعتقدات اليهود . وراح البعض يكتب عن نواح معينة في اليهودية بقصد إبراز السئ الخطير بينما إهتم البعض بنواح أخرى تظهر الطيب المقبول المؤدى إلى التقارب مع اليهود ودولتهم على المدى الطويل وهو ما تحقق في عهد السادات . وفي الغالب الأعم كان الكتاب وهم أصحاب أهواء سياسية معروفة يبرون على اليهودية بدون تعليق مستقرين على الصهيونية . فالأولى عندهم عقيدة دينية لا شأن لهم بها أما الثانية فهي مذهب دينوي هو أصل البلاء والخطر لارتباطه بقيام إسرائيل وعدوانيتها وعلاقتها بالغرب . وتغلب هذا الاتجاه وساد الكتابة عن اليهود لما فيه من مضامين خبيثة توحى بتبرئة اليهود وإدانة قطاع منهم أو فئة أو حزب هو الصهاينة وذلك مذهب أعجب حكام العهد لأنه يوفر عليهم معاداة اليهود كلهم

ولأنه وهو الأهم يعجب أسيادهم في الشرق والغرب الذين أفهموهم أن الدولة اليهودية واقع لا مناص من قبوله وأن عليهم تحضير شعوبهم لذلك بالفصل بين الدولة اليهودية التي لا غبار عليها وبين قطاع من سكانها هم الصهاينة الذين يمارسون العدوان .

وعندما تكتب مريم جميلة عن اليهودية مبتدئة بالعقائد والكتب المقدمة عندهم يلاحظ المرء أنها تجمع في كتابتها بين المذاهب سالفة الذكر . فهي تتعمق دون أن تتحذلق وتذكر الطريف الغريب دون الهبوط إلى مستوى التفاهة والثرثرة الصحفية وتتحلى بالموضوعية فلا تضرب صفحاً عما هو أصيل وأقره الإسلام في اليهودية كالتوحيد مثلاً وهو ما نجا من التحريف إلى حد ما كما لا تسكت عن الإنحرافات والضلالات ومقاييسها في ما تقبل أو ترفض هو الإسلام .

أس العقيدة اليهودية هو الشيا أو السماع وهي عبارة تشبه الشهادة في الإسلام : اسمعى يا إسرائيل إن الرب إلهاً واحداً . ولهذه العبارة تكملة مطولة تحث على حب الإله بكل الإخلاص والعزم وحفظ عبارة الشيا وتلقينها للأبناء وتكرارها في الحل والترحال والرقود والقيام . وأس الأخلاق في اليهودية هي الوصايا العشر المشهورة والمذكورة في سفر الخروج وهي : لاتخذ آلهة غيرى ، لاتدنس اسم الرب ، حافظ على يوم السبت وقلده ، كرم أباك وأمك لتعيش طويلاً في الأرض التي يعطيك إياها الرب ، لاتقتل ، لاتزن ، لاتسرق ، لاتشهد على

جارك ، لا تشته بيت جارك ولا زوجته ولا خدمه ولا ثوره ولا حاره  
أو أى شئ يملكه . أما الوصية الأولى فنقول : أنا الرب إلهك الذى  
أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . ويزيد البعض وصية  
أخرى هى : أحب جارك كما تحب نفسك .

وقد لخص الفيلسوف موسى بن ميمون عقائد اليهودية فى ثلاثة  
عشر مبدأ يرددها اليهودى المؤمن فى المبد كل يوم وفيها الإيمان بالخالق  
صانع كل شئ ووحدانيته المتفردة المترهة عن التجسد أو التغير أو  
الشبه . وأن هذا الإله هو الأول والآخر الجدير بالصلاة إليه وحده .  
وتحت هذه العقائد الثلاث عشرة على التصديق بكلام الأنبياء ونبوءة  
موسى وعلو قدره على من سبقه أو أتى بعده من الأنبياء وبصحة التوراة  
الموجودة لديهم وأنها هى التى أتى بها موسى بدون تغيير . وتتضمن  
العقائد كذلك الإيمان باطلاع الإله على أفعال وأفكار البشر وأنه يكافأ  
من يحفظ وصاياه ويعاقب من يخرقها وأنه يبعث الموتى . وأهم هذه  
العقائد الإيمان بقدم المسيح وانتظاره .

تشير الكاتبة إلى الوحدانية فى اليهودية القريبة من مفهوم الإسلام  
لكنها تبين أن هذه الوحدانية قد أفسدت منذ البداية وفى عقيدة السماع  
نفسها نغمات القومية والعنصرية المغلقة على قوم أو أمة أو بنى إسرائيل  
وخدمهم . فالرب عندهم هو ربهم وخدمهم وهو لا يهتم إلا باليهود شعبه  
المختار . بل إن ميثاق هذا الرب لم ينعقد إلا معهم . ولا ينشر اليهود

ديانتهم بين الآخرين كما لا يرحبون بالداخلين فيها . وعلى مر تاريخهم  
الطويل لم تدخل أُمم فى اليهودية إلا مرتين إحداها فى اليمن قبل بعثة  
النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقرون والأخرى عندما اعتنقت قبائل  
الحزب اليهودية فى القرن الثامن الميلادى هرباً من اضطهاد النصارى .  
وهذه القبائل عاشت فى جنوب روسيا وهى من أصل تترى وشكلت  
مملكة صغيرة سرعان ما انهارت . وتقول مريم جميلة أن اسم الديانة  
نفسه مشتق من احد أسباط بنى اسراييل الإثني عشر وهو سبط يهوذا  
فكانها ديانة مغرقة فى الطابع القومى حتى من اسمها .

ويتجلى الطابع القومى العنصرى فى رفض المجتمع اليهودى للأفراد  
الداخلين فى اليهودية والتشكك فى دوافعهم . وتقص مريم جميلة أمثلة  
من معارفها فى نيويورك فتحدثنا عن الفتاة الألمانية التى تزوجت من  
يهودى واعتنقت دينه ومع ذلك ظلت أسرته تقاطعها وعن المسيحية  
الأمريكية التى دخلت اليهودية عند زواجها من شاب يهودى لتفاجئ  
بأن من سلطة الحاخام عدم قبول هذا الاعتناق للدين . وهى تقارن  
ذلك السلوك مع ترحيب المسلمين بها رغم معرفتهم بأصلها اليهودى .  
وتظهر العنصرية أيضاً فى المفهوم القائل بأن أى شخص ولد لأبوين  
يهوديين هو يهودى على الدوام وإلى النهاية حتى لو أُلحد ونبذ عقائد  
وشعائر الديانة . ولهذا يجب اليهود فرويد وماركس ويعتبرونها من  
قومهم .

فدى بالكبش . ومن هنا تنبع عداوة اليهود التي لا تلتين للعرب وهي عداوة ينقلها بولس في الإنجيل بإدائه لإسماعيل كابن للجارية . وتقارن مريم بين هذا الموقف وتكريم القرآن لإسماعيل عليه السلام كنبى شارك أباه فى بناء الكعبة .

ويتخذ موقف اليهود من الأنبياء شكل التشويه كما اتخذ شكل الاضطهاد مع يوحنا مثلاً . فنجد عندهم أن نوحاً (وهو ليس معدوداً من الأنبياء) قد ثمل بالخمر ذات يوم واستلقى فى خيمته عارياً فدخل عليه ابنه حام . وعندما شاهد الابن عرى ابيه حلت عليه لعنة الله وتحول جلده إلى السواد وحكم على ذريته بالعبودية . ونقرأ فى سفر الملوك فى التوراة أن داود أعجب بامرأة جميلة شاهدها تستحم فقتل زوجها كى يستحوذ عليها . وكانت ثمرة هذا اللقاء سليمان الذى أولع بالنسوة الوثنيات وانتهى به المآل إلى عبادة الأصنام .

ومع الحديث عن عقائد اليهود ومواقفهم يتطرق الذكر إلى كتبهم التي يعتقدون فى قدسيته . فهناك الكتب الخمسة أو الخموش المتضمنة للشريعة الموسوية ويجانبها توجد التعاليم التي يعتقدون أن النبي موسى تلقاها شفاهة من الرب على جبل موسى . وكلا التشرين المكتوب والشفهى يكملان بعضهما . وكان الكهنة والأخبار يتولون حفظ هذه النصوص ولكن بعد تدمير الهيكل للمرة الثانية عام ٧ بعد الميلاد على يد الرومان وتشتت اليهود من فلسطين رأى الأخبار كتابة التعاليم

وتذكر مريم أنها استمعت إلى حاخام فى نيويورك يقول عقب إقامة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ان الولاء للشعب اليهودى أهم بكثير فى اليهودية من الإيمان بالإله . وكان ذلك إجابة على سؤال وجهه له زعيم صهيونى خلال مقابلة إذاعية حول أيهما أكثر أهمية الإيمان بالتوراة والالتزام بشريعتها أم الولاء للشعب اليهودى . وهى تعلق على هذا التصور من حاخام بارز بأنه يعكس مدى ضيق النظرة والانغلاق المमित الذى أدى إليه الطابع القوى العنصرى لليهودية . وهذه النظرة تترى بمفهومهم عن وحدانية الإله وتلغى دوره كخالق وحاكم للكون والبشر .

وهى تنتقل بنا بعد ذلك إلى نقطة مألوفة من عقائدهم تتعلق بموقفهم من الأنبياء . ونفاجئ بأن آدم ونوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وأيوب (عليهم السلام) ليسوا من الأنبياء عندهم . بينما يوقرون ومعهم النصارى شخصيات غير مذكورة فى القرآن على أنهم من الأنبياء ذوى القدر كأشعيا وعاموس وجيريميا وحوزيا وناتان ودانيال . ويبرز فى هذا المجال كراهيتهم لإسماعيل ووصفه برجل الصحراء المتوحش الذى يجارب الكل ويحاربه الكل . وهو ابن الأمة هاجر المنبوذ والمحروم من ميراث أبيه وهو ليس الذبيح بل إسحاق هو الذى حاز هذا الفخر على الرغم من أن التوراة تنص على أن ابن إبراهيم الوحيد (أى إسماعيل المولود قبل إسحاق) هو الذى



أيدينا نضراً صحيحاً جاهد فيه خير أبناء هذه الأمة .

ومع غيرة اليهود على كتبهم المؤلفة يتهمون على الإسلام ويقولون انه ليس إلا نسخة محرقة من اليهودية ممتزجة بأفكار الوثنية العربية وتعاليم بعض الفئات المسيحية المنشقة. وتقول مريم جميلة: إن هذا التصور يعرض على الطلبة في جامعات أمريكا على يد يهود يؤلفون المناهج المتعلقة بالإسلام هناك. وكل ما يدلل به اليهود على دعواهم أن القرآن والسنة يحتويان على أفكار أو قصص أو تصورات وردت في اليهودية . وتتعجب كاتبتنا من هذا التذليل وتقول: أنه لا يشير إلى أن الإسلام وهو اللاحق قد إستعار من اليهودية السابقة عليه بل إن كليهما في الأصل وحى إلهي . ولأن اليهودية حرفت فقد أرسل الله الإسلام الحق وحفظه من التحريف . واليهود أنفسهم يعترفون من خلال جدل الأخبار الدارسين بعدم التأكد من تواريخ أسفار التوراة وشخصية كاتبها بل وصحتها هي نفسها . ولا يعتبر معظم اليهود المعاصرين التوراة على أنها وحى إلهي . وهي تدرس في مدارس إسرائيل الحكومية على أنها نص تاريخي أدبي . وتتساءل مريم جميلة عن المصدر الذي نقل الرسول التوراة عنه وتعلمها منه وأخبار المدينة الذين يشير اليهود إليهم قد حاربوه وقاطعوه كما أن التوراة نفسها لم تكن مترجمة إلى العربية . والمعروف أن الكتب الخمسة الأولى لم توضع في شكلها النهائي إلا بعد ثمانية قرون من وفاة موسى . وقد جمع الحكيم عزرا العديد من

الشفهية فدونهاها مقننة في كتاب عرف باسم المشناه الذي شرح بتفصيل وإسهاب في كتاب آخر هو الحاراه . والكتابان معاً ما يطلق عليه التلمود . وقد كتب الأصل المعتمد عندهم للتلمود في العراق على يد الأبحار في الفترة بين القرنين الثالث والخامس الميلادى . وبجانب التلمود نشأ تفسير دارج للتوراة أسمى بالمدراشي . وكانت القدسية في أول الأمر مقتصرة على الكتب الخمسة أو الخوميش ثم أسبغت على التلمود باعتبار أنه كتب بوحي إلهي .

وكتبهم موضوعة بالعبرية ويحرصون أشد الحرص على تعليمها لأبنائهم رغم كبر حجمها فالتلمود وحده يقع في أربعين مجلداً . ودراسة التوراة (ومعها التلمود) أهم واجبات اليهودي . وتدل على ذلك أقوال حكمائهم : قال الحاخام أليعازر بن عزاريا : إنه حيثما لا توجد التوراة لا يوجد سلوك طيب ، وحيث ينعدم الخلق تنعدم التوراة . ويقول الحاخام شمعون : إنه إذا جلس ثلاثة إلى المائدة ولم يتحدثوا عن التوراة فكأنهم يأكلون من قرابين الأوثان النجسة فبدون حضور الإله يتنجس المطعم . أما إذا أكلوا على المائدة وتحدثوا في التوراة فكأنهم أكلوا من مائدة الإله . ويقول الحاخام إيلعازر أنه يجب الإشتياق لدراسة التوراة لمعرفة الرد على غير المؤمنين . وربما نعى على ضوء هذه الأقوال هجر القرآن وتحويل الأنظار عنه كمجرد كلام مكرر لا طائل من ورائه . وربما تدفنا غيرة غيرنا على ما ألفوه إلى أن نغار على كلام الله الحق الموجود بحفظه بين

الأخبار والكهان والكتابة أمثاله وفيهم المؤرخون والفقهاء ومعلمو الأخلاق العارفون بالكتابات اليهودية المقدسة والتراث والشعائر والطقوس الدينية . واجتمعوا كلهم على جمع وتحقيق كتب موسى الخمسة . ونتيجة لتباعد العهد عن مصدر الوعي (ثمانية قرون) ونتيجة أيضاً لقيام الكتابة بوضع النصوص حسب اعترافهم فقد كان لا بد من وقوع التحريف . ومما يبرهن عن الأصل البشري لأسفار التوراة أن كاتبها وضعوها وأشاروا إلى الإله فيها بضمير الغائب بدلاً من ضمير الحاضر كما نجد في القرآن عندما يتحدث الله .

وتتضح عقائد اليهود ومفاهيمهم من خلال كتبهم هذه . ولعل غياب مفهوم محدد عن الآخرة والحساب الآخروي هو أبرز ما يلفت نظر الكاتبة ويشدنا معها لوجود هذه العقيدة في مركز الصدارة بين عقائد الإسلام . وتستعرض مريم جميلة بعض صلوات اليهود الهامة والتوراة والتلمود فلا تجد إلا إشارات مبهمة عن يوم الحساب أو تصور الحياة الآخرة . وهي تشير على سبيل المثال إلى أن الأنبياء في التوراة يتوعدون بني إسرائيل بالعقاب الإلهي على خطاياهم في صورة الهزائم وتدمير ممتلكاتهم واضطهادهم ونفيهم على يد أعدائهم . ولا يوجد أي ذكر لعقاب آخروي بعد حساب في يوم القيامة أو للذهاب إلى الجحيم . وتتكرر في كتبهم عبارة تقول : إن لكل إسرائيل نصيب في العالم الآخر . وهذا يعني أن اليهودي سينجو في الآخرة لمجرد كونه مولود في

اليهودية بصرف النظر عما يعتقد أو يفعله .

وتهم الكتب المقدسة اليهودية بالعودة إلى فلسطين اهتماماً يغطي على طرح تصور للآخرة . كمثل أن الصلاة الدائمة لليهودي هي عن رفاة قومه في هذه الدنيا . وفي صلاة المريض أو دعائه من أجل الشفاء تتردد كلمات كاشفة : يا إلهي انقذ حياتي في الموت لا ذكر لك ومن يفكر فيك في القبر . وتذكرنا مريم جميلة بوصف القرآن لحرص اليهود على الحياة ورغبتهم فيها وغفلتهم عن الآخرة مقارنين بالمسلمين الذي يطلبون في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويسألون الوقاية من عذاب النار .

ويتبلور هذا الاتجاه اليهودي في خوف مرضي من الموت يتناقض مع تقبل المسلم كأمر الله وكقدر لا مفر منه . وينظر اليهود إلى الموت باعتباره أفضح الشرور التي يمكن أن تحيق بالإنسان . ويفلسف كاتب يهودي هذا الاتجاه فيقول إن اليهودي يعتبر الحياة أفضل نعم الإله للإنسان وهو يجعل التعلق بهذه المنحة أوجب واجباته . ويرى اليهود أن أسوأ حياة هي أفضل من أحسن موت . وهم يتجنبون ذكر كلمات الموت في لغتهم اليومية . ويظهر هذا التعلق بالحياة في بعض المظاهر التي كان اليهود في الماضي يلجئون إليها لإنقاذ المريض المشرف على الموت بتغيير اسمه والتضرع أمام قبور أسلافه والبكاء والنواح أمام تابوت العهد في المعبد حتى «يستصرخونه» من بين أيدي الموت .

وترى مريم جميلة في غياب مفهوم الآخرة وخوف الموت والتعلق

الزائد والمرضى بالحياة حتى في لحظات مرض الموت بترأ للبعد الروحي في اليهودية ودلالة على التحريف عن الأصل الإلهي لها . ومع الدخول في هذه العقائد التفصيلية تنتقل بنا إلى بحث في شعائر وأخلاقيات هذه الديانة تواصل فيه المقارنة مع الإسلام ولا تخلو كتابتها فيه من عبر يستخلصها المسلم .

## عبادات وأخلاق في اليهودية

الصلاة في الإسلام هي عماد الدين ومن أقامها فقد أقام الدين . فهل في اليهودية صلاة وكيف تكون ؟ تذكر الكاتبة أن الصلاة معروفة عند اليهود وأنها كانت في الماضي البعيد وإلى القرن الثاني الميلادي تشبه صلاة المسلمين من حيث اشتغالها على السجود وعلى الوضوء قبلها كما عرفوا الاغتسال بعد الجماع وقضاء الحاجة ليلاً والدورة الشهرية عند النساء . وذكرت التوراة أن النبي دانيال كان يولى وجهه شطر معبد القدس كلما صلى مما يعنى وجود فكره القبلة . وتوجد طائفة صغيرة منقرضة من اليهود هم السامريون يصلون ثلاث مرات في اليوم بوضوء ويركعون ويسجدون ويضمنون أذعيتهم بعض العبارات الإسلامية مثل لا إله إلا الله لا شريك له ويبدءون كتبهم بالبسملة الإسلامية . غير أن هذه الطائفة مرفوضة من سائر اليهود لأنها ترفض التلمود وسائر كتب التوراة ما عدا شريعة موسى .

وتفسر مريم جميلة أسباب اسقاط هذه الأركان القديمة للصلاة اليهودية وتحويلها إلى أدعية مطولة ترتل في وضع الجلوس على المقاعد أو الأرائك إلى رغبتهم في مخالفة المسلمين والتميز عنهم . وقد تغيرت الصلاة عندهم إلى ما يقرب من صلاة النصراني إلا أنه ما زال فيها ما يشبه الصلاة في الإسلام من حيث الجماعة وتفضيلها على الانفراد وعدم ضرورة توجه النساء إلى المعابد لانشغالهن بالواجبات المنزلية والفضل بينهن

وبين الرجال في المعابد الأرثوذكسية . وقد ألغيت الكهانة عند اليهود بعد تدمير الهيكل وترك أمر عودتها إلى الرب . والحاخام أقرب إلى عالم الدين المسلم منه إلى الكاهن المسيحي من حيث أنه متفقه في الدراسات الدينية . ويمكن الصلاة في حالة غياب الحاخام طالما وجد ذكر بالغ يمكنه قيادة الصلوات . وأقل نصاب تصح به الجماعة عند الصلاة هو أحد عشر شخصاً . وتذكر الكاتبة أن أحد أقربائها كان يصلي هو وسبعة من أصدقائه على روح والده خلال إقامته لمسكر صيني فلما عاد من الإجازة وأخبر الحاخام بما فعل متوقفاً للثناء فوجئ بأن صلاته في أقل من العدد المفروض لا تجوز لاسيما وأنه لم يكن قد وصل إلى سن البلوغ بعد . وكان من جراء ذلك أن هجر المعبد إلى الأبد . ولا توجد موسيقى بالمعابد الأرثوذكسية إذ منعت بعد تدمير الهيكل .

وتقتبس مريم جميلة فقرات مطولة من الصلوات اليهودية المتكرره وتتوقف عند هذه الفقرات التي يلحون عليها : ائت بنا إلى صهيون إلى القدس حماك بالسرور الخالد . أرض يا الهنا عن شعبك إسرائيل وعن صلواتهم وأعد العبادة إلى أقدس حمى لك وتقبل قرابين إسرائيل وصلاتها بالحب والكرم . فلتنظر أعيننا عودتك بالرحمة إلى صهيون . مبارك أنت يا الهنا يا من تعيد حضورك الإلهي في صهيون . يا الهنا واله آبائنا استجب لتوسلنا وأعد بناء هيكلك كما كان في السابق وأقم حماك على موقعه . وامنحنا أن نراه وقد أعيد تشييده وقد أهبجتنا عودته .

أعد الكهنة إلى خدماتهم والأخبار إلى أغانيهم وموسيقاهم وبنو إسرائيل إلى وطنهم .

هذا هو جوهر الصلاة في اليهودية . وربما نسميها صلاة سياسية أو صلاة ذات هدف . لكنها أيا نسميها صلاة موجهة ضد المسلمين . فهم يطلبون ثاني الحرمين ومسرى الرسول ونقطة معراجه . وهنا يتبلور الصراع بين صلاة اليهود وقرآن المسلمين وتتحدد خطوط المواجهة والولاء بين مقدسات مطلوبة ودفاع إسلامي عنها . إنه الصراع بين قدس الأقداس عندهم وقبة الصخرة ولا مجال هنا للحلول وسط إلا إذا تنازل أحد الطرفين وهو ما كاد يحدث أو حدث بالنسبة لطرف وصف ظلماً بأنه يمثل المسلمين . الصلاة إذن هي عماد الدين عندهم أيضاً . ونحن في الصلاة هنا أو هناك نجد أنفسنا في قلب الدنيا حتى وإن خرجنا عنها . أما في الإسلام فهي بؤرة تجمع قمة السمو الروحي مع قمة العمل الدنيوي فالصلاة يحميها درع الإسلام كلها ولا خطر عليها طالما وجد المجتمع الإسلامي والخطر كل الخطر عليها وتنحل عروتها إذا فقد هذا المجتمع وضاع المسجد وسقط الناس أسرى لحكم أو قيم أو تصورات غير المسلمين . إنها دعوة للجهاد من خلال صلاة اليهود . وهذه الصلاة تعرفنا أن صلاتهم تعني ضياع القدس وسقوط الخلافة ونشر اللادينية وزوال حكم الإسلام ثم ضياع الصلاة بين المسلمين . إنها صلاة ضد الصلاة . صلاة التحريف القومي العنصري ضد صلاة

الإنسانية المهتدية بنور الحق . هل عرفنا الآن لماذا كتب الجهاد؟ وهل عرفنا أن العلمانيين الذين يقولون لنا الدين صلاة فحسب يكذبون وينفضحون عند أدنى تحليل فكيف الصلاة والمساجد محتلة ومأسورة؟ وكيف الصلاة والصلاة المضادة تدبر أمراً؟ وأين تقام الصلاة ومن يقيمها والتعليم الديني ممنوع؟ ومن يصليها والدعوة الدينية مطاردة في نظام اللادنيين؟ بل من يهتم بها وهم يأسرون أبناء الإسلام في أسر وقبضة مذاهبهم بقهر المادة والدعاية وقمع السلطات فلا يدعون حرية لطالب فهم أو دين؟ يالها من كذبة تخرج من أفواه دعاة قصر الدين على الصلاة هؤلاء .

ونأتى إلى الصيام عند اليهود وهو عندهم للتكفير وإبداء الندم على الذنوب يوماً واحداً عرفناه هو يوم حرب رمضان التي انتصرنا فيها فأسميناها أسماء وثنية (أكتوبر وتشرين) لكيلا يغضب أعداء الدين ولأن العلمانيين أنكروا المدد الإلهي ولكيلا نحبي روح الجهاد الإسلامي . أما هم فكادوا ينهزمون فيها ومع ذلك احتفظوا باسم يوم صومهم : يوم الغفران أو يوم كيبور . وهناك يوم آخر يصومونه عندهم هو التاسع من شهر آب اليهودى ذكرى تدمير الهيكل للمرة الثانية على يد الرومان عام ٧٠ ميلادى . وهدف صيامه الذكرى والحزن والتضرع لإعادة الهيكل وهذا الغرض الأخير يذكرنا بالصلاة السياسية ويعيدنا إلى التدبير ضد المسجد الأقصى .

وتقارن الكاتبة بين هدف الصيام يوماً واحداً من مغرب الشمس إلى غروب شمس اليوم التالى بهدف التطهر من الذنوب بصيام رمضان شهراً كاملاً لتقوية الإرادة ومقاومة الوسوس والشهوات والارتقاء بالنفس من الحيوانية إلى تحقيق درجة استحقاق خلافة الله على الأرض ، ، وتتساءل لماذا ينحصر طلب المغفرة يوماً واحداً في العام وفي الإسلام تطلب في كل وقت من كل يوم وفي الخمس صلوات . وكيف يكفى يوم واحد للتطهر؟

والزكاة موجودة في اليهودية بلفظ يقارب اللفظ العربى وتوجيها شريعة موسى بنسبة عشر غلة المحاصيل بل وتأمير بترك أطراف الحقول غير مجنبة للفقراء . ويقول التلمود: أن مساعدة الفقراء ليست تكراً بل واجب تدعو إليه دواعى العدالة والتقوى . فكل ما يملكه الإنسان بما فيه جسده معار إليه من الخالق وتصرف المخلوق فيه لمصلحة الفقراء هو لتأكيد التوزيع العادل لنعم الإله . وتنتهز مريم جميلة فرصة التعرض لموضوع الصدقات وأعمال الخير والزكاة فتصنع اليهودية وقبل أن يهتز المسلمون طرباً تؤدبهم بصفعة أقوى يشعر بها القارئ ولو بعد طول الآوان .

للصدقات أهمية في شرع اليهودية تبرزها قصة الخاخام أكيبيا مع حاكم فلسطين الرومانى تينوس روفوس . فقد سأل الحاكم الخاخام : إذا كان إلهكم يحب الفقراء فلماذا لا يرزقهم؟ ورد الخاخام : كى

من باكستان أو حتى من دول البترول العربية إذا ارتفعت دعوة للجهاد في فلسطين . وتترك لقارئها الإجابة حياً أو تأنيباً .  
وهي تستدرك بعد هذه الصفة منبهة إلى أن دوافع الإنفاق عند اليهود هي إما رغبة في المساعدة الانسانية أو التظاهر والتفاخر الديني بينما هي في الإسلام مندرجة تحت مرضاة الله وطلب عفوه والنجاة في الآخرة بجانب دوافع العدالة والتراحم في مجالات التكافل والرعاية الاجتماعية وهو يفوق ما يفعله اليهود كثيراً فإن الصفة تتحول إلى ضربة موجعة تقضى إلى الحسرة واليأس والخوف القاتل من عقاب الله إلا إذا انتهت إلى تغيير السلوك وإصلاح الأوضاع في مجال الإنفاق والمساعدة الاجتماعية .

لكننا يجب أن نوضح ما تناوله الكاتب على سبيل المصدرة للمسلمين . إن اليهود والنصارى ينشطون في المجالات ولا تضرب حركاتهم كل بضعة أعوام بتهمة التعصب ولا تصادر ممتلكاتهم أو معابدهم وكنائسهم ولا تقيد حريات كهنتهم وأخبارهم ولا تشوه أفكار دياتهم أو تحجب عن الناس ولا يخضعون لسلطان الحكومات بل يوجهونها هم أو يؤثرون فيها في دول الغرب وما يسمى بالعالم الثالث . أما أحوال المسلمين فهي كما نعرف على النقيض من ذلك في كل بلادهم . وأخطر ما في الأمر وهو ما نود تنبيه القارئ له أن أموال وممتلكات المسلمين قد نزعت منهم في أوطانهم وحيث هم أغلبية وذلك

يكونوا سبياً في خلاصنا من عذاب جهنم . أي بعد تصدقنا عليهم ومساعدتهم . وهنا تأتي الصفة . إذ تقارن الكتابة ذلك الموقف برد اليهود عندما أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بني قينقاع يحثهم على الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وهنا رد أحدهم وهو فنحاص بن عازورا متهمًا على «أبو بكر» رضي الله وساخراً : إن ربكم إذن فقير حتى يطلب قرصاً منا . حقاً كم تحولت التعاليم وتبدلت إلى النقيض مما هو مكتوب عندهم . ولا عجب فهو مقام التعصب ضد النبي . وضد الدين الحق تمسكاً بدين حرفوه على هواهم .

لكننا لسنا في مجال تسجيل النقاط في مباراة رياضية . فإذا يفيد السرور الأبله عند اكتشاف عداوة اليهود للإسلام أو تلاعبهم في تعاليم دينهم مدفوعين بالحقدهم عليه ؟ ما هو واقعهم وواقعنا ؟ ولا بد أن نعرف أن المجتمع اليهودي يرعى أفراده العاجزين بينما فشلنا نحن المسلمين في ذلك على الرغم من أوامر ديننا في هذا الصدد . إن من دواعي الفخر للمجتمعات اليهودية حينما وجدت توفر شبكات متكاملة من ملاجئ الأيتام والمسنين الذين لا عائل لهم وورش للمعوقين جسدياً وذهنياً لتأهيلهم للحياة العادية والعمل . أما المسلمون فلا يوجد عندهم شيء من هذا القبيل . وتتجلى نزعة الإنفاق في سبيل المجتمع والدين في التبرعات الهائلة التي تتدفق على إسرائيل من يهود أمريكا لاسيما كلما قاموا بعدوان جديد . وتتساءل الكتابة من واقع وطنها الجديد باكستان : كم دولاراً ستجمع

سواء في عهود الاستعمار أو حتى عهود الحكومات العميلة التي خلفته في عهد ما وصف كذبا بالاستقلال . إن المسلمين ليس لديهم كنيسة أو وكالة يهودية تتولى شئونهم ولكن كانت لديهم دولة الخلافة أو دويلات مستقلة لكنها واضحة الوظيفة وهي حماية الأغليات الإسلامية ورعاية الشريعة والتعليم الديني وأمور الشعب . ومهما كان فشل هذه الدول وتحاذ لها وهو ما يحدثنا عنه التاريخ إلا أن ارتباطها بجماهير المسلمين وتعبيرها عنهم واتخاذ الدين أساساً لشرعيتها كان بمثابة المنطلق الذي يمكن أن يبدأ الإصلاح منه . كانت هذه الدول هي بمثابة عنصر التجميع والوعى والتعبير عن المسلمين الذين لا توجد عندهم كما قلت تنظيمات كهنوتية . ولكن عندما سقطت هذه الدول إما تحت وطأه الاستعمار أو لانهارها الداخلي حلت محلها حكومات علمانية لا دينية تقوم على أساس قومي أو وطني أو حتى عقائدي غربي ولا تتحمل أية مسؤوليات تجاه الإسلام والمسلمين وهم الغالبية الساحقة من السكان في بلادهم . بل تزعم أنها تخدم الجميع بما فيهم الأقليات بمساواة لكنها في الحقيقة ولتخلفها لا تخدم أحداً سوى الطبقات المحدودة المؤلفة لها وهي طبقات العلمانيين ومعهم أبناء الأقليات وكلهم يعادون الجماهير المسلمة ويسعون لإذلالها وتطويعها حتى تكفر بالإسلام . وأهم وسائل الإذلال هي : التجويع والتجهيل الديني . ولهذا يكثر الفقراء والمشردون والضائعون والمرضى ولا يهتم بهم أحد . فالمؤسسات الدينية هي مجرد

معاهد تعليم والأوقاف صودرت في عهود الاشتراكية أو اللصوصية الانفتاحية ومؤسسات الرعاية الحكومية هي روتينية مفلسة تبعاً لإفلاس الميزانيات ولا تكاد تقدم خدمة تذكر وحتى إذا ساعدت فإن ذلك يكون لفئات معينة وفي إطار الفلسفات اللادينية وعلى سبيل الدعاية لها . أما غير المسلمون فلديهم مؤسساتهم الخاصة في مجالات الرعاية الاجتماعية فوق ما يستفيدون منه خلال المؤسسات العامة التي تحاييهم في كثير من بلاد الإسلام لقوتهم وتربطهم وقدرتهم على الشكوى ورفع الصوت .

هكذا يضع المسلمون في بلادهم ويتقدم غيرهم في بلادهم أيضاً وليس السبب لذلك مجهولاً بل هو معلوماً وظاهراً في الاستيلاء على ثروات المسلمين لحساب الحكومات العلمانية وقيام هذه الحكومات بإدارة هذه الثروات لأهدافها الخاصة التي تختلف عن أهداف المسلمين بل تناقضها في غالب الأحيان . فلا تجدى إذن مصمصة الشفاه عند الحديث حول مشاكل الفقر والتفكك الاجتماعي في بلدان الإسلام بل لا بد من النظر في هياكل السلطة والثروة والسلاح ومن يقبض عليها ولصالح من تدار وهل إسلامية الهدف والطابع أم علمانية متغربة معادية للإسلام . إن مشكلة الفقر لن تحل بالصدقات التي يقدمها فقير لمن هو أفقر منه وإنما تحل بعودة ثروات المسلمين الطائلة إليهم وإدارتها وإنتاجها وتوزيعها من خلال دول أو دولة إسلامية تراعى الأغليات الإسلامية ولا تقام لصالح

الأقليات لصالح الأقليات العلمانية . وربما حان الوقت لهذا الحل الإسلامي قبل أن تتحول الأغليات إلى أقليات بفعل سياسات تحديد النسل والتفكك والتشردم المفتعل والموجه . وترتبط بمشكلة المال في الدين قضية الربا . وهنا تذكرنا مريم جميلة بموقف متناقض لليهودية في أخذ الفوائد الربوية . فالتلمود يحرم الفوائد الربوية في موضع قائلاً: ان أخذها ينكر الإله ويستزئ بالتوراه . لكن الشريعة الموسوية حرفت في مواضع أخرى لتسمح لليهودى بالتعامل الربوى مع غير اليهودى : لا تقرض أخاك بالفائدة في المال أو المطعم أو أى شىء مما تؤخذ عليه الفائدة . لكن يمكنك أن تقرض الأجنبي بالفائدة ولا تقرض أخاك بالفائدة كى يباركك الرب في كل ما تضع يدك فيه . ومن هنا ينشأ الاستغلال اليهودى للغير ومن هنا كذلك تضخمت تلك الشبكة المالية الجهنمية التى حكموا بها أوروبا وأمريكا ثم شاركهم فيها النصارى لتقوم الرأسمالية العالمية أداة الاستعمار وإفقار الشعوب وإغراقها بالدين وربطها بأقساط الفوائد وإملاء سياستها صلحاً مع إسرائيل أو ضرباً للإسلام المكافح الذى يحرم الربا على الجميع ويضرب جذور الاستغلال . إن تعدد المقاييس دليل على التحريف . وتختتم الكاتبة هذه التأملات في العبادات بحديث عن الحج الذى لا يوجد فى اليهودية إلا على شكل زيارة لحائط المبكى ونواح ودعاء وذكرى عنده . أى حج سياسى يضاف إلى الصلاة والصيام من أجل

عودة القدس وبناء الهيكل . وهذا يعنى أن شعائر هذا الدين ترتبط بالقدس أيما ارتباط مما يعنى أن التخلي عنها أو حتى مشاركة المسلمين فيها ليست سوى وهم كبير وأن المسجد الأقصى الذى صلى فيه السادات تحت حراب اليهود مستهدف عندهم بالتخريب فى صلاتهم وصيامهم وحجهم . وإذا كان حجهم إلى ذكرى المعبد وقدس الأقداس فهم أكثر الناس طعنا فى الحج الإسلامى بتصويره على أنه من بقايا الوثنية العربية . وتقول الكاتبة : إن الحج فى الإسلام خلو من أى مظهر وثنى وهو اجتماع عالمى للمسلمين تتجلى فيه أخوتهم وتضامنهم وهذا هو السبب الحقيقى الذى يثير حقد اليهود على هذه الشعيرة ومحاولة تشويهها . وهناك سبب آخر وهو أن تحويل القبلة إلى الكعبة وهى أحد مراكز توجه الحجيج كان بمثابة إعلان إلهى عن إنهاء دور بنى اسرائيل للارتبط بالقدس والمعبد المدمر وإعلاء أبدى لشأن الاسلام .



## مفهوم الحرب عند اليهود

الوثنيين بمشاعر التعصب القومي لتفرض أخلاقيات معينة في الحرب تم عن دخول التحريف إلى الأصل الإلهي لليهودية .

فعندهم في النصوص المقدسة أن الجيش إذا أتى إلى مدينة يدعو أهلها للسلم فإن استجابوا فهم مسخرون للفاتح وخدمته وإن أبوا فتفتح المدينة بحد السيف ويذبح الرجال وتقع النساء والأطفال والمواشي غنيمة للجيش المنتصر اليهودي . ومكتوب أيضاً : لا تترك حياً كل من يتنفس بل دمرهم كلهم ، الحِيثين والعموريين كما أمرك الرب إلهك . وربما كان لإعلان الحرب على القبائل الوثنية المشتركة ما يبرره كما تقول المؤلفة من خشية تأثيرها على اليهود الموحدون . لكن ما لا يبرر هو أن تكون هذه الحرب في مفهوم اليهود لإبادة الشعوب الوثنية وليس لدعوتها إلى الدين التوحيدي . وهنا تضع مريم جميلة يدها على تصور في غاية الخطورة بعث في الصهيونية الحديثة . وهو تحويل الدين إلى عقيدة قومية منغلقة محدودة على قوم بعينهم لا تتجاوزهم بالدعوة (الإسلام) أو التبشير (المسيحية) إلى أقوام آخرين وتشبه اليهود هذه الناحية بالهندوس فكلاهما عنصري يغلق دينه على قومه ويتعصب على من عداهم دون دعوتهم إلى الدين .

هكذا كانت اليهودية ديناً مغلقاً قليلاً لا يرحب بالقادمين الجدد . والحرب التي يشنها أتباع هذا الدين على أعدائهم ليست حرباً لنشر الدين وفتح أبواب الدعوة . فلم يكن يجدى الحثي أو العموري أن

اشتهر اليهود في الماضي القريب بالمهارة الحربية على حساب بعض حكام العرب الذين أسسوا جيوشهم على مبدأ الولاء لأشخاصهم أو احزابهم دون الولاء للدين والشعب المسلم والوطن المسلم والذين وظفوا هذه الجيوش في القمع الداخلي والمغامرات الخارجية . وفي مقابل هذه الشهرة كانت هناك سمعة جديدة للمسلمين كأسوأ مهزومين بل ممتنعين أصلاً عن الدفاع عن أنفسهم . وأسقط مفهوم الجهاد في الإسلام وشوه ليصبح بلا معنى وطورد من يرفع شعاره أو يدعو إليه كخارج عن الدين أو نائر على السلاطين الذين كرسوا الخنوع والاستسلام للأعداء في داخل أوطان المسلمين وخارجها .

وفي ظل غياب الجهاد الإسلامي وتضاعف نزعة الحرب اليهودية وصلنا إلى يونيو ١٩٦٧ ثم إلى إجهاض حرب رمضان ثم إلى الضرب المستمر الذي تتعرض له الحركات الإسلامية في كل مكان بتحريض من اليهود والغربيين واستجابة من الحكام المفروضين على بلاد الإسلام . وربما حفزنا هذا الوضع على تسليط الضوء لإنبارة جانب من تصورات اليهود عن الحرب وهو ما تساعدنا عليه مريم جميلة في كتابها بإيجاز يتم عن الكثير فعقيدة اليهود القدامى كانت شن الحرب والغارة على كل الأمم المقيمة في فلسطين وإبادتها أو استعبادها لتبني لهم فلسطين أرض الميعاد خالصة لا يشاركهم فيها أحد . وامتزجت دعوى الحرب ضد الكفار

ممارسات الروس في أفغانستان وهو ما وقع بعد نشر كتابها بأكثر من عشر سنوات لكنها كان يمكن أن تشير إلى افعال الإيطاليين في ليبيا والفرنسيين في الجزائر خلال حرب الاستقلال والروس في مناطق آسيا الإسلامية خلال القرنين الماضي والحالي وأبرز ما فيها تهجير عدة ملايين من سكان شبه جزيرة القرم المسلمين على يد ستالين بعد الحرب الثانية لتحويل هذه المنطقة ذات الطبيعة الخلابة إلى مصايف روسية شهيرة حتى كثير من الصحفيين المصريين يجالها عندما زاروها على حساب السوفيت دون أن يشيروا أو حتى يدركوا أنهم يسرون على أرض إسلامية لم ينقض ربع قرن على نفس أهلها إلى سيبيريا ليقضى البرد على من لم يقتله الجوع والمعتقل .

وإذا كانت اليهودية الدينية القديمة قد ورثت الصهيونية العلمانية الحديثة - (أو بالأصح التي تقول عن نفسها علمانية لإيهام الناس بفصل الأدوار بينها وبين اليهودية) مفهوماً عنصرياً للدين أدى إلى مفهوم وحشي للحرب ، فإن يهود أوروبا على وجه الخصوص قد أوجدوا بين فترة القديم والحديث مفهوماً خاصاً بهم عن الحرب والجهاد هو المفهوم المعروف بتقديس اسم الرب . كان ذلك في العصور الوسيطة حينما انحصر اليهود في أحيائهم المتعلقة بمدن أوروبا يعانون من اضطهاد النصارى . ونشأ تقديس اسم الرب كصور سلمى سلبي على العكس تماماً من مفاهيم اليهود القديمة والحديثة . فهو يدعو إلى الجهاد في

يعتق اليهودية وينبذ الأصنام ليؤمن بالإله الواحد . فهذا الإله كما جعلوه هو إلههم الخاص . وهكذا انتهى التحريف إلى الإله القبلي وإلى حرب الإبادة وليس جهاد نشر الدين الحق . وتكرر الكتابة الإشارة إلى انغلاق اليهود على أنفسهم وعدم قيامهم بالدعوة إلى دينهم حتى في أوقات السلم . فهم لا يحاولون تحويل المسلمين أو النصارى بل يبيدونهم كما حدث في فلسطين . وهي هنا تفسر مذابح ديرياسين إلى صبرا وشاتيلا . فالآخرون ليسوا بشراً تنشر الدعوة بينهم إلى الخير والحق بل أهداف وأغراض تباد أو تستعبد طالما كانت قادرة على الخدمة . ولعلها كانت في عام ١٩٦٨ وهي تكتب كتابها تتطلع إلى المستقبل وتفسر حركة ماثير كاهان الداعية صراحة إلى إبادة العرب أو نفيهم من كامل أرض الميعاد حسب رؤيتهم لفلسطين . وربما حان الوقت لكي نرجع مذابحهم وشراستهم في الحرب إلى عقائدهم الدينية المحرفة كما نرجع الصهيونية نفسها إلى هذه التصورات البربرية المنغلقة عن الدين .

وتلمح الكتابة فارقاً دقيقاً بين الصهيونية والاستعمار في مفهوم الحرب . فالاستعمار الغربي لا يلجأ في بلاد المسلمين إلى الإبادة على نطاق واسع والنفي الجماعي أما الصهيونية فتمارس هذه الأشياء في فلسطين استناداً إلى مفاهيم اليهود العنصرية عن الحرب . وربما كانت المؤلفة متأثرة بحرب ١٩٦٧ ومشاهدها المؤلمة عندما كتبت هذا الرأي . لأن الاستعمار مارس بالفعل الإبادة والنفي الجماعي . وربما تشير إلى

سبيل قضية الدين بتحمل المعاناة والعذاب حتى النهاية ولو أدى ذلك إلى الانتحار بدلاً من التنازل عن الدين والقبول بما يفرضه الأعداء عليهم .

ونلمح في هذا التصور الذي يصل إلى تقديس اسم الرب بالانتحار انحرافاً لا يقل عن المفهوم الآخر الوحشي للحرب وإبادة الأعداء . فالاستسلام للمعاناة مع القدرة على الثورة جبن أو خيانة والوصول إلى الموت انتحاراً بدلاً منه إستشهاداً أو قتلاً على يد الأعداء شذوذ فكري أو أخلاقي . وقد كانت شراسة الصهيونية رد فعل لهذا المسلك . فبينما مارس اليهود الانتحار الجماعي بدلاً من مواجهة جيوش الفوارق الزاحفة على بعض مدنها ببولندا عام ١٦٤٨ نجدهم في الحرب العالمية الثانية ينظمون دفاعاً عسكرياً قوياً عن أحيائهم . بمدينة وارسو عاصمة بولندا . كان ذلك في ربيع عام ١٩٤٣ أى بعد حوالي ثلاثمائة عام من الانتحار الأول . وهكذا تغيرت المفاهيم من النقيض إلى النقيض . من استسلام سلبي يصل إلى حد الانتحار بدلاً من المقاومة إلى مقاومة شرسة في وجه قوة عاتية وهي مقاومة وضعت النواة لجيش الدفاع الإسرائيلي الذي أصبح يستخدم نفس أساليب النازي ضد العرب المسلمين الذين تحولوا إلى ممارسة الانتحار الجماعي والدفاع السلبي على طريقة يهود العصور الوسطى في تقديس اسم الرب . حقاً إنها شبكة مثيرة من المشابهات والمفارقات والتحويلات .

ويبقى وسط كل ذلك الركام استقرار اليهودية الحديثة على مفهومها القديم في الحرب وإغلاقها للدين على عنصرية قومية . لا ترى ملائعاً في إبادة الأعداء ، ويبقى أيضاً غياب مفهوم الجهاد الإسلامي عن الساحة كمواجهة لفكرة الحرب اليهودية بعد أن فشلت القوميات العلمانية والاشتراكيات المذهبية واليمين المتخاذل . ومن هنا لم يكن عجباً أن يقتل الشباب المسلم لأنه تحدث عن الفريضة الغائبة . ليس عجباً لكنه يثير الفكر والنظر عند من يسمع فتنتعه الذكرى .

## من الشريعة اليهودية

تعود بنا الكاتبة من أجواء الحرب والإبادة إلى موضوع ربما أثار في نفس المسلم الأسى على ما نشاهده من تفريط في اتباع أوامر شريعتهم السمحاء بينما يتمسك اليهود أو كانوا حتى وقت قريب بأدق التفاصيل في شريعتهم الملائى بالقبود الثقيلة المجهده كالأغلال في الأعناق . ينظر اليهود إلى الدين ككل متكامل لا يقتصر على العبادة بل يتعدى إلى الطاعة الكاملة والإخلاص المطلق لكل تعاليم الرب الواردة في الشريعة . والتشبي مع هذه الأوامر هو التعبير عن حب الإله وإعلان الانقياد له . ومن أبرز وأشهر تعاليم اليهودية تلك التشريعات المتصلة بأنواع الطعام المحلل ، أو الكوشيرا أى الطاهر والنجس أو ما يطلق عليه في لغة اليديش « تريف » (وهى لغة مزيج من العبرية والألمانية نشأت في أوروبا الوسطى والشرقية على امتداد العصور الوسطى) .

وكان اليهود في القرون الماضية يدققون كثيراً في مسألة المطعم من حيث الحل والحرمه حسب شريعتهم . وتقتبس مريم جميلة فقرات مطولة عن ممارسات يهود أوروبا حتى وقت قريب في هذا الصدد وهى تعكس بدقة ما حرمت اليهودية وما حللته . والمحرمات قليلة في مجال الأطحمة النباتية وهى تشمل الحبوب التى لم تدفع صدقة العشر عليها والحبوب المهجنة وثمار الشجرة التى لم تمر ثلاث سنوات على بدء إثمارها . أما فى الحيوان فالضوارى محرمة والزواحف والقوارض

والطيور الجارحة والقشريات من الأسماك وكل ما يأكل الجيفة . وتحرم البان وبيض هذه المخلوقات . ومن أشهر المحرمات الخنزير وما يشتق منه من منتجات . أما الأسماك والطيور التى لا تأكل الجيفة وذوات الأربع المجتره مشقوقة الظلف فهى محللة .

ولابد من ذبح الحيوانات المحللة بطريقة شرعية تنتج أقل الألم كما أن الصيد محرم عندهم . وينبغى أن تكون سكين الذبح حادة لا تمزق اللحم أو الجلد بل تقطع القصبة الهوائية والوريد بضربة سريعة لا تكاد تؤلم . ونلاحظ وجه الشبه إن لم يكن التطابق مع التركيبة الإسلامية لاسيما وأن اليهودية تنص على تصفية الدم تماماً من الذبيحة شرطاً لحلها . والميتة حرام وكذلك ما لم يذبح بالطريقة الشرعية . ويرى اليهود أن طريقة الذبح هذه إنسانية وتتميز تماماً عن طرق الإجهاز على الحيوان المتبعة فى أوروبا ومنها مثلاً أن الفلاح كان يجلس على ظهر الخنزير ثم يأخذ فى طعنه بالسكين فى رأسه حتى يموت بعد العديد من الضربات المؤلمة .

ومن المحرمات التى ترهق الأسرة اليهودية فى الحفاظ عليها تحريم الخلط بين منتجات الألبان واللحوم استناداً إلى ما ورد فى الشريعة الموسوية من تحريم سلق صغار الماعز فى لبن أمهاتها . ولا بد أن تنقضى ست ساعات قبل أن يمكن للفرد أن يتناول اللحم بعد اللبن أو العكس . ويفرض هذا على ربة البيت مهارة خاصة فى تخزين وطهى

لا يوجد في الشريعة الإسلامية . وتذهب الكاتبة إلى القول بأن أصل هذا التحريم كان مخالفة اليهود للمصريين القدماء الذين إعتادوا سلق صفار الماعز في لبن أمهاتها . وعلى هذا فهي محاولة لفصلهم أو تمييزهم عن عادات وطقوس جيرانهم الوثنيين . وبما أن هذه العادة لم تكن متبعة في شبه الجزيرة العربية أو حتى في مصر نفسها عند البعثة النبوية فقد ارتفع تحريم خلط اللبن باللحم عموماً .

ومن ناحية أخرى ترى مريم أن الطبيعة العالمية للإسلام كدين موجه لكل البشر كانت تقتضي نسخ الكثير من المحرمات في اليهودية التي كانت ديناً محلياً ومقصوراً على قبائل معينة . فمحرمات اليهودية عديدة ومعقدة ويصعب الالتزام بها في بيئات مختلفة كما أن هذه المحرمات أو أكثرها فرض عليهم كعقاب على عصيانهم . ومن هنا فالإسلام كدين واقعي يلائم كل البشر وفي مراحل مختلفة من تطور حضاراتهم يتحرر من الكثرة الغالبة من هذه المحرمات وإلى هذا السبب يعود اختلاف الشريعتين في هذا الشأن . ولا تنسى الكاتبة أن تشير إلى أثر التحريف على المحرمات والمحللات عند اليهود . فقد حللوا لأنفسهم ما حرمه الله عليهم ، ويتبدى هذا في موقف أحبارهم من الخمر .

إذ يسجل التلمود خلاف الأحبار وتجادلهم في حرمة أو حل الخمر . وكانوا جميعاً مدركين لأنار الخمر الضارة على الفرد والمجتمع . يقول أحد الحاخامات في التلمود مثلاً : إذا دخلت الخمر خرج العقل

وتقديم هذين اللونين من الطعام بحيث لا يختلطان أو يتجاوران في مكان وزمان واحد . ويستدعى الأمر تخصيص مجموعتين منفصلتين من الأوعية وأدوات الطهي وأطقم المائدة حتى في أفقر البيوت .

والالتزام بالتحريم أمر مكلف مالياً فربما يتبين بعد الذبح الشرعي للدجاجة أن كبدها به عيب مما يحرمها أو تعثر ربة البيت على نقطة دم داخل البيض بعد كسرها فتضطر إلى استبعادها لأنها أصبحت نجسة . وتمثل هذه المشاكل تياراً مستمراً من التساؤلات الموجهة للحاخامات بقصد الإفتاء فيها بما يحفظ التوازن بين التحريم وبين ضياع المال المكروه في الشريعة الموسوية . ويتفنن هؤلاء في البحث عن حيل فقهيّة تنقذ الأسرة من الخسارة المادية المترتبة على استبعاد ذبيحة بعد شرائها .

ويترسخ الإحساس بالحرام والحلال في المطعم عند اليهود إلى حد أن ألفاظ الطهارة والنجاسة تعمم خارج نطاق المأكولات إلى المعنويات . فالأدب المكشوف الإباحي بنجس والفرد الدنيء الخائن بنجس . والمرأة بعد الاغتسال من الحيض طاهرة وكذلك الشخص الأمين . وتتردد كلمة « تريف » أو بنجس في شتائم اليهود في أوروبا .

وتحاول مريم جميلة أن تفسر أوجه الشبه والاختلاف بين المحرمات والمحللات في كل من اليهودية والإسلام . وهي تلاحظ تحريم الخنزير والضواري والحيفة والدم في الإسلام والتسمية على الحيوان عند الذبح بسورة مشابهة لما يحدث عند اليهود . لكن تحريم المزج بين اللبن واللحم

وإذا دخلت الخمر خرج السر . فلا شيء يجلب الأسى للإنسان كالخمر  
وهي تفضى بالرجال والنساء إلى الدنس . ويقوم حاخام آخر:  
لاتسكر فتخطئ . ويقول ثالث : إن الخمر تؤدى بالمرأة إلى الفحش  
وضياع الحشمة والحياء . ويذهب رابع إلى تصوير الرجل إذا ثمل فيشبهه  
بالقرد الذى يرقص ويرمى بالبذاءات ويجهل ما يفعل . ومع ذلك تجمع  
الآراء فى التلمود على أن شرب الخمر أمر طيب وإن كانت تستنكر  
السكر ! ويقول أحد الحاخامات فى التلمود نفسه : لا توجد متعة  
بدون خمر . إن من يحرم نفسه من الخمر يذنب فى حق روحه . ويرى  
اليهودى أن الخمر من نعم الله ويتمم قبل شرب الكأس منها بعبارة :  
مبارك أنت أيها الرب إلهنا الذى أعطيتنا شراباً من ثمرة الكرم . وترى  
الكاتبة بحق أن هذا التشجيع على شرب الخمر يذهب بحسنات اليهودية فى  
الاحتراز والتدقيق فى المطعم والتي لاحظناها فيما سبق .

وهى تقارن بين هذا التضارب فى شأن الخمر الناجم عن تدخل  
الهوى البشرى وبين موقف الإسلام الواضح منها والرافض لأى شكل  
من أشكال شربها قليلاً أو كثيراً . وبينما يضع الإسلام العقاب الشديد  
فى الدنيا والآخرة على شرب الخمر نجد استهلاكها جزءاً أساسياً من  
الحياة الدينية والاجتماعية اليهودية .

وتمضى بنا مريم جميلة فى رحلتها خلال تعاليم الشريعة اليهودية  
متبينة أوجه الشبه والخلاف مع شرعنا فترى تمسك اليهود بالختان

وإطلاق اللحى وتغطية الرأس بالطاقيّة التى شهدناها على رؤوس الكثير  
من قادتهم وتحريم الصور والتماثيل فى المعابد أو فى البيوت . وتذكر أن  
الكثير من المتدينين اليهود يعترضون إلى وقتنا هذا على التقاط صور  
فوتوغرافية لهم . ويحجى اليهود بعضهم بعضاً بعبارة شوليم عليخيم أو  
السلام عليكم . وربما نرى على ضوء حال المسلمين فى العصر الحديث  
أن اليهود سعداء الحظ لأنهم لم يسجنوا ويقتلوا بتهم التطرف جزاءً على  
إطلاق لحاهم واتباع شريعتهم ولكن يبدو أن قواعد لعبة العصر هى أن  
يخرج المسلمون من دينهم بالعلمانية بينما يبقى اليهود أحراراً لقيموا دولتهم  
ويتمسكوا بشرعهم حتى فى أدق تفاصيله . فاللادينية للمسلمين  
وحدهم .

ولليهود كالمسلمين دعوات أو عبارات تقال فى مناسبات معينة .  
فبجانب الصلوات الثلاث اليومية يسبح اليهودى المتدين بحمد الله  
عندما يستيقظ فى الصباح وقبل الوجبات وبعدها وعند رؤية عجائب  
الطبيعة وخلال العواصف أو كسوف الشمس وخسوف القمر والزلازل  
وظهور قوس قزح وسماع الأنباء الطيبة أو السيئة والخروج للسفر وإبرام  
الصفقات التجارية وعند المرض أو الموت . وهدف الدعوات وصل  
المؤمن بذكر الله دوماً فى كل ما يفعله وأن يحيل هذه الصلة إلى واقع  
معاش فى حياته اليومية .

وأشهر ما فى شرع اليهود هو الإسبات أى الالتزام بالراحة الكاملة

والعكوف على العبادة والامتناع التام عن أى عمل حتى ولو كان إضاءة  
المصاييح أو إشعال الفرن طيلة يوم السبت . وفي الشريعة الموسوية عقوبة  
الموت على من يخالف تحريم النشاط في السبت فهو اليوم الذى استراح فيه  
الرب بعد أن خلق العالم في الأيام الستة السابقة . وتحلل مريم فكرة  
الإسبات هذه على ضوء الهداية الإسلامية . فترى فيها الكفر الصريح  
بنسبة التعب والاجهاد للإله القوى المقتدر الذى خلق السموات والأرض  
ولم يمسه لغوب . فالإله المتعب ليس بإله . كذلك فما لا يقره الإسلام أن  
تعزل العبادة عن باقى أيام الأسبوع ليخصص لها يوم واحد . والعبادة في  
الإسلام متصلة وممتزجة بالحياة اليومية في شكل الصلوات الخمس اليومية  
ودوام الذكر وقيام الليل لمن شاء التفضل . والجمعة عند المسلمين ليس  
كسبت اليهود فالصلاة الجامعة فيه لا تشغل إلا حيزاً زمنياً محدوداً ولا حرج  
على استئناف النشاطات العادية والتجارية سائر اليوم .  
وللسبت أهمية عظمى عند اليهودى حيث تزداد قيمة الذهب  
للصلاة في المعبد . ولهذا الأهمية تنشأ ظواهر ملفتة للنظر تقارنها الكتابة  
بتساوى المسلمين ووحدهم في الصلوات الجامعة بالمساجد . ففي معابد  
أوروبا وإلى وقت قريب كان الأثرياء وكبار أفراد الطائفة يجلسون في  
الجانب الشرقى المميز من المعبد بجانب التابوت المقدس . أما الفقراء  
والأميون وغير ذوى المكانة فيزدحمون في مؤخرة المعبد تجاه الغرب .  
وغالباً ما كانت المقاعد المفضلة في الجانب الشرقى تحجز وتشتري بمبالغ

نقدية كبيرة وعندما يشغر أحدهما فإنه يباع بالمراد . ويدفع اليهود في  
أمريكا مبالغ سنوية كاشترى يؤهلهم لحضور صلوات المعبد بانتظام ،  
وفي العطلات الكبرى تحجز مقاعد المعبد لقاء أجر كبير .  
ولا يثيرنا في جولة الكتابة داخل جوانب من الشريعة اليهودية  
مقارنتها بين دينها القديم والجديد بقدر ما يلفت النظر تمسك القوم .  
بمظاهر دينهم على تعقدها وتشعبها كإعلان عن الإيمان والتقوى واتباع  
الأمر الذى يظنونه ذا مصدر إلهي . وتقارن ذلك بمن يدعو بين المسلمين  
إلى إهدار الشريعة السمحاء ثابتة الأصل الإلهي خفيفة التكليف بحجة  
أنها مجرد شكليات ومظاهر وأن الإيمان في القلب وليس في الثوب أو  
اللحية أو الحرام والحلال في الطعام والشراب ونعجب من هؤلاء الجاهلين  
الذى يتناسون أن الإنسان كل متكامل وأن ما في القلب لا بد ظاهر في  
أعمال الجسد بل في ملامح الوجه . وكأنهم يريدونه ديناً سريعاً لا يشعر به  
أحد وذلك تعبيراً عن نزعتهم العلمانية الكارهة للدين الراغبة في إقصائه  
ليس فقط عن تسيير شئون الحياة بالحكم والتوجيه بل أيضاً عن أجساد  
المؤمنين به ولو طلب من أحدهم أن يمتنع عن الطعام والجنس لأن الشيع  
والحب في الذهن فقط لثار وهاج وأزبد لكن لا مانع لديه أن ييشر  
بالروحانية المهمة الغيبية إذا كانت تؤدي إلى ابعاد مظاهر الإسلام التي  
تؤذيه عن الأعين .

## التعليم الديني

يتبين من الفصل السابق أن الشريعة عند اليهود لها شأن من حيث مدى الانطباق وشدة الالتزام. وقد كان اهتمامهم بها والتفافهم حولها الباعث الرئيسي لنشأة نظام للتعليم الديني بالتوراة والتلمود ودراسة الشرائع اليهودية ويشبه في شموله وعمقه نظام التعليم الإسلامي الفريد الذي هدمت أركانه في العصر الحديث على يد الاستعمار الغربي والعلمانيين الذين زرعه في مواقع النفوذ والتوجيه والفكر على امتداد الساحة الإسلامية.

وقبل أن أبدأ القراءة المتأنية في كتاب مريم جميلة كانت مصر تمر بمرحلة وجهت فيها سهام الغدر والكرهية إلى حركة الوعي والنهضة الإسلامية من جهات شتى جمع بينها الاتجاه اللاديني التغريبي. وفوجئت وفوجئ معي الكثيرون بحملة جارفة ضد التعليم الإسلامي المتمثل في المعاهد الأزهرية ومناهج التربية الدينية في المدارس الحكومية. وشاركت في الحملة أقلام تقنع نفسها بدعاوى التقدم وطلب المساواة تسعى كلها إلى إلغاء التعليم الديني الإسلامي بشتى مظاهره بما فيها بعض الكتابات التي تقام في مساجد لتحفيظ الصبية القرآن. وكنت أتساءل على سبيل الجدل فحسب لأنني أعلم الباعث الحقيقي للحملة: هل تتحقق المساواة المزعومة بمنع المسلمين وهم أغلبية المصريين من تدريس دينهم لأبنائهم في المدارس؟ هل كل مشكلة غير

المسلمين أنهم لا يريدون أن يتعلم المسلمون دينهم؟ وما يثير الاستغراب أن مطلب إلغاء التعليم الديني الإسلامي لم يأت من غير المسلمين وإنما طرح على لسان من يحملون أسماء إسلامية وقد نصبوا أنفسهم حماة لغير المسلمين إما لدواعي استجلاب تأييدهم لمصالحهم وأحزابهم وإما لستر كراهيتهم الدينية للدين الذي ولدوا فيه. ومضيت أتساءل: أين يذهب باب الدرس القرآني والفقه واللعوى والتاريخي الواسع الممتد كالحيط اللانهائي إذا ألغى التعليم الإسلامي؟ هل ينحصر في كلية الأزهرية بعد طلابها على أصابع اليدين ويدرس لهم علماء طعنوا في السن لا يلبثون أن يذهبوا إلى جوار رحيم ويضيع الإسلام؟ ومن له القدرة على تحمل عبء التعليم الديني ولاكنيسة للمسلمين والتعليم الحكومي علماني والأوقات ضائعة؟ ولماذا الإلحاح في إطفاء النور المشع من الأزهر حتى في عهد القمع والصمت؟ هل لأنه خرج رجالاً حافظوا على القرآن والسنة؟ ولماذا الإصرار على إغلاق التعليم الأزهرى في الوقت الذي يهيمن فيه العلمانيون على منابر الفكر والثقافة والبحث والإعلام المدعومة بسخاء منقطع النظير بأموال الشعب المسلم الفقير ويوجهونها لخدمة أسيادهم في الغرب ومع ذلك يرضون على المسلمين أغلبية الشعب المصرى أن يكون هناك نظام تعليمي لدينهم بأموال هذا الشعب ولا يتمتع بأى امتيازات حكومية كالتى يتمتع بها العلمانيون في مراكز سيطرتهم؟ وهل تصل كراهية الإسلام إلى حد استثارة أقباط مصر على المسلمين وفتح أبواب الفتنة



سابق . ولا يبدأ الطفل بقراءة سفر التكوين لما يحويه من قصص طريفة بل بسفر الأحبار بتفاصيله الثقيلة عن الأوصاحى . وتقرأ التوراة في هذه المرحلة الأولية بشرح راشي الجر الذى عاش في القرن الحادى عشر الميلادى . والكتب التى يطالعها الطفل هى الكتب القديمة والنسخ مصفرة الأوراق من التوراة ، ويجرى التعليم عن طريق حفظ معانى الكلمات العبرية الثقيلة مع ترك الفهم لمراحل تالية . ونقف هنا لنذكر الحججة التى تكررت فى الدعوة إلى إلغاء تدريس آيات من القرآن فى المراحل الابتدائية بمصر وهى حجة صعوبة الفهم . وكان من دعاه المشفقين على أطفال مصر المسلمين من صعوبة الألفاظ القرآنية الكاتب لويس عوض ! أوروبما مدنطاق إشفاقه إلى الأطفال اليهود الذين يحفظون توراتهم بدون أى فهم لألفاظها العبرية الغريبة عن بيئاتهم الأوروبية بينما يعرف أطفال مصر العربية . حتى الآن على الأقل !! ويهتز أطفال الخوميش قيدار فى جلستهم وهم يرددون الألفاظ المحفوظة خلال القراءة . ويمكنون فى بيت المعلم أو الميلايد (بالعبرية) من الصباح حتى حلول الليل حيث يسمع لأصواتهم أزيز وهممة تقطعها صرخة هنا وهناك حينما تترك عصا الميلايد على طفل ساه أو مشتت الذهن . ويطوف الميلايد على الأطفال وهم يدرسون ومعه مؤشر طويل . وفى هذه الغرف المظلمة سيئة التهوية ومع رعاية الميلايد يتعلم الأطفال القراءة والترجمة (ترجمة معانى التوراة العبرية) .

والشقاق من أجل إلغاء التعليم الدينى الإسلامى فى بلد مسلم ؟ وقرأت كتاب مريم جميلة وهذه الأسئلة وغيرها تدور فى ذهنى وعندما وصلت إلى تناولها للتعليم الدينى ضد اليهود وهو النظام الذى نشأ فى العصور الوسطى وبقي حتى الآن فى أوساط المتدينين وبالذات فى أمريكا وإسرائيل - شعرت بحسرة تأكل قلبى : هل يتفانى اليهود فى تعليم دينهم ونبذنا نحن ديننا لعلمانية أوروبا وتتخلى عن قاعدته الواسعة تحت دعاوى باطلة ؟ ونسير معاً فى رحلة داخل النظام التعليمى اليهودى يتضح منها أى جريمة ترتكب فى حق الشعب المصرى المسلم .

اعتبر اليهود التعليم الدينى وبالذات للصبيان من أهم واجبات طوائفهم فى أوروبا . وساعدهم صغر حجم هذه الطوائف وتركزها على محو الأمية بالكامل تقريباً بين الرجال . ولمكانة التعليم الدينى بين أوساط المجتمع الدينى كان الآباء يضحون بكل غال ونفيس فى سبيل تعليم أبنائهم وكانت الطائفة ككل تنفق بسخاء على الفقراء من طلاب الدين وتلبى احتياجاتهم .

ويبدأ التعليم الدينى بدخول الطفل إلى القيدار وهو نظير الكتاب الإسلامى . وتعطى له الحلوى فى أول درس يحضره لتشجيعه ولكن تبدأ بعد ذلك صعوبة الدراسة وتعقدها ويدخل الطفل فى هذه المرحلة إلى باب التوراة وهذا الكتاب أو المستوى الدراسى يسمى بالخدميش قيدار أى مرحلة تعليم الكتب الخمسة المقدسة التى ذكرناها فى فصل

وهكذا يدخلون إلى عالم كتابهم المقدس متعرفين على معانيه المباشرة بإيضاً على بعض التفسيرات والمعاني الخفية .

وفي المرحلة الأعلى أو الجمورة قيدار تسع المناهج ويحل المدرس محل المبلاميد وتكون وظيفته توجية كل طالب على حدة . وفي هذا المستوى يتركز الاهتمام الرئيسي على التلمود ويمتد مدى المنهج بامتداد اهتمامات التلمود الدينية والدينيوية ، القديمة والحديثة . وتجري دراسة التلمود عن طريق مناقشات مطولة وتعليقات وتفسيرات تهتدى بكتابات التفسير والتعليق التي لا حصر لها . ويتعرف طفل التاسعة عمراً على قضايا مثل شعائر العطلات في معبد سليمان وأخلاق المعاملات بين الناس وأحكام الطلاق أو قواعد المعاشرة الزوجية خلال فترة الدورة الشهرية .

ومرحلة الجمورة تختلف عن مرحلة الخوميش الآلية الرتيبة المعتمدة على الذاكرة فهنا يبدأ الطفل في ممارسة الفهم وإعمال الذهن والخيال وهو يدخل على المرحلة الحاسمة في دراسته لحكمة دينه وقومه . وهو يقضى الساعات الطوال في فهم ومعالجة المشاكل المعضلة . وتهتم به الأسرة وتتعلق حوله تستمع لما يبديه من فهم فقد أصبح على أبواب العلم الديني .

وبعد مرحلة الجموره قيدار يذهب الطالب الناجح والمشهود له بالتفوق إلى المعهد الديني أو الشيفا . وهنا وبين المئات من أقرانه يخصص نهاره

والجزء الأكبر من ليله للدراسة ولا ينام أكثر من بضعة ساعات ويستيقظ في الفجر . ويتركز برنامج الدراسة على تحليل مكثف وشامل للتلمود وتفسيراته . ويسمح لكل طالب بأن يتخصص في الجانب الذي يروق له من اليهودية . فإذا اجتذبه النواحي الروحية درس الكابالاه وإذا استهوته الفلسفة تبحر في كتب الفلاسفة كموسى ابن ميمون أما إذا أحب المسائل الفقهية فإنه يتعمق في التلمود وشروحاته . وتسير الدراسة ما بين تفسير أو رجوع إلى النص التوراتي للتأكد كمرجع أخير والمناقشة بين الطلاب ومتابعة الجدل التعليمي أو المناظرات سواء الحية أو المدونة في الكتب لتعلم كيفية طرح الحجج واستخراج الأدلة والتوصل إلى آراء جديدة في معضلات القانون الديني . ولا تتوقف دراسة التوراة والتلمود في المجتمع اليهودي عند حد معين أو شهادة تمنح ويحملها الدارس مكثفياً بها بل يستمر الفرد المتدين في مدارسة التوراة لأنه « لا نهاية لها » . وهي أعمق من علم المتبحرين ومتجددة العطاء حسب تصورهم . ومن المؤلف أن يكرس اليهودي الكبير في السن جل وقته للتدبر في التوراة لا يشغله عنها إلا الذهاب إلى المعبد للصلاة أو تناول الطعام أو بعض المناقشات العلمية فيها . ويقال عن مثله في دائرته : كان دائم الانكباب على التوراة والصلاة .

ويرجع الاهتمام الكبير لدى المجتمع اليهودي بالتعليم الديني إلى أنه أول ثلاثة من الواجبات الدينية الكبرى عندهم . فأولها هو واجب دوام

مدارسة كلمات الرب لمعرفة أوامره والحقائق الموجودة في الكتب المقدسة وثانيها واجب تكوين أسرة كى يزداد عدد المكرسين للخدمة الإله الحق . وثالثها هو الالتزام بتلك الكثرة من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والتعبدية الهادفة - لتنفيذ التعاليم الإلهية المنظمة للعلاقة بين الإنسان والرب وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان ونفسه . وهذا العلم بالنصوص الدينية ضرورة فهو ليس مجرد علم بمواد شرعية بل بقانون للأخلاق ودستور كامل للسلوك اليومي يحدد ويناقش كل تفاصيل الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والأخلاقية ويحدد طالب العلوم الدينية نفسه يدرس أنواع المحرمات الأولية كتحريم الخنزير أو المشروعة على سبيل سد الذرائع كتحريم التحدث مع امرأة لتجنب الوقوع في الزنا ، ولا يبعد تفصيل كبير أو صغر عن اهتمام الدارسين سواء أكان الحث على مساعدة اليتيم أو على عدم التفكير في الصفقات التجارية يوم السبت . وكل تفصيل يتيح فرصة لتنفيذ أمر من أوامر الإله .

وتتمحور الدراسة الدينية حول كل ثقافة اليهود وتوحد بينهم عبر الزمان والمكان في امتداد لكم فكرى وتشريعى واحد من عهد موسى إلى قدوم المسيح المنتظر . ولا يوجد قديم أو جديد في دراسة الشريعة بحيث يجب الجديد القديم . فكلاهما يدور في إطار واحد هو فهم الشريعة وتفسير التوراة الواحدة والتلمود الواحد ونفس الشروحات . ولا حاجة بنا بعد ذلك لنقل كلام مريم جميلة عن التشابه العجيب

بين نظام التعليم اليهودى والإسلامى فى الكتابيب وجامعات الأزهر والقرويين وأمثالها لا حاجة إلى ذلك لان النظام الناشىء فى العصور الوسطى والحديثة متأثر بالنظام الإسلامى الذى عرفه اليهود فى العالم العربى . وتذكر الكاتبة بأن النمط المعتاد فى عالم الإسلام هو مدارسة القرآن حتى خارج الإطار الدراسى المعروف وتضرب المثل بوالد الشهيد حسن البنا الذى كان يعمل بإصلاح الساعات فى الليل ويعظ ويلقى الدروس كإمام لمسجد بالنهار وينكب بحب على الفقه الإسلامى ويشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل .

ويؤدى البحث فى نظام التعليم اليهودى إلى تساؤل طبيعى حول مكانة المرأة ودورها فى مجال العلم الدينى . وهنا تفاجئنا الكاتبة برأى قاطع تستند فيه إلى كتابات بعض القوم . فالدرس الدينى فى اليهودية مقصور على الرجال وحدهم ولا سببا فى الدراسات المتقدمة . وحتى إذا وجدت نساء بلغن شأوا كبيرا فى تحصيل العلم الدينى فإن المجتمع ينظر إليهن باستغراب كشواذ لأن العلم بالدين وقدح الذهن فيه نشاط خاص بالرجال وحدهم . ولا يمنع ذلك بالطبع من أن توجد نسوة قبسُ العلم عن طريق آبائهن أو اخوانهن أو أزواجهن الدارسين للتوراة والتلمود . وللحاحات اراء متشدة فى تعليم الدين للفتيات . إذا يقول أحدهم معبرا عن رأى شاع وانتشر بينهم : إن من يعلم ابنته التوراة كمن يعلمها الفحش . ويرى الأخبار أن الأمر الوارد فى التوراة بتعليم

الأبناء ينطبق على الصبيان دون البنات وذلك حسب المعنى الحرفي لكلمة الأبناء في اللغة العبرية . وقد ذهب أحد الباحثين إلى القول بأنه يفضل أن توضع كلمات التوراة عن أن تعلم لأمرأة . وعندما ذهبت سيدة إلى حبر تسأله عن العجل الذهبي ونجها قائلاً بأن لا علم للمرأة إلا فيما يتصل بالمغزل ويرى كاتب يهودى أن أسباب الخوف من تبحر النساء في الدراسات الدينية المتعمقة تعود إلى الخشية من أن يؤثر ذلك على أدائها لواجباتها المنزلية . كذلك فقد لاحظ الأحرار القدماء أن اختلاط الرجال والنساء في معاهد العلم باليونان وروما أدى إلى الانحلال الخلقي . ومن بواعث النهي عن تعليم النساء الديني بتبحر ما شاهده اليهود في الوسط المسيحي الأوروبي من غلبة نزعة الرهبنة والعزوف عن الزواج بين النساء اللواتي انجذبن إلى الدين . واليهود يكرهون هذه النزعات ويعدون الزواج تنفيذاً للأوامر الدينية المقدسة . فالتلمود يدين من يدمرون الدنيا ويضع من بينهم المرأة المتدينة إلى حد نبذ الدنيا ورفض الزواج .

ومما لا شك فيه أن الأسباب التي يذكرها الكاتب اليهودي مبرراً فيها إبعاد المرأة عن ميدان التعليم الديني هي أسباب فيها وجهة لو كانت صادقة . ولكن يمكن دحضها واحداً بعد الآخر . فيمكن للمرأة أن توفق بين التعليم الديني وبين واجباتها المنزلية والزوجية ويمكن أيضاً أن يفصل بين الرجال والنساء في معاهد الدراسة ويمكن الحيلولة دون تحول الدراسة الدينية إلى نوع من الرهبنة ورفض الحياة . وفي الحقيقة فقد

تجنب الإسلام شرعاً وتطبيقاً هذه المزالق . ولا تدع مريم جميلة الفرصة تمر دون أن تضع موقف الإسلام من تعليم المرأة بجانب الموقف اليهودي مقارنة وموضحة . فطلب العلم في الإسلام فرض على كل مسلم ومسلمة . وفي الحديث الشريف امتداح للأب الذي يعلم ويربي بناته وللسيد الذي يهذب جاريته ويعتقها ثم يتزوجها . والقادة العلية للمرأة المتعلمة في الإسلام هي السيدة عائشة رضي الله عنها التي كان لها فضل كبير في نقل أحاديث الرسول وحفظها . وتذكر مريم الأعداد الكبيرة من النساء اللواتي حفظن القرآن والفقيهاً والمحدثات المذكورات في وفيات الأعيان لابن خلكان ، وتنتقل إلى العصر الحديث لتضرب أمثلة من مختلف البلدان الإسلامية . فهناك سيدة في جامعة بغداد تدرس الحديث النبوي وفي أفريقيا الإسلامية تتلمذ السنوسي الكبير رائد الحركة الإسلامية التي حملت اسمه على يد عمته واسعة العلم والذكاء وتحدثت الكاتبة كذلك عن تجربتها الشخصية في باكستان . فتذكر أن النساء في عائلة زوجها وكلهن مُحجَّبات لا يختلطن بالرجال هن على درجة عالية من التعليم وقد تلقينه في المنزل . أما هي نفسها فلم تتعرض لأي انتقاد بسبب اشتغالها بالعلم والكتابة . وكان النقد الموجه لما كتبه منصباً على الفكر والرأي وليس على كونها امرأة تتدخل فيما لا يعنينا . وتشير مريم إلى حقيقة يذكرها كاتب يهودي من إسرائيل وهي أن

## لمحة عن المرأة

قلت في تقديمي لكتاب مريم جميلة أنها لا تطرح فكر الرشوة أو الزيادة كمبرر لدخولها للإسلام وأعني بذلك أنها لا تبرر قبولها لديننا على أسس أنه يعطيها حقوقاً أو مكانة كامراً أكثر مما أعطاهها دينها أو حضارتها الغربية . وهي لا تنتهج النظرة العنصرية الضيقة التي ألفناها في الكثير من الكتابات والقاضية بأن تكتب المرأة عن النساء فقط أو أن تتعصب لجنسها في كل مناسبة كما يفترض أن ينحاز الرجل إلى نوعه . إنها كما علم الإسلام إنسانة مخلوقة عبدة لله كالرجل لا تصدر في احكامها أو اهتماماتها عن منطلق نوعي بل عن المصدر الوحيد الذي ينبغي للمسلم أن يبدأ منه وهو الرؤية الإسلامية . ولذلك لا نجد لها تخصص فصلاً للحديث عن المرأة في اليهودية أو الإسلام . بل لا تطرق الموضوع إلا في ملاحظات عابرة تجيء صدفة أو تبرز من سياق المسألة تناولها لتعليم النساء في الدينين .

وعندما تناول المرأة في حديثها تتبعد أيضاً عن المعالجة التقليدية التي أصبحت ديدن الكاتبين عن مكانة المرأة في الأديان . فهي لا تسرد قائمة من الحقوق التي أعطاهها الإسلام للمرأة مقابلة بأنواع من الظلم وقعت عليها في الأديان الأخرى . ولو فعلت ذلك لما كانت موضع انتقاد فهي فعلاً تؤكد من خلال ملاحظات متناثرة في كتابها على رفع الإسلام لمكانة المرأة في مواجهة حط لهذه المكانة في اليهودية

اليهوديات اللواتي برزن في التاريخ واشتهرن لعلمهن كن من العالم الإسلامي بدون استثناء . لكنها مع الأسف لا تقدم لنا تفصيلات حول هؤلاء النساء كما قدمت لها التفصيلات في مواضيع أخرى . وهي تختتم حديثها عن التعليم الديني بالإعراب عن الأسف لانتشار الجهل بين المسلمين عموماً والنساء خصوصاً بأمور دينهم وثقافته على الرغم من دعوة الإسلام الملحة للعلم ولا تنسى أن تبرئ الإسلام نفسه من تهمة تكريس الجهل وأن تؤكد على مسئولية العوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة على تدهور المستوى التعليمي عند جموع المسلمين .

والنصرانية . غير أنها لا تختار هذا المدخل ربما لأنه مطروق ومفصل عند كتاب آخرين .

فما الذى نعرفه عن المرأة فى تصور وممارسات اليهودية من خلال فقرات قليلة خصصتها مريم جميلة لهذا الموضوع ؟ تقول بالاستناد إلى كتابات لباحثين يهود ان إجمالى النظرة اليهودية للمرأة هى أنها أدنى فى المكانة للرجل وخاضعة له . فاليهودى يشكر الإله صباح كل يوم على أنه لم يخلق امرأة بينما تحمد المرأة الإله فى صلاة الصباح كل يوم لأنه خلقها حسب حكمته . وتتلور النظرة اليهودية للمرأة فى قصة آدم وحواء كما وردت فى التوراة والإنجيل . فالمرأة أدنى من الرجل لأنها خلقت بعده ومن جسده كما أنها هى التى أغوت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة ولذلك فالمرأة بطبعها خاطئة . ومن هنا نشأ مفهوم الخطيئة الأولى أو الأصلية وجعلت حواء متسببة فيها . ومن الواضح أن هذا التصور لقصة آدم وحواء غير موجود فى الإسلام .

وتقارن الكاتبة هذا المفهوم بفكرة القوامة وتفضيل الرجال على النساء درجة كما جاء فى القرآن . فتقول إن هذه الفكرة جاءت لأن الله قد خلق الرجال متفوقين على النساء ولأن الرجال ينفقون على النساء فى الحياة الأسرية . وهذا التفوق للرجال ليس مطلقاً بل نسبياً حسب رأيها . فليس كل الرجال متفوقين على كل النساء فى النواحي الجسدية والذهنية . إن امرأة كعائشة أو خديجة تفوق الكثير من الرجال . ولكن

لو وضعت أقوى وأذكى امرأة بجانب أقوى وأذكى رجل فإنه سيتفوق عليها . والأهم من كل ذلك أن مفهوم القوامة أو تفضيل الرجال درجة على النساء ليس مفهوماً عنصرياً وليس مطروحاً كسلاح فى وجه المرأة . فالمرأة ليست محتقرة أو متدنية المكانة فى الإسلام والنصوص كثيرة فى احترامها وحسن معاشرتها وتوكيد حقوقها المختلفة على الرجل .

وتطرق مريم موضوع تعدد الزوجات فى اليهودية فتقول إن هذا الكتاب لا يدين التعدد وكل الأنبياء الموقرين فيه يمارسون التعدد برضى الإله . ولكن تبلورت آراء مختلفة فى اليهودية تجاه تعدد الزوجات تحت التأثير المسيحى . وتلمح هذا التضارب فى التلمود . إذ يقول أحد الحاخامات انه يجب أن يسمح للرجل بأى عدد من الزوجات شاء بينما يعلن آخر أن عدد الزوجات يجب أن يتوقف عند أربع (وهو رأى الإسلام) . ويذهب آخر إلى القول بأنه ينبغى على الزوج إذا تزوج بأخرى أن يمنح الطلاق للزوجة الأولى إذا رغبت فى ذلك . وهى تقول إن قوانين الأسرة فى باكستان قد تبنت هذا الرأى الأخير فى عام ١٩٦١ . ونقف هنا لنلاحظ أن هذا الرأى لحاخام يهودى فى شريعة دينه قد عمل به أيضاً فى قانون الأحوال الشخصية الذى فرض عام ١٩٧٩ على الشعب المصرى المسلم فى ظروف شاذة من ناحية الدعاية المفرضة التى سبقت طرحه ومن حيث ظروف إقراره بقانون من رئيس الجمهورية مباشرة وصياغته على أيدى جهات خارجية وداخلية غير

بإمنازع . تقوم بواجباتها الدينية وتضمن نقاء الطعام واتساقه مع قوانين الكوشير وهي تستشير الرجال في الشئون والمسائل الدينية . والمرأة الصالحة نظيفة وصبورة ومتفانية في العمل ومطيعه للرب ولزوجها ومخلصه في خدمة الأبناء . ولها رأيها في شئون الأسرة حيثما لا يكون للتوراة رأى . وهي إن اشتغلت بالعمل خارج المنزل في محل أو كشك في السوق فإن ذلك لا يكون إلا لمساعدة الزوج وبعد القيام بالواجبات التلزية على أكمل وجه . والمرأة المتزوجة تحظى باحترام وسط المجتمع اليهودي لأن العزوية مكروهة فيه وهي لا تحظى بهذا الاحترام لعلمها أو لاعتبارات شخصية فيها وإنما لكونها زوجة وأم .

ورغم أن البيت هو مملكة المرأة في ذلك المجتمع اليهودي الذي غيرت منه أحداث القرن الحالى إلا أنها كانت تخرج منه إلى السوق للشراء أو للعمل ولكنها لا تختلط بالرجال . وقبود منع الاختلاط كانت قوية ومطبقة بحزم لاسيما في المناسبات الاجتماعية كالأفراح . وكانت دواعى منع الفتنة من ارتداء الملابس المحتشمة الطويلة مرعية . ويحرص المجتمع على الزواج المبكر رعاية لأبنائه وتحسيناً لهم كما يحرم الحديث في الأمور الجنسية ولو بين الزوج وزوجته احتراماً للحياء ويدعو الرجال بالذات إلى غض البصر وعدم التعرض للنساء بالنظرة أو الحديث أو للمس .

ومع هذا الإلحاح على منع الاختلاط بين الجنسين وتجنب آثاره

مختصة ونسبته إلى ثلاثة مشايخ مصريين من موظفي الدولة ثم التمسك المرضى به بعد ثبوت آثاره الضارة على المجتمع المصرى في كثرة المنازعات الأسرية والعزوف عن الزواج والرغبة في إذلال الرجال . ومما يبعث على الدهشة أن يضيق الحال بالمسلمين فيضطروا إلى تعديل قوانينهم على رأى فردى لحبر يهودى ثم ينسبه بعضهم إلى المذهب المالكي ويكتشف كذبه بعد الرجوع إلى كتب المالكية ولكن بعد فوات الأوان . ومما يثير الاستغراب أيضاً أن يسير رأى الحاخام اليهودى من باكستان إبان وقوعها تحت حكومة علمانية إلى مصر والعراق والجزائر (في عام ١٩٨٤) وليبيا . وإذا كان ولاية الأمور قد أعجبوا بالفقه اليهودى وفضلوه على القرآن والسنة وفقه الإسلام وممارسات الرسول والصحابة فلماذا لا يقيمون دولة إسلامية كما قامت لليهود دولة ؟ وقد حرم الأبحار في أوروبا تعدد الزوجات تحريماً تاماً بينما مارس اليهود المقيمون في المجتمعات الإسلامية التعدد حتى وقت قريب في التاريخ الحديث . وتؤكد الكاتبة على تأثير اليهودية بالبيئة في مواقفهم من هذه القضية مما يعكس إدخال الهوى في تشريعاتهم أو عدم انضاح هذه التشريعات .

وتقدم مريم جميلة بعد ذلك عرضاً للحياة الأسرية في أحياء اليهود بأوروبا إلى ما قبل فترة الحرب العالمية الثانية . ونرى من ذلك العرض ترابط الحياة الزوجية وتماسك الأسرة . والمرأة هي ربة البيت ومدبرته

## اليهود في أوروبا الحديثة

رسمت لنا مريم جميلة عبر الفصول السابقة صورتين متمايزتين لليهودية . تصف إحداهما التعاليم والشرائع كما وردت أو كتبت في النصوص المقدسة وتصف الأخرى المجتمع اليهودي كما تطور في أوروبا على مر العصور الوسطى وحتى العصر الحديث في القرن الماضي والحاضر . وقد تابعنا معها جوانب من حياة ذلك المجتمع في تمسكه بالشرعية الموسوية ونظام التعليم الديني فيه وأحوال الأسرة ومكانة المرأة . ومن الصحيح أن جانب التعليم الديني الذي أفرزه ذلك المجتمع ومعه بعض الجوانب الأخرى مازالت تعيش حتى وقتنا بين طوائف اليهود الذين اصطلح على تسميتهم بالأرثوذكس أو المتدينين . ولكن من الصحيح كذلك أن المجتمع اليهودي في أوروبا من خلال القرنين الماضيين مرتبطورات هامة . أثرت على غالبية اليهود وكانت مصاحبة لتطورات المجتمع المسيحي الكبير الذي عاشوا في وسطه وإن كانوا مستقلين عنه في أحيائهم ومدنهم ينظمون شئونهم بدون تدخل من سلطة خارجية اللهم إلا لدفع الضرائب أو أداء الخدمة العسكرية في بعض الأحيان . وأنتجت هذه التطورات الحركة الصهيونية كما أنتجت المجتمع الغربي العلماني عموماً وقد أثر كلاهما في المسلمين من نواح كثيرة .

الضاره كانت اليهودية تضع آداباً للمعاشرة الزوجية بين الرجل والمرأة تذكرنا بتلك الآداب التي وضعها الإسلام . وتحرم المعاشرة خلال فزة الدورة الشهرية ولمدة سبعة أيام بعدها بما يعنى أن الفترة المسموح بها لذلك لا تتعدى نصف الشهر . وهدف المعاشرة هو الإنجاب وليس المتعة وتدل هذه الصورة المثالية المنقولة عن مراجع يهودية على أن الواقع الحياتي لهم في أوروبا كان على الرغم مما قيل عن اضطهادهم على يد النصارى محكوماً بتقاليدهم وهو يدل كذلك على أن إرساء تقاليد أسرية وسد ذرائع الفتنة بالاحتشام والزواج المبكر والفصل بين الجنسين هي أمور أصيلة في الدين عندهم لأننا نجد الإسلام يؤكد هذا في شريعته . وهذه الأمور هي التي حفظت مجتمعاتهم حتى الفترة الحديثة .

وتقول الكاتبة : ان حروب هذا القرن وثوراته الكبرى في أوروبا ما بين شيوعية ونازية واقتصادية قد هدمت هذا المجتمع القائم على امتداد القرون الماضية هناك وتحولت الأسر اليهودية إلى تقبل العادات والقيم العلمانية الغربية واعتناقها . وهنا نجد أنفسنا أمام أهم أجزاء كتاب مريم جميلة لأنها تتناول أهم فصول التاريخ اليهودي الحديث في الغرب . فن خلال علاقاتهم بذلك المجتمع الغربي وتطوراته نشأت الحركة الصهيونية التي نعاني منها وأفرخت المذاهب العلمانية التي يضرب الإسلام بها .



نشاطاته نموذجاً لما دعت إليه حركة التنوير اليهودى . فقد ترجم الكتب الخمسة المقدسة إلى الألمانية ونشرها في نسخة ألمانية عبرية مما ساعد على انتشار الألمانية بين يهود أوروبا المتقنين للعبرية . ومع ذلك فقد أدت هذه النشاطات للحركة إلى عكس ما كان بعض قادتها يتمنى من تقوية اليهودية بمزجها بتيارات الفكر والثقافة الغربية الجديدة . إذ ازدادت الردة بين اليهود بشكل خطير وانتهى الحال بدعاة الحركة أنفسهم إلى اعتناق المسيحية بشدة رغبتهم في الحصول على التقبل الاجتماعى داخل حضارة هى مسيحية بالأساس حتى ولو رفعت شعارات المساواة للجميع أو دعاوى العلمانية . وقد اعتنق نصف عدد اليهود في مدينة برلين المسيحية خلال العقود الأولى للقرن الماضى . بل ان أبناء موسى مندلسون داعى اليهودية العصرية قد تنصروا بدورهم . ووصل أمر تدهور التمسك الدينى عند اليهود «المتنورين» إلى حد أن مساعد مندلسون عرض عام ١٧٩٩ على أحد القسس أن يعتنق المسيحية مقابل أن لا تفرض الكنيسة عليه هو وأتباعه الاعتقاد في مذهبها التاريخى كالتثليث وميلاد المسيح من غير أب .

وكانت الانتهازية أو الرغبة في الهروب من الجيتو أو طلب الارتفاع في المكانة الاجتماعية هى الدوافع وراء تنصر الكثير من اليهود في تلك السنين المبكرة من القرن الماضى . ومن أشهر هؤلاء بالطبع كارل ماركس الذى عمده والده وهو في سن مبكرة لينشأ على الاندماج في

ونترك الكاتبة تحكى لنا قصة هذه التطورات وتعلق عليها من وجهة النظر الإسلامية .

كان مجتمع الجيتو أو الحى اليهودى المستقل يحفظ لليهود كيانهم الدينى والثقافى . وكانوا يكتفون في حياتهم هذه بهداية التلمود الذى يعتبرونه طريقة حياة شاملة بما يضم من تعاليم في الشئون المدنية والاجتماعية . كما كانوا يحكمون أنفسهم داخل هذا المجتمع المغلق الذى لديه محاكم وقضاة خاصين ويحتل فيه الحاخام مركز الصدارة . وبعد الثورة الفرنسية أخذت بلدان عديدة في غرب أوروبا تلغى أى تفرقة ضد اليهود اتباعاً لمبادئ الحرية والمساواة . وانفتح الباب أمام اليهود للتخلى عن ثقافتهم الدينية المميزة لقاء الاندماج والاشتراك في الحياة الأوروبية العريضة بكل ما أصبحت تتيح من فرص مادية ومعنوية للترقى والنفوذ . وانتشرت في ذلك الوقت وتدعمت حركة التنوير اليهودية التى كان عدد من مثقفيهم قد بشر بها في أواخر القرن الثامن عشر . ومن معالم حركة التنوير أو الهاسكلاه نسف أسوار الجيتو التى كانت تعزل اليهود اقتصادياً واجتماعياً عن المجتمع الغربى وتحطيم جدران الجيتو النفسى الذى سجن فيه اليهود أنفسهم بالجهل واليأس والركود الثقافى حسب تصور دعاة هذه الحركة .

وكان من أقطاب الحركة العديد من اليهود الألمان وعلى رأسهم موسى مندلسون والد الموسيقار المعروف فيلكس مندلسون . وكانت

وفي عام ١٨٧٩ اجتمع قادة هذه الحركة والتي أصبحت تعرف بحركة اليهودية الإصلاحية في مدينة فيلادلفيا الأمريكية وأصدروا بياناً يهبر عن حقيقة الاتجاه العصري أو ما انتهى إليه . فقد أعلنوا تخليهم عن مبادئ الشريعة الموسوية كما يفسرها التلمود لأنها تناقض الحياة العصرية وأصبح اليهودى بالتالى فى حل من اتباع هذه التعاليم وأعربوا كذلك عن رفضهم للتوراة والإنجيل كوحى سماوى وأكدوا على ضرورة تفسيرها تفسيراً رمزياً . وأنكر البيان فكرة الثواب أو العقاب فى الآخرة . وقد انتشرت هذه المبادئ بين يهود أمريكا وتقول مريم جميلة انها ولدت فى وسط يؤمن بها وهى تبدى احتقارها لذلك النفاق الذى ينكر أسس الدين ثم يستمر فى دعوى الإيمان به .

وهكذا انقسمت اليهودية إلى اتجاهات ثلاثة تمثلها ثلاثة أنواع من المعابد . فالحركة الإصلاحية لها معابدها الخاصة المختلفة تماماً فى شعارها عما كانت عليه المعابد فى الماضى . وهناك الحركة المحافظة التى تخلت عن الكثير من التراث والتقاليد وإن لم تذهب فى ذلك إلى المدى الذى انطلقت إليه الحركة الأولى . أما الحركة الأرثوذكسية أو المتدينة فقد احتفظت فى معابدها بما كانت عليه الممارسات قبل حركة الإصلاح . ولكل حركة مؤسسات تعليمية خاصة لإعداد حاخامات المستقبل وتضرب الكاتبة المثل على فشل الحركة العصرية فى اليهودية فى تحقيق هدفها المعلن وهو الحفاظ على إيمان اليهودى وتمسكه بالشريعة

المجتمع المسيحى وتفتح أمامه أبواب الفرصة لكنه كان من أهم عوامل هدم هذا المجتمع بعقيدته الثورية . وفى نفس الوقت وعلى طرف النقيض من ماركس كان هناك فريدريش جولوس شتال المارق من اليهودية إلى المسيحية ليصبح أهم مستشارى الزعيم الألمانى بسمارك ومن أكبر دعاة الحركة السياسية اليمينية المعروفة باليونكرز . ونذكر أيضاً الأديب الكبير هايزيش هاينه اليهودى والفيلسوف سولومون ميمون الخارج عن الدين اليهودى .

ولم تقتصر الحركة العصرية فى اليهودية على أمثال هذه المظاهر الاجتماعية المفهومة التفسير وإنما امتدت إلى محاولات لتعديل الشعائر اليهودية ولاسيما الصلاة فأدخلت الآلات الموسيقية إلى المعابد ومنها الأرغن وعلقت على النوافذ ألواح الزجاج الملون التى تحمل صور الأنبياء والقادة . واستخدمت الترانيم المسيحية بأنغامها مع تعديل بعض كلماتها كى لا تؤذى المشاعر اليهودية وكان يقوم بأدائها جوقة مشتركة من الرجال والنساء (بعضهم مسيحيون) . وكانت هذه محاولة من اليهودية العصرية للاقترب من الكنائس المسيحية . وألغى الفصل فى معابد هؤلاء بين الرجال والنساء . وعدلت كتب الصلاة لتحذف منها أى عبارات لا تتفق مع الفكر الليبرالى الغربى العصرى كالإشارة إلى الجنة أو النار أو يوم القيامة وحلت اللغات الغربية كالألمانية والإنجليزية محل العبرية .

مع الاندماج الكامل في الحياة الغربية الحديثة . وتختار لذلك ما كتبه الناقد البريطاني المعروف ديفيد ديتشيز عن والده الخاخام الأكبر لمدينة أدنبره بسكوتلندا . فعلى الرغم من أن هذا الخبر قد كرس حياته بأكملها ليثبت أن توافق اليهودى في الحياة الغربية يمكن أن يتم بدون تخليه عن دينه أو إيمانه وتمسكه بالتعاليم المحددة لذلك الدين إلا أنه فشل في ذلك وكانت آية إخفاقه نشوء أبنائه كلهم على الإلحاد بعد تربيتهم في مدارس علمانية .

وتتلور الصورة التي ترسمها لنا مريم جميلة في خطوط عريضة واضحة . فنحن أمام مجتمع مغلق كان يعيش ويحافظ على تراثه وتقاليده وممارساته لدينه ولكن على حساب عزله عن الحياة الأوروبية الكبرى التي تحيط به دون أن يقدر على الاستفادة منها كعادة اليهود بل وهو يعاني من اضطهادها أحياناً كثيرة . وعندما أتحت فرص الخروج من تلك العزلة نتيجة لأحداث جسام مرت بالقارة الأوروبية من حروب وهزات نجم عنها مجتمع أكثر انفتاحاً أو هكذا يزعم . خرج اليهود أو مثقفوهم تواقين للاندماج والمشاركة في هذا العالم الجديد . لكن هذا الخروج أسفر عن عكس المرجومنه . فبدلاً من أن يعمل على تدعيم مكانتهم داخل بلدان أوروبا فتح الأبواب لفقدان الهوية والذوبان في المجتمع المسيحي الكبير باعتراف المسيحية أو الإلحاد التام . وفقدت اليهودية نفسها لغتها وشرعتها وشعائرها التعبدية وتقاليدها الاجتماعية

من خلال نشاطات الحركة الإصلاحية التي حاولت القيام بدور « الغريب » اليهود وإدخالهم الوسط الغربي الحديث . وهكذا انتهت أعمال الاندماج في الغرب العصري مع الاحتفاظ بالهوية وبقى التذمر والمسخط تلهبها بعض أحداث الاضطهاد الواقعة في روسيا وبلدان أوروبا الشرقية . ومن وسط هذا المأزق خرجت الدعوة الصهيونية لتحل ما سمي بمشكلة اليهود في أوروبا وهي مشكلة خلقوها هم بقدر ما خلقها غيرهم هناك . وكان الحل الذي أراح الجميع متدينين وملحدين يهوداً ومسيحيين هو إلغاء المشكلة بنقلها إلى قلب العالم الإسلامي (إلى فلسطين) لتصني الخلافات بينهم وتتحول إلى صراعات ثانوية ويتحد الجميع لضرب واستعمار عدوهم الأكبر وهو الإسلام .

والآراء الأخيرة هي من عندي ولا تذكرها مريم جميلة ولكنها تلمح إليها . لكن الخطوط العريضة لتصورها عن علاقة اليهود بالمجتمع الغربي في أوائل وأواسط القرن الماضي منقولة عن كتابها دون تعديل أو إضافة . ولا أتفق معها تماماً في ذلك التحليل الذي يغفل مثلاً دور اليهود من خلال الجماعات الماسونية أو بعض التيارات الفكرية فيما سمي عصر التنوير خلال القرن الثامن عشر وهي اتجاهات عملت على تخريب المجتمع المسيحي تمهيداً لهيمنة اليهود عليه أو على الأقل تدخلهم وتأثيرهم وتوجيههم له . كما أن تصورها هذا يجعل قيام الحركة الصهيونية مبرراً بفشل اليهود في التكيف مع المجتمع الغربي العصري

رغم تنازلاتهم الفادحة لقاء ذلك . وكان يجب عليها مثلاً أن تبحث في قيام الصهيونية كنظير يهودى لحركة الاستعمار الواسعة التى شهدتها أوروبا في تلك الفترة . فالأسلوب واحد وهو الاحتلال ومحاولات الاستيطان . كذلك فإن وجود الدافع الدينى ملحوظ فى اليهودية والاستعمار الذى شجع ورعى حركة التبشير التى تبعتها الكاتبة باستفاضة خلال تناوئها للمسيحية .

وتغنيا مريم جميلة عن عناء ربط هذه التصورات بالواقع الإسلامى . فهى تحاول استخلاص العبرة من تجربة اليهود فى المجتمع الغربى الحديث وحيرتهم بين الانغلاق والذوبان . فتلاحظ أنه على الأعداد الكبيرة من المسلمين المقيمين فى الغرب أن يدركوا خطر ضياع دينهم وهويتهم إذا ذابوا تماماً فى المجتمع هناك . فهم لا يستطيعون أن يربوا أبناءهم على دينهم ولغتهم . ويفيدهم فى هذا الصدد الجانب الإيجابى فى تجربة المجتمع اليهودى فى أوروبا قبل فترة الحركة الاندماجية . فهو مجتمع حقق إستقلالاً واكتفاء ذاتياً وتنظيماً داخلياً مكنه من المحافظة على دينه وشعائره وشريعته من خلال المؤسسات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة به كالمدارس والجمعيات الخيرية . ويمكن للمسلمين أن يستفيدوا من هذه التجربة ، تجربة التماسك والترابط دون أن يقعوا فى الجانب السلبى منها وهو جانب الانغلاق والعزلة المؤدية إلى الشعور بالنقص والتشاؤم والبغى . والحل

الذى يمكنهم من ذلك هو الاختلاط بالمجتمع الأوروبى أو الأمريكى من موقع الشعور بالهوية كدعاة منظمين للإسلام يكسبون الجماهير بالقدوة الحسنى والفكر وتقديم نموذج للمجتمع الإسلامى . وبهذه الطريقة يحافظ المسلمون فى الغرب على دينهم دون انكماش مؤد للانقراض بل من خلال الممارسة الإسلامية الأصيلة والواجبة وهى الدعوة النشطة المتحركة إلى دين الله . ولا ريب أن هذه الفكرة التى تطرحها مريم فكرة خطيرة الأهمية مثيرة للتدبر . فهى تطرح تحول جذرى لدور المسلمين فى الغرب من ملحقات هامشية فى طريقها للذوبان فى مجتمع غير مسلم ومدافعة بيأس عن مواقع تنهار الواحد بعد الآخر إلى مجموعات دعائية رسالية منظمة تبادر إلى الهجوم بنشر الإسلام من موقع الاعتزاز والإيمان والثقة وتتوسع وتكثر من خلال أعداد المنضمين لها . ويقتضى ذلك بالطبع تحويل هدف الهجرة إلى الغرب من التكسب المادى أو الهروب من ضيق المعيشة أو الرغبة فى الالتحاق بالمجتمع الإسلامى إلى هدف دينى فى المقام الأول وإن لم يمنع وجود أهداف مادية ومعنوية ثانوية .

ومما لا يقل خطورة عن هذه الفكرة التى تستخلصها الكاتبة من تجربة اليهود فى المجتمع الغربى الحديث فكرة أخرى تتصل بالمسلمين فى بلادهم . وفى رأى أن هذه الفكرة من أخطر ما يقدمه الكتاب وأوثقها صلة بالأوضاع الإسلامية الراهنة . تربط مريم جميلة بين الحركة

العصرية التي أشرنا إليها في اليهودية وأوضحنا مآلها وبين حركات تنشأ في الفكر الإسلامي وتحاكي ما فعله اليهود تحت شعارات الإصلاح أو التجديد أو الليبرالية . وهي تشير إلى أن الحركة الإصلاحية اليهودية انتهت إلى بتر الشريعة عن الدين اليهودي ثم أضعفت العقيدة ثم أضاعت اللغة ومحت الممارسات والالتزام وانتهت إلى الإلحاد أو اعتناق المسيحية ومع كل ذلك بقيت مشكلة اليهود ليحاول العلمانيون الملمدون من قادة الصهيونية حلها لا في الغرب ولكن في بلاد المسلمين . وتتساءل بمرارة عن الباعث الحقيقي لتلك الأفكار التي تروج بين بعض من يسمون أنفسهم بالمسلمين ويشجعوا واضح من الغرب . وتذكر على سبيل المثال حركة السير سيد أحمد خان في أواخر القرن الماضي بالهند والتي أدت إلى إنشاء جامعة عليكرة كطليعة لعملية تغريب الإسلام على نمط ما فعلته الحركة الإصلاحية اليهودية .

وتقتبس مريم بعض الفقرات من كاتب هندي معاصر يدعى عساف فيظن يحاول أن يدعو إلى أفكار مشابهة لأفكار العصريين اليهود بين المسلمين ، فهو يقول مثلاً : كما حطم مارتين لوثر أسوار العقيدة المذهبية في المسيحية وكما سعى اليهود التقدميون إلى إصلاح اليهودية وتقديمها لليهود فلا بد أن يعترف المسلمون المتدينون بالتيار الإسلامي الليبرالي . وتسخر الكاتبة من ذلك الادعاء قائلة ان هذا المتحرر إن أراد الصلاة فلن يذهب الى معبد أو كنيسة منفصلة كما هي الحال عند من

يعجب بهم لكنه سيضطر إلى الوقوف في مسجد بجانب من يسميهم المتدينين غير المستنيرين .

كما تذكر طرفاً من محاولات كمال أتاتورك المجنونة لفرض العلمانية على الإسلام في كل مجال . فقد كتب برنارد لويس المعادي للإسلام كتاباً في عام ١٩٦١ أسماه **ظهور تركيا الحديثة** . وتحدث في هذا الكتاب عن محاولة النظام الكمالي إقامة كلية جديدة للدراسات الدينية بجامعة إسطنبول تكون بمثابة مركز لشكل عصري وعلمي للتعليم الديني يتلاءم مع اتجاه الجمهورية التركية إلى العلمانية والغرب . وفي عام ١٩٢٨ شكلت هذه الكلية لجنة لدراسة إصلاح وتحديث الدين الإسلامي . ونشر تقرير اللجنة في شهر يونيو من نفس العام وتضمن التأكيد بأن الدين هو مؤسسة اجتماعية وينبغي عليه كسائر المؤسسات أن يواكب التغيير والتطور . وقدمت اللجنة توصياتها في أربعة مجالات كان أولها يتناول «شكل العبادة» . ويوصي بوضع مقاعد في المساجد على غرار تلك الموجودة في الكنائس وأن يدخل الناس إليه بالأحذية مع مراعاة نظافتها . وتلغى اللغة العربية من الأذان والصلاة نفسها بحيث تكون باللغة التركية . ولا بد من تعميق الطابع الجمالي الروماني للمسجد بإدخال الآلات الموسيقية القديمة والحديثة فيه ومعها عازفون متدربون للعزف عليها وخلق الجو المناسب . ويتحول دور الواعظ إلى دور الموجه الروحي انطلاقاً من مفاهيم فلسفية جديدة . ويتضح أن أتاتورك كان

## الحركة الصهيونية

برزت في الفصل السابق لمحات عن تصور مريم جميلة في كتابها  
لنشأة الحركة الصهيونية بين يهود أوروبا وهي عندما تتحدث عن الحركة  
الصهيونية استكمالاً لمعالجتها لتاريخ اليهودية الحديث توجز لنا في تسلسل  
واضح ظهور ونمو هذا التيار . ويتسم عرضها بالإيجاز والترتيب المنطقي  
في سرد الأحداث وتحليلها وهو ما لم تقدمه لنا الكثرة من الدراسات  
العديدة المكرسة للبحث في الصهيونية .

نشأت الفكرة الصهيونية لدى علمانيين يهود كانوا يأملون أن تحل  
المشكلة اليهودية في أوروبا الشرقية على وجه الخصوص من خلال  
اندماج قومهم في مجتمعات تلك البلاد في القرن التاسع عشر . وكانت  
البداية في روسيا حيث دعا العلمانيون اليهود إلى تبني الثقافة الروسية  
والدخول إلى المجتمع الروسي من خلال الانخراط في نظامه التعليمي  
كموسيلة لخروج اليهود من عزلتهم وفتح أبواب المستقبل الذهبي أمامهم .  
ولكن قامت حكومة القيصر في مايو عام ١٨٨١ بإصدار قرارات  
معادية لليهود وبدأت سلسلة من أعمال الاضطهاد والمذابح المعروفة باسم  
البوجروم طالت اليهود في روسيا وبولندا في نفس ذلك العام .

وكان أول رد فعل لهذه الأحداث وأول دعوة صهيونية أيضاً قيام  
الحاخام زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٠) بكتابة منشورات دعا  
فيها إلى العودة إلى «أرض إسرائيل» هرباً من الاضطهاد الجديد .

يريد نقل نظام الكنيسة إلى المساجد وذلك تحت شعار العلمانية التي  
يفترض أنها بعيدة عن الأديان . وقد فشلت هذه المحاولة وماتت في  
مهداها إزاء مقاومة الأتراك المتسكين بدينهم .

ومن المؤكد أن محاولات العلمانية الحديثة لنسف الإسلام لا تنحصر  
في إطار محاولات مكشوفة كتلك التي سعى أتاتورك إليها . لكنها مها  
تقنعت بالأسماء البراقة كالاستنارة والعصرية والتقدمية فهدفها واحد  
وهو تميمع الإسلام وهز ثبات أركانه وإضعاف الإيمان به بعد تحويله إلى  
مسخ هزيل مبتور الأطراف فاتر بارد بحجة الإصلاح أو التجديد أو  
مسايرة العصر . وقد أحسنت مريم جميلة عندما ذكرت مصير ودوافع  
حركة الإصلاح اليهودي . فإذا كانوا هم قد فشلوا فهم يحاولون تصدير  
هذا الفشل مضاعفاً أثره بعداء مرير للإسلام ورغبة في تشويهه  
وتحريفه . ولا يتسع المجال هنا وليس مما يتفق مع أغراض هذا الكتاب  
أن نواصل الربط الذي بدأته مريم فتتحدث مثلاً عن محاولات  
العلمانيين في مصر ضد الإسلام وهي محاولات تشتد كلما ضرب الإسلام  
بل إن العصف بالحركات الإسلامية مقصود لإخلاء الساحة أمام هذه  
العناصر المدفوعة والتي لا تظهر إلا عندما تلتهب أحزان الإسلام .

عبد الحميد الثاني حاكم فلسطين على ميثاق قانوني يسمح بإقامة دولة  
يهودية فيها .

ورفض السلطان هذه المحاولات بكل قوة وتنبأ بأنها لن تنفذ إلا  
بتمزيق الدولة العثمانية وهو ما حدث فعلاً بعد وصول حزب تركيا  
النهضة الذي يحركه الماسونيون إلى الحكم عام ١٩٠٨ ليسقط السلطان  
نفسه ويمهد لسقوط الخلافة على يد كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ وتقوم  
إسرائيل عام ١٩٤٨ .

وعقد هرتزل عام ١٨٩٧ أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل في  
يومى ٢٩ - ٣١ أغسطس . وبينما فشلت جماعة محبي صهيون في تحقيق  
نتائج ملموسة من مؤتمرها الذي عقدته في مدينة كاتوفيتسا البولندية عام  
١٨٨٥ نجح هرتزل وانضم إليه أفراد هذه الجماعة . وتمخض مؤتمر بازل  
عن برنامج يعلن : « إن هدف الصهيونية هو إقامة وطن للشعب  
اليهودى في فلسطين يحميه القانون العام » . « وتأسست المنظمة  
الصهيونية العالمية وجناحها المالى الصندوق الإعمارى اليهودى قبل نهاية  
المؤتمر ، الذى صرح بعده هرتزل بثقته الأكيدة في أن الدولة اليهودية  
ستقوم بعد خمسين عاماً وقد تأخر ميعاد قيامها عن ذلك التاريخ بعام  
واحد فقط .

ولم تحرز الحركة الصهيونية في الثلث الأول من القرن الحالى كبير  
نجاح وواجهتها معارضة من ثلاث جهات يهودية . أولها من لا يؤمنون

وقولت هذه الدعوة بالرفض في أوساط اليهود المتدينين لاعتقادهم أن  
المسيح المنتظر وحده هو الذى يملك حق قيادة اليهود عائدتين إلى ما  
يصفونه بأرضهم . ولم يمنع ذلك من قيام حاخام آخر هو صمويل  
موهيلفر (١٨٢٤ - ١٨٩٨) وهو من كبار حاخامات أوروبا الشرقية  
بتأليف رابطة محبي صهيون التى تأسست في وارسو عام ١٨٨١ كرد فعل  
آخر لأحداث ذلك العام . وفي نفس الوقت تأثر ليوبنسكى بمذاهب  
أوديسا في السنة نفسها وتخلّى عن أفكار الاندماج في المجتمع الأوروبي  
التي كان يعتنقها وآمن بضرورة ما أسماه بحق تقرير المصير لليهود . وكان  
كسبه في هذا المعنى دليل عمل لحركة محبي صهيون .

أما مؤسس الصهيونية العالمية فهو تيودور هرتزل . فقد كان يغطى  
محاكمة الضابط اليهودى الفرنسى النقيب ألفريد دريفوس في باريس  
خلال يناير ١٨٩٥ كمراسل صحفى وساءته روح التعصب لدى القضاة  
والجمهور والصحافة ضد هذا الضابط المتهم خطأ بالخيانة العظمى .  
وبعد رؤيته لتخفيض رتبة دريفوس وسط صححات « الموت لليهود »  
سارع إلى كتابة رسالته المشهورة « الدولة اليهودية » التى صدرت عام  
١٨٩٦ متضمنة برنامج الصهيونية السياسى . وقد تخلّى هرتزل عن إيمانه  
السابق بالاندماج وبدأ حملة محمومة لإقناع كل ذوى النفوذ في أوروبا  
بفكرة الدولة اليهودية . وخاطب وقابل البابا والملوك ووزراء الخارجية  
ورجال البنوك وكانت جهوده منصبة على الحصول من السلطان

الهد لا يمكن أن يندمجوا في المجتمع الغربي وسيستمررون في أن يكونوا  
مصدر اضطراب فيه . ونجم عن ذلك الاتفاق التلقائي في النظرة ما  
عرف في التاريخ الصهيوني أو اليهودي القريب باسم « الخيانة » وهو  
انتاج زعماء الوكالة اليهودية في ألمانيا عن إخبار يهود أوروبا الشرقية  
بأن القطارات التي تحملهم إلى ألمانيا كانت تقودهم في الحقيقة إلى  
مسكرات الاعتقال والموت . ونتيجة لذلك لم تقم ثورات يهودية ضد  
الألمان في تلك المناطق وكان الثمن هو تمكن عدة مئات من زعماء  
الحركة الصهيونية من الهروب من ألمانيا والمناطق التي سيطر عليها  
النازي .

والهدف الذي سعى إليه زعماء الصهيونية من هذا العمل هو  
الاحتلال إبادة النازي لأعداد من قومهم (وهي التي ضخموا فيها حتى  
وصلت إلى ستة ملايين شخص) للقيام بحملة دعائية كبرى لكسب  
تعاطف شعوب العالم الغربي مع قضيتهم وإخافة اليهود المتبقين في أوروبا  
الشرقية والوسطى وإقناعهم بالهجرة إلى فلسطين . ومع الدعوة في  
الغرب إلى منح اليهود المضطهدين وطناً في فلسطين شنت الدوائر  
الصهيونية حملة تشويه إعلامي ضخمة في الغرب ضد العرب مصورة  
إياهم بالتخلف والعداء للحضارة الغربية وذلك للتغطية على جرائم هذه  
الحركة ضد الفلسطينيين والتي بدأت مع إجرام عصابات مناحم بيجين  
وأمثاله . وفي نفس الوقت ساعد الصهاينة أن قوانين الهجرة المتشددة في

بواقعية الفكرة وثانيها دعاة الاندماج في المجتمع الغربي من المؤمنين بحركة  
اليهودية الإصلاحية . وثالثها من اليهود المتدينين الأرثوذكس الذين رأوا  
أن الشتات هو عقاب إلهي على ذنوب إسرائيل وأن المسيح المنتظر وحده  
له الحق في إعادة اليهود إلى فلسطين بعد أن يتوبوا عن ذنوبهم ويتخلوا  
عن اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار مهما فعلوا من خيانة في حق ربهم  
بالتقصير في اتباع التعاليم الدينية . لكن الصهاينة الذين كانوا في الغالب  
علمانيين ملحدين رفضوا هذا الاعتراض وأعربوا عن عدم إيمانهم  
بالمسيح المنتظر وأكدوا عزمهم على إقامة الدولة اليهودية بأسلوب  
السياسة والقوة الدنيوي . وتقتبس مريم جميلة فقرات من كتاب محمد  
أسد الطريق إلى مكة يحكى فيها طرفاً من الصراع الذي نشب في المجتمع  
اليهودي بين الأرثوذكس والصهاينة ويذكر أن أحد رافضي الفكرة  
الصهيونية من اليهود وكان مقياً في فلسطين لأسباب دينية قد قتل على  
أيدي الإرهابيين الصهاينة في العشرينات من القرن الحالى لقاء مقاومته  
لمشروع الدولة اليهودية .

ويبدأ فصل آخر من تاريخ الحركة الصهيونية مع ظهور ونمو الحركة  
النازية في ألمانيا وعدائها لليهود . وعلى الرغم من هذا ترى الكاتبة أن  
الصهيونية واليهودية التقتا على تحليل واحد للمسألة اليهودية يرى أن  
اليهود على اختلافاتهم يمثلون شعباً واحداً وأن العداء للسامية أمر  
لا يمكن استئصاله لارتباطه بالطبيعة القومية للشعوب الأوروبية وأن



وعلى الرغم من حياها للعرب فقد خدعتها الدعاية الصهيونية وسارعت للانضمام إلى منظمة مزراحي هاسعير الصهيونية الدينية للشباب ظناً منها أن إقامة إسرائيل تعني عودة اليهود للعيش جنباً إلى جنب مع أولادهم العرب ليحيوا قيمهم الدينية والثقافية المشتركة . وقد تركت هذه المنظمة بعد أشهر عندما اتضحت لها الصورة الحقيقية وراء إسرائيل .

وتعتبر مريم جميلة أن الدعاية الصهيونية المركزة ضد العرب هي ما دفع بالأمريكيين إلى مساندة إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ . وتعكس هذه الدعاية كراهية متأصلة للإسلام . وهي تقتبس من صحف ومجلات هذه الفترة . تقول جريدة التايمز اللندنية يوم ٢١ يونيو من عام ١٩٦٧ : إن القضية ليست أمراً فنياً يتعلق بحرية المرور في خليج العقبة إنها قضية بقاء إسرائيل وهي جزء من علمنا الغربي . وتقول مجلة التايم الأمريكية يوم ٩ يونيو : إن إسرائيل جزيرة من الثقافة الغربية والحرية والقانون وسط وحل من الكراهية النابعة من العصور الوسطى . وتعود نفس المجلة لتقول يوم ٢٣ يونيو : إن الإسلام ثقافة متحجرة لم تمر بإصلاح سياسي أو ديني حقيقي ينقلها إلى العصر الحديث . والعرب يكرهون إسرائيل لأنها دولة عربية حديثة ناجحة . وهي تمثل الأشياء التي يكرهونها لكنهم يرغبون فيها .

وتختتم الكاتبة عرضها السريع الموجز لتاريخ الحركة الصهيونية لتسجل فشلاً هاماً لها يستحق الالتفات وهو فشلها في إقناع اليهود

أمريكا وبريطانيا وأستراليا وكندا والأرجنتين حالت دون ذهاب اليهود الأوروبيين إليها كما كانوا يرغبون وسهلت إقناعهم بالذهاب إلى فلسطين ولو على مضض . وهكذا فإن الدول الغربية التي ساعدت على قيام إسرائيل في أرض المسلمين هي التي رفضت استقبال اليهود المهاجرين رغم تباكيها على الإنسانية الضائعة ووحشية النازي ضد اليهود المساكين .

واشتدت الدعاية الصهيونية ضد العرب وبالذات في الولايات المتحدة حيث استخدمت كل وسائل الإعلام وبفعالية لنشر الدعاية الصهيونية مع حجب وجهة النظر العربية . وتحول دعم إسرائيل مادياً ومعنوياً إلى القضية الأساسية في انتخابات الرئاسة وبرامج الحزبين الكبيرين . وبرزت شخصيات أمريكية معروفة في الدعاية لإسرائيل وجمع المال لها مثل إيلانور روزفلت زوجة الرئيس الأمريكي التي فاق حماسها في مساندة الدولة اليهودية حماس اليهود أنفسهم والتي كوفئت بعد ذلك بتلميع صورتها كداعية لتحرير المرأة ومشاركة في وضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة . وكان هناك أيضاً السياسي الشهير أولاي ستيفنسون الذي ذهب إلى التليفزيون ليناشد الأمريكيين الانضمام إلى إسرائيل وفرنسا وإنجلترا في غزو مصر عام ١٩٥٦ . وتذكر الكاتبة مشاهد الفرع الطاغى في أمريكا يوم إعلان قيام دولة إسرائيل وتقول : إنها كانت في سن الرابعة عشرة حينئذ

## مأزق أرض الميعاد

تقدم لنا مريم جميلة لمحتين متناقضتين من الحياة الإسرائيلية وتحاول  
النفاز منها إلى رؤية لهذا المجتمع . اللمحة الأولى دعاء ألفه كبير  
تخاضعات إسرائيل ونختار منه العبارات ذات المغزى : يا أبانا الذى فى  
السموات ؛ يا حامى ومخلص إسرائيل بارك دولة إسرائيل التى تمثل فجر  
خلاصنا . وأنشر نورك فى قلوب زعمائها ومسئولها ومستشاريها ووجههم  
بحسن مشورتك . وقو المدافعين عنها وتوج جهدهم بالنصر . وتذكر  
إخواننا كامل بيت إسرائيل فى شتاتهم . وأت بهم سراعاً إلى صهيون  
وإلى مدينتك مقرك القدس كما كتبت فى التوراة . ووجد قلوبنا على محبة  
اسمك والعمل بكل وصايا توراتك .

لم تستجب هذه الدعوة كما تقول الكاتبة لأن أغلبية زعماء إسرائيل  
(فى ذلك الوقت) كانوا يقولون عن أنفسهم: انهم ملحدون ولأن اليهود  
الغربيين يحجمون عن القدوم إلى أرض الميعاد . وتقدم هنا اللمحة  
الثانية عن الحياة الإسرائيلية . فبعد قيام هذا الكيان بقليل نشرت  
مجموعة من اليهود المتدينين تسمى نفسها حكماء القدس سلسلة إعلانات  
فى صحيفة نيويورك تايمز تدين فيها إسرائيل لإلحادها وكفرها بالتوراة .  
وتتحدث الإعلانات عن أن أبناء المهاجرين المتدينين لاسيما القادمين  
من البلدان العربية ينتزعون عنوة من آباؤهم ويؤخذون إلى ملاجئ حيث  
تم تلقينهم الإلحاد . وكان رد فعل اليهود الأمريكيين قوياً ضد دعاوى

الغربيين عموماً بترك عيشتهم المريحة المرفهة والهجرة إلى مدن الحدود  
الصحراوية ليدافعوا عنها ضد شعبيها الأصلي ويمثلوا الأرض ليحولوا  
دون عودة شعبيها . إنهم يرسلون بالأموال فقط من بعيد .  
ولا تنتهى قصة الصهيونية فهناك المجتمع الذى أقامته فى فلسطين  
المحتلة .

مجموعة حكماء القدس إلى حد أنهم هددوا الجريدة بالمقاطعة واجبروها على عدم نشر مقالات تحمل مثل هذا الفكر الناقد لإسرائيل والكاشف عن ضعف تمسك هذا المجتمع بالعقيدة اليهودية .

ومن خلال ذلك التباين بين هوية دينية للمجتمع الإسرائيلي وبين واقع معطن أيضاً يدل على انتشار الإلحاد والتزعات اللادينية تحاول المؤلفة استكشاف أوجه أخرى للتناقض في تلك الدولة المصطنعة وهدفها من وراء ذلك إظهار خلل الفكرة الصهيونية وفشلها في تقديم رؤية موحدة متسقة مع نفسها . وهي تختار جانباً اشتهر في الدعاية الإسرائيلية عقب حرب الأيام الستة ونعني به الحديث عما أسمى بجيل الصابرا وهو جيل اليهود الذين ولدوا في فلسطين المحتلة وترعرعوا في كنف المجتمع الإسرائيلي ومؤسساته التي يفاخرون بها لاسيما القرى الجماعية المعروفة باسم الكيبوتز . وقد قيل : ان هذا الجيل يمثل تجربة إنسانية رائدة لا مثيل لها . فهو جيل جديد حتى بين اليهود أنفسهم وهو نتاج تجربة فريدة في التنشئة الاجتماعية ألا وهي تجربة الكيبوتز التي تجمع بين مفاهيم الشيوعية والصهيونية . وهو الجيل الذي كسب الحرب ضد العرب المتخلفين بفضل إحساسه القومي العميق وتفوقه العقلي . وقد التقط العديد من المعلقين العرب الأسطورة وبالغوا في تضخيمها تحت ذلك الشعار المشهور «اعرف عدوك» والذي استغله البعض (أنيس منصور مثلاً) لنشر الإعجاب والانبهار باليهود تمهيداً لأحداث

كان مقدرًا لها أن تؤدي إلى ماسمى بالسلام .  
تعرض الكاتبة لهذا الجانب المهم من الحياة الإسرائيلية عبر دراسة أجراها استاذ يهودى أمريكى عليهم ونشرت عام ١٩٦٠ في أمريكا تحت عنوان أبناء الكيبوتز . وقد اختار هذا الباحث قرية جماعية يديرها الحزب الشيوعى الإسرائيلى محلاً لدراسته . وبدء في ملاحظة ظواهر الحياة فيها من السطح إلى الأعماق . فضور ستالين معلقة في أماكن نوم التلاميذ هناك وفي فصولهم . وقرأ المستوطنون صحيفة البرافدا والمطبوعات الشيوعية كما أن دراسة الماركسية اللينينية والتاريخ اليهودى مفسراً من وجهة نظر المادية الجدلية إجبارية كما هى الحال في الاتحاد السوفيتى . وعلى الرغم من هذه التنشئة المخططة إلا أن ولاء أفراد الكيبوتز للحزب الشيوعى وفلسفته يقوم على مجرد الالتزام البارد الآلى دون حرارة العاطفة التى تحول الفكر إلى سلوك شخصى ورؤية حياتية . وإذا كان الأعضاء لا يؤمنون بالماركسية أيضاً لا يؤمنون بالدين ويعادونه ويكرهون المتمسكين به وقد نجح النظام التربوى في غرس هذه الإتجاهات فيهم . إذ يصاغ منهج التعليم الأولى للأطفال على أساس نظرة طبيعية مادية للإنسان والحياة تستبعد أى فكرة دينية . ويقول أحد المشرفين على التعليم : إن جيلاً يبنى على عدم الإيمان بالإله سيقوى إيمانه بالإنسان . وبأن التوراة والإنجيل تدرس كنصوص أدبية تاريخية للأطفال وتتردد فيها كلمة «الرب» فإن المدرسين يفسرون للأطفال

ومن أخطر اتجاهات جيل الصابرا مشاعرهم العنصرية الحادة تجاه اليهود الشرقيين بملاحظتهم المتميزة وغلبة التدين بينهم . وهم ينجلون من اعتبارهم إسرائيليين مثلهم ويقولون : إن أشكاهم المنفرة حسب تصورهم هي سبب نشوء نزعات العداة للسامية .

ويخشون من أن هؤلاء المهاجرين إلى إسرائيل سيحبون الثقافة القديمة وهي ثقافة الجيتو بعقليتها المتخلفة . وتمتد هذه الكراهية إلى احتقار سمره بشرة اليهود الشرقيين والسخرية منهم بلفظ الشخوريم أى السود وتفضيل البشرة البيضاء والشقر عنهم .

ويقول الباحث الأمريكى اليهودى عن جيل الصابرا : إن رؤيتهم للحياة لاتمدهم بأى أساس ليدولوجى للتضحية بالذات فى سبيل أى قيم عليا وأنهم لا يشاركون مفكرين من أمثال أحادهاعام ومارتين بوبر فى عقيدتهم بأن هدف ومعنى الصهيونية هو تخليد القيم اليهودية التاريخية وإقامة وطن روحى يهودى ذى ثقافة متميز فالصابرا على العكس من ذلك لا يرون أى تميز للثقافة اليهودية بل يعتبرونها جزءا من الثقافة الغربية الحديثة التى ستكون الثقافة الواحدة للعالم فى المستقبل . وهدف إسرائيل يجب أن يكون القضاء على الثقافة اليهودية القديمة المريضة وقطع الروابط معها بغرض إقامة ثقافة حديثة . وهذا هو مأزق أرض الميعاد إذ يتحول شعار الصهيونية القائل « تعالوا إلى إسرائيل نقيم دولة يهودية » إلى « تعالوا إلى اسرائيل نهرب من الماضى اليهودى . »

سبب هذا الاعتقاد بظهوره قبل نشأة التفسير العلمى للظواهر الطبيعية . وأن الذين لزالوا يؤمنون بالرب هم أولئك الذين لم يتلقوا تعليما علميا ويحتاجون إلى شىء غيبى يفسر لهم الأمور التى لا يفهمونها . ونتيجة لذلك التلقين لا يؤمن الأطفال بالإله بل يسخرون ممن يؤمن بالدين ويحتفل بمناسباته ويؤدى شعائره . وعندما وجد بعض هؤلاء الأطفال آباءهم يذهبون للمعبد صاحوا فيهم : لكنه لا إله هناك ، نحن لا نؤمن بالإله .

والشىء الوحيد الذى يؤمن به جيل الصابرا من مفاهيم الصهيونية هو وجود واستمرار الدولة اليهودية أى إسرائيل . لكنهم لا يهتمون بمبادئ أخرى تركز الصهيونية عليها كأهمية الثقافة اليهودية ووحدة الشعب اليهودى . وهم يشعرون بأن اليهودية وثقافتها متخلفة ولا يودون أن يبقوا فى إسارها . وتبتدى مشاعرهم هذه من خلال تبرمهم وضيقهم من الأدب اليهودى وعزوفهم حتى عن قراءة أعماله الشهيرة المتضمنة فى المناهج الدراسية وهم يفضلون عليه مثلاً قراءة القصص الهندية والصينية . وينسحب نفس الضيق على التوراة والإنجيل التى ينفرون من مطالعتها ولا يحبون فيها إلا المواد ذات الصبغة التاريخية أو الأثرية المتصلة بدروسهم ورحلاتهم . ولا يهتم الطلبة عموماً بالتاريخ اليهودى مفضلين عليه دراسة التاريخ الأوروبى ويشعرون أن اليهود لم يقدموا إسهاماً حضارياً رائداً وأنهم كانوا دوماً مضطهدين .

الروح الأوروبية فيهم ولا نتركهم يجرؤنا إلى نزعة شرقية غير طبيعية بالنسبة لنا .

وترى مريم جميلة في آراء جيل الصابرا وأبا ايان المضادة لكل ما هو شرقي حتى ولو كان يهودياً ضربة لآمال بعض الكتاب من أمثال ألفريد هليستال وأنتوني نتنج وزير الخارجية البريطاني الأسبق الذين يرون أنه في الإمكان التعايش السلمي بين اليهود والعرب في فلسطين بعد خروج المهاجرين اليهود الغربيين منها وبقاء الذين كانوا في فلسطين قبل وعد بلفور مع اليهود الذين هاجروا من البلاد العربية وبعد عودة المهاجرين أو المبعدين الفلسطينيين إلى ديارهم . وهي تعتبر بحق أن أمثال هذه الخطط هي أحلام بعيدة عن الواقع لأن الصهاينة لن يقبلوا بها كما أن العرب أيضاً لا يرضون بديلاً عن عودة كامل أرض فلسطين إليهم . وهي تستشهد بأقوال ملك عربي (الملك سعود) الذي قال : إن إسرائيل سرطان ولا يمكن ضمان أمن المسلمين إلا بعد اقتلاع هذا المرض الخبيث بكامله .

وعندما ننظر إلى مطالب العرب اليوم ( ١٩٨٤ ) لنجد أن أكثرها تطرفاً لا يتعدى المطالبة بالصفة والقطاع منقوصين مع الاعتراف والتعامل مع الدولة الصهيونية والعبرية اليهودية فإنه يحق لنا أن نضحك أو نشفق على سذاجة الكاتبة التي صدقت كل ما قيل . ولكن ماذا كان يمكن أن تفعل وهي في باكستان تستمع إلى الدعايات النارية

والصهيونية عند الصابرا ليست هي تمجيد الثقافة اليهودية مع الإصرار على وحدة الشعب اليهودي بل هي الروح القومية الإسرائيلية منفصلة عن تاريخ يرجع إلى ألفي عام مضت وعن الأشخاص أو الفئات اليهودية التي تمثل هذا التاريخ أو ترتبط به .

وهذه النظرة المتغربة عموماً لا تقتصر على جيل الصابرا بل نجدها عند الجيل الأقدم ممثلاً بأحد أبرز أعمدة السياسة الإسرائيلية وهو وزير الخارجية الأسبق أبا ايان . ففي كتابه صوت إسرائيل الصادر عام ١٩٥٧ يقول ان إسرائيل بحكم طبيعتها وتكوين المهاجرين إليها غريبة عن العالم الإسلامي المحيط بها ووثيقة الصلات ببلاد الغرب وعليها أن تتجنب الاندماج في منطقتها بل تسعى إلى إغناء تراثها وثقافتها بمنتجات الحضارة الغربية الحديثة . ويرى أبا ايان أنه إذا كانت تركيا قد ضحت بروابطها مع العالم الإسلامي العربي كي تكون الامتداد الشرق للغرب فإن إسرائيل التي لا يربطها شيء بمنطقتها لا يمكن أن تضحى بروابطها الأصيلة مع الغرب في سبيل التهاك على روابط جديدة تحصرها داخل عالم إسلامي معاد وتقطع عنها نور الغرب . وهو يعبر عن مخاوفه من أن تؤدي هجرة اليهود الشرقيين إلى تهديد هذا الاتجاه الغربي لإسرائيل . ويقول : وبدلاً من أن ننظر لمهاجريننا من البلدان الشرقية على أنهم يمثلون جسراً يمهّد لاندماجنا في العالم العربي يجب أن يكون هدفنا غلغلة

التي رددت لتغطية عار ملوك ورؤساء عام ١٩٦٧ ؟

وفي الواقع فإن تحليل مريم جميلة لجانب من الحياة في إسرائيل يحتاج بدوره إلى تحليل . لقد ركزت على جانب أبرزته الدعاية الصهيونية إبان كتابتها لمؤلّفها لكنه انزوى الآن طى النسيان بعد حرب رمضان والتطورات السريعة التي وقعت بعدها . مسألة الكمبيوتر وجيل الصابرا كانت بالفعل أكبر تمثيلية دعائية قامت بها الصهيونية بغرض رسم صورة معينة للكيان الإسرائيلي تخيف العرب وتكسب إعجاب الغرب بسائر اتجاهاته . فاليهودى الذى اشتهر بالعمل المالى والربوى يبرز فى هذه الأسطورة كمزارع يرتبط بالأرض (المسروقة) ويثمر الصحراء بإتباع أحدث ما توصل إليه العقل اليهودى فى علوم الزراعة . وهذا اليهودى الزارع الناشر للخضرة يمارس نشاطه التشميرى وسط مجتمع جديد مصاغ حسب النظريات الشيوعية أو الاشتراكية لكنه فى نفس الوقت يشبه مجتمعات رواد الغرب الأمريكى وهم يتكلمون فى وجه هجمات الهنود الحمر المتوحشين . واليهودى يواجه التوحش والتخلف ولكن فى شكل العرب ويتحصن ويزرع ويبدع فى قراه الجماعية أو التعاونية أو الحدودية بأسمائها المختلفة من موشاف إلى كيبوتز وهى القرى التى أعجب بها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين !

وعندما تحاول الكاتبة إبراز تناقضات تجربة الكيبوتز فإنها لا تسعى

إلى التركيز على الإلحاد الذى ينشر فى أحد الكيبوتزات التابعة للحزب الشيوعى . بل هى تريد أن تطعن وتفضح تفسخ وتهاوى ادعاء الصهيونية بأنها خلقت مجتمعاً جديداً ناجحاً . فهو ليس بناجح وليس مجتمع . إن الإلحاد يكرس وسط الدولة اليهودية والعنصرية تطل فى بيئة قيل أنها ستوحد بين اليهود على خلاف أوطانهم الأصيلة والنزعة التغريبية مؤصلة فى دولة أو مؤسسات إجتماعية قيل: انها ستؤسس ثقافة يهودية أصيلة . كان هذا إذن هدف مريم جميلة . والآن بعد انكشاف الكثير عن إسرائيل وبعد شبه الهزيمة فى حرب رمضان وتحدد العلاقة بينها وبين أمريكا على أساس التبعية المالية والعسكرية المباشرة وبعد الأزمات الاقتصادية الطاحنة المخجلة انتهت اسطورة الكيبوتز وجيل الصابرا التى ما زالت تدرس حتى الآن فى معاهد العلم بالغرب على أنها من أهم وأخصب التجارب الاجتماعية فى القرن العشرين .

وظهرت الآن أساطير جديدة للدعاية الصهيونية كما تغيرت التوجهات فى إسرائيل نفسها . أصبحت النغمة فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانيات هى الحديث عن العقل اليهودى المبدع الذى لا يريد أن يتغزل عن منطقة اسرائيل ليندمج فى الغرب بل يشترك إلى الاتحاد مع المال العربى والقوى البشرية المصرية لينشئ سوقاً «شرقاً أوسطية» مزدهرة . وسقطت نغمة المواجهة بين اليهود البيض والعنصرين واليهود السمر الشرقيين لتحل مكانها صورة جديدة لتعاظم نفوذ اليهود الشرقيين

داخل الأحزاب اليمنية سواء المشكلة لليكود أو خارجه . وظهر لهؤلاء وجه عنصري قبيح ضد العرب كرسنه سياسات تجمع الليكود في غزو لبنان عام ١٩٨٢ وما تبعه من مذابح ضد العرب المسلمين . وبينما كان البعض في العالم العربي يبشر بقرب حل المشكلة الفلسطينية مع تزايد أعداد اليهود ذوى الأصل الشرقى في الكيان الإسرائيلي فوجئ الجميع بأن الوجه السياسى لهؤلاء بالغ التشدد والتمسك بالتوسع والإستييطان والاستيلاء على المقدسات الإسلامية في القدس والخليل وطرد عرب الضفة والقطاع . ومما لاشك فيه أن محاولات اللعب على صراع عنصري بين اليهود الغربيين والشرقيين لاستمالة الأخيرين إلى الصف العربى بطريقة أو بأخرى قد فشلت . ويمكن القول : ان لأدوار في إسرائيل قد انعكست إذا اصبح اليهود الغربيون الآن ومن مواقعهم داخل حزب العمل الإسرائيلى مثلاً هم من دعاة التفاهم أو الحلول مع الجانب العربى الرسمى بينما ترفض ذلك تجمعات معبرة عن اليهود الشرقيين وتطرح مطالب عنصرية في مواجهة الفلسطينيين . ومع فشل التصورات القومية والعنصرية عن المجتمع اليهودى في إسرائيل فإن التصور الذى يقوى بأهمية العامل الدينى (بمعناه الواسع عند اليهود والذى يشمل الهوية القومية) فى ترابط الكيان الصهيونى يصبح مطروحاً للتقبل بجدية بعد أن درج العلمانيون العرب على استبعاده لمجرد ارتكابه على رؤية دينية لا يطبقون مجرد ذكرها .

وإذا كانت المتغيرات قد حولت تركيز مريم جميلة على جيل الصابرا إلى مسألة تاريخية فمن المؤكد أنها بررت صحة تصورهما عن وهم إقامة ملامحى بالدولة الديمقراطية العلمانية التى تضم اليهود والعرب . إن هذا الوهم الذى طرح فى البداية على يد أجنب ومنهم يهود كان يقضى بهجيم اليهود الغربيين وإعادة اللاجئين الفلسطينيين وكان معروضاً على الناشئة فى أواسط الستينيات . ولكن عندما تبنته منظمات الثورة الفلسطينية فى أواخر الستينيات أسقطت منه فى هدوء النص على تهجير اليهود الغربيين . وبالتدرج سقطت ملامح هذا الوهم الواحدة بعد الأخرى وحل محله مشروع الكيان الفلسطينى المتحد مع الأردن وهو أعلى مطالب العرب التى يلمحون أنهم على استعداد للتنازل عن أجزاء منه فى سبيل التصفية النهائية للقضية . وهكذا كان مشروع الستينات وهما فعلاً كما قالت مريم جميلة : ليس لأن العرب رفضوه فى سبيل المطالبة بكامل فلسطين ولكن لأنهم قبلوا بما هو أدنى منه واستمروا فى التنازل .

ومع تحليل الكاتبة لفشل الفكره الصهيونية فى إقامة مجتمع إسرائيلى جديد على أسس من اليهودية فإنها أيضاً تحاول ابراز فشل آخر لهذه الفكرة وهو يتصل بزعمها أن اليهود جنس واحد من الناحية العنصرية . إذ يتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن اليهود كالعرب نشوا أصلاً من فرع البحر المتوسط للجنس القوقازى (الأبيض) . ويفترض

وزوج أختها ملامح أوروبية مميزة لا تقرب لما يظن أنه الشكل اليهودي  
تشبه أمه أى سيدة سامية أو عربية . وأطفال الجيران القادمين من  
نيكوسلوفاكيا لهم أعين سمراء اللون وبشرة داكنة وأنوف معقوفة  
كالقالب يمينيين أو سعوديين .

أن العبرانيين قد ظهوروا منذ آلاف من السنين كقسم من حركة الهجرة  
لقبائل الهكسوس شبه البدوية الراحلة . وقد استقروا في السهول  
الساحلية من فلسطين تحت اسم الإسرائيليين وعندما أقيمت مملكة يهودا  
عرفوا باسم اليهود وتفرق اليهود بعد تدمير دولتهم على يد الرومان عام  
٧٠ ميلادية وانتشروا في أماكن بعيدة . وقد هاجروا بأعداد كبيرة إلى  
روما ومصر والجزر اليونانية حيث كانت توجد من قبل بعض المجتمعات  
اليهودية . ومع الوقت هاجر اليهود واستقروا في أسبانيا ووادي الراين  
بألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبولندا . ويمكن اعتبار الكثير من اليهود في وقتنا  
هذا من أفراد الفرع المتوسطى من الجنس القوقازى إلا أن للكثير منهم  
ملامح جنسية مختلفة . وقد امتزج اليهود منذ الأزمنة المبكرة مع  
الأجناس الأخرى في الأماكن التى أقاموا فيها وعلى مر العصور .  
وحدث هذا الامتزاج بطرق عديدة كان منها دخول الآخريين في الدين  
اليهودى أو الزيجات المختلطة التى كانت تحدث رغم القيود المفروضة  
ضدها . ولهذا نجد مثلاً أن عدداً لا بأس به من اليهود الألمان لهم نفس  
الملامح الجسدية التى كان النازى يحددونها كسمات الجنس الآرى .  
وتضرب الكاتبة المثل على هذا الخليط العنصرى المشكل لليهود من  
واقع تجربتها الشخصية . إذ تتجلى في جدها لوالدها وعمتها الملامح  
المعروفة للجنس السامى والشبيهة للملامح العرب بينما تنعكس ملامح  
الجنس الآرى الشمالى من شقرة الشعر وبياض الجلد في جدتها لوالدتها .



## نحو موقف إسلامي

تختتم مريم جميلة بحثها في اليهودية والصهيونية لمجموعة من المقترحات والأفكار الموجهة للمسلمين العازمين على الجهاد لاستعادة فلسطين ومواجهة الخطر الصهيوني . وتهمنا هذه المقترحات لاجدتها وفائدتها (وهي بالفعل جديرة بالاعتبار) ولكن للروح التي صيغت بها والمصدر الذي انطلقت منه . هاهي سيدة من أصل أمريكي يهودي تقيم في باكستان في أواخر الستينات حيث الخطر الهندي حقيقي ومائل للعيان . ولا شيء يربطها بذلك التراب أو تلك الأرض العربية . لا شيء إلا الإسلام . ولهذا فهي تنسى الخطر القريب المباشر بتهديده الذي انفجر فعلاً في عدوان الهند على باكستان عام ١٩٧١ . وتوجه بقلبها ومشاعرها وعقلها مئات الأميال أو آلافها إلى فلسطين والخطر اليهودي الصهيوني البعيد عنها جسداً القريب عقيدة . وهي لا تنظر لفلسطين كتراب مقدس كما تغنى بها العلمانيون والقوميون العرب الذين خانوها وباعوها ويستعدون الآن لتصفية ما تبقى منها وسط أناشيد الثورة والكفاح . وإنما ترى في فلسطين أرض الإسلام وبيت المقدس والخليل ولا تقف عند هذه الرموز التي لم تعد تثير أى إحساس في قلوب الكثيرين وإنما تتعدها لترى في تلك الأرض حلقة من أهم حلقات الصراع بين الإسلام واعدائه .

وعندما تتقدم هذه السيدة بمقترحاتها لحل قضية فلسطين من وجهة

النظر الإسلامية فإنها تحطم أكذوبة ظل أعداء الإسلام من العلمانيين يرددونها حتى الآن وقد بعثت على سبيل المثال في مصر في أوائل الثمانينيات في إطار الهجمة الشرسة على الحركة الإسلامية فيها . وتقول هذه الأكذوبة البسيطة المظهر الموحية بالصدق إن أصحاب الفكر الإسلامي يجيدون رفض ونقد وتفنيدي مقولات وطروحات ومذاهب مخالفيهم لكنهم يعجزون عن تقديم البديل عنها في هيئة برامج مفصلة للعمل السياسي والاجتماعي . وتفترض هذه الأكذوبة أن لدى أعداء الإسلام برامج جاهزة وهو ما كشفت زيفه تحبطاتهم طوال سنين حكمهم لبلاد الإسلام كما أنها تتجاهل الجهود الفكرية المتعمقة التي قام بها المفكرون الإسلاميون على امتداد الساحة الإسلامية والتي لم تجد طريقها إلى الجموع الإسلامية أو إلى التنفيذ لحرمان الاتجاهات الإسلامية من العمل والدعوة وضررها بصورة متصلة على مدى نصف القرن الذي انقضى .

وليس هنا مجال مناقشة الأكاذيب المشوهة للإسلاميين لكننا نقدم مقترحات مريم جميلة للكفاح الإسلامي في مواجهة الصهيونية كنموذج لبرنامج إسلامي طرح في خضم المعركة مع إسرائيل وفي نفس الوقت الذي كان فيه الشيوعيون والناصريون في مصر يلقون باللوم في النكسة على الإسلام المقيد في سجون زعيمهم الخالد .

تقول الكاتبة : إن الهدف الأساسي للصهيونية هو إفناء الإسلام

ليس في فلسطين وحدها وإنما في مكة والمدينة كمرحلة تالية . ولا بد من إعلان الجهاد للمواجهة العسكرية الحاسمة وهي السبيل الوحيد للحصول على الحقوق وليس التفاوض (رحم الله أيام كامب ديفيد وما انتهت إليه) . وقبل الجهاد لا بد من اتخاذ الخطوات الآتية :

١- تسوية جميع الخلافات بين الدول الإسلامية والتعاون لتكوين جيش إسلامي دولي تحت قيادة موحدة .  
٢- ضرورة تصفية جيوب وحركات الماسونية في العالم الإسلامي .  
٣- التحرر الكامل من التبعية الاقتصادية لأمريكا أو روسيا والاكتفاء الذاتي عسكرياً .

٤- القيام بحملة إعلامية واسعة لإبعاد العالم المسيحي عن تأييد الصهيونية بالتركيز على أنه ليس من مصلحة هذا العالم دعم إسرائيل . وتؤكد هذه الحملة بتأميم المصالح الغربية وطرد القواعد العسكرية وأنواع المقاطعة التجارية .

٥- التأكيد على الطبيعة الإسلامية للجهاد أو حرب التحرير وذلك باستبعاد دوافع قومية أو اشتراكية أو عنصرية . ويجب أن يكون واضحاً أن الجهاد يهتدى بما نصت عليه الشريعة الإسلامية من ضرورة إعلان الحرب رسمياً وعدم قتل المدنيين أو تدمير المنشآت المدنية الاقتصادية أو استخدام الأسلحة المحرمة دولياً كالنابالم والغازات السامة وتحريم هتك الأعراض أو النهب وإحسان معاملة الأسرى .

وإذا كتب النصر للجهاد الإسلامي العالمي فيجب اعتقال قادة إسرائيل والمطالبة بتسليم قادة الحركة الصهيونية العالمية ومحاکمتهم على جرائم الحرب التي ارتكبوها ويعدمون فوراً بعد إدانتهم . كما يعامل اليهود والمسيحيون المقيمون في فلسطين كأهل الذمة ويقضى ذلك أن يتمتعوا بكامل حرية العبادة اتباع شرائعهم وتعليم أديانهم لأبنائهم والحفاظ على سلامة معابدهم وكنائسهم . ويدفعون الجزية بدلاً عن الزكاة ويعفون من الخدمة العسكرية ولكن لا يتتخون أو يعينون في منصب كبيرة لعدم إيمانهم بالإسلام وهو أيديولوجية الدولة . وتعلق محافل الماسونية ويعاقب من يؤيدها بعد ذلك بالنفي . ويسمح لمن يريد من اليهود مغادرة فلسطين بالهجرة كما ينبي من لا يقبل وضع الذمة لهم . ولا تشك مريم جميلة في أن اليهود المتدينين سيفضلون البقاء في ظل حكم إسلامي عن العيش تحت دولة علمانية (دول الغرب) تحارب قيمهم الدينية . وتنصح بالدعوة الإسلامية في أوساط هؤلاء اليهود وأوساط المسيحيين العرب الذين يجب أن يدركوا أن الكنائس الغربية تريد إسرائيل والصهيونية . ولا بد من إعادة كل الممتلكات والأراضي فوراً إلى أصحابها .

ومن أهم دعائم الإعداد للجهاد المعرفة الكاملة بالعدو من خلال مصادره الأساسية مقتدين في ذلك بأئمة الإسلام الأول كابن تيمية ~~ع~~ الذي كان من العليمين بعقائد وأفكار اليهودية والمسيحية . وترى

كتاب حاييم وايزمان التجريبية والخطأ تعرضت لحملة دعائية وكرامية من جانب الإسرائيليين وألقي القبض على مترجم هذه الكتابات واتهم بقيادة تنظيم لقلب نظام الحكم وهو ما عرف بقضية الجهاد التي حوكم فيها مئات الشباب المسلم المؤمن .

ويلفت النظر في مقترحات مريم جميلة اهتمامها بالدور الهدام الذي تلعبه الماسونية وهو دور لم يكتب عنه بعد وعن ألعاب ما وراء الستار في مسرح السياسة العربية عموماً . ويبرز أيضاً رفضها لاستخدامها الأسلحة المحرمة ضد اليهود وهي الأسلحة التي استخدمها عبد الناصر في اليمن ضد المسلمين وصدام حسين في حربه ضد إيران الإسلامية فضلاً عن استخدام إسرائيل لها . أما عن دعوتها للاستقلال العسكري والاقتصادي فلاشك أنها ستصاب بصدمة عندما تقرأ عن القواعد التابعة للروس والأمريكان والتي أقيمت عقب عام ١٩٦٧ وكلها بحجة دعم الأمن العربي وليست قوات الانتشار السريع عنا ببعيد . وانتهى الأمر باستخدام سلاح النفط إلى بيعه لإسرائيل بالثمن المؤجل .

وتوجه الكاتبة الدعوة إلى المسلمين لتعليم الحفاظ على الهوية والذات من اليهود الذين احتفظوا بتناسكهم لمئات من السنين رغم وجودهم في بيئات معادية لهم . كما أنها توجه سؤالاً إلى أصدقائها السابقين من اليهود : هل لو عاد موسى إلى الحياة وذهب إلى إسرائيل بقراها الشيوعية ازدهار تجارة الخنازير بها سيجد فيها المؤمنين به حقاً أم

المؤلفة ضرورة أن يعرف الباحث المسلم اللغة العبرية ولغة اليدبش وأن يدرس الكتب اليهودية المقدسة لاسيما المدراس وهو تفسير تأويل على هامش التوراة ويعد المصدر الرئيسي للإسرائيليات المتسربة إلى بعض كتب التفسير الإسلامية وهي تقترح دراسة الأعمال التي ألفها كل من سعاديا جاعون وراشي ويهوداها لبني وموسى بن ميمون بجانب التعرف على الأدب العبري الحديث عند حاييم نحمان بياليك وأحاديها عام ومندلى وشوليم عليخيم وشوليم أش وكلها تصور جوانب من الحياة والمزاج اليهودي . وتقترح التأمل في الكتابات الصهيونية الحديثة عند ليوبنسكرو وتيودور هرتزل وحاييم وايزمان وديفيد بن جوريون ومناحم بيجين وأبا إيبان وموسى ديان .

ويجدر بالذكر هنا أن دعوة دراسة كتابات اليهود والصهيانية قد أصبحت موضة ما بعد النكسة وكتب فيها الكثير جداً ولكن من وجهات نظر لا صلة لها بالاسلام إن لم تكن تعاديه . ويذكر القراء المصريون مثلاً أن صحيفة الأخبار القاهرية الموالية للسلطة المصرية كانت تشرف في خضم علاقة السادات مع اليهود صفحة أسبوعية شعارها المرفوع التعرف على الفكر الإسرائيلي ولكن واقعها فتح نافذة للحديث عن هذا الكيان وتقديمه للقارئ المصري في صورة الدولة الديمقراطية الحديثة الجديدة بالإعجاب في العديد من جوانبها . وفي المقابل فإنه عندما نشرت مجلة الاعتصام المصرية الإسلامية ترجمات مطولة من

## الإسلام في مواجهة المسيحية ونشاطاتها التبشيرية في البلدان الإسلامية

### مرم والمسيحية

تحدثنا مريم جميلة عن موقف فكرى اتخذته من المسيحية وهى فى فترة مقتبل الشباب وقبل أن تعتنق الإسلام . فعلى الرغم من إعجابها بالقصص المروية عن عيس عليه السلام فى الإنجيل إلا أنها كانت تنفر من سمات معينة فى هذا الدين كما عرفت وقرأت عنه فى تطوره ووضعها الراهن . وأول ما أثار رفضها خيانة المسيحية نفسها لمؤسسها وتعاليمه المسجلة حتى فى العهد الجديد المتداول الآن . وتمثل هذه الخيانة فى إدماج عناصر وثنية يونانية ورومانية وفارسية واعتبارها من عقائد الدين وممارساته بدلاً من نبذها كبذع وتحريفات . والمستول عن هذا التقبل هم رجال الدين الذين لم يكن بينهم نظير للمجددين من علماء الإسلام الذين حافظوا على نقاء الدين من البدع .

وأدت هذه العناصر الغربية إلى تعقيد اللاهوت المسيحى وإدخال تلك الأفكار عن الثالوث والتجسد والخطيئة الأصلية والفداء والكنيسة التى رفضها العقل اليهودى الموحد كما رفضها الإسلام . وتؤكد المؤلفة أن اليهود الذين دخلوا المسيحية لم يعتنقوها عن إيمان بسبب نفورهم من هذه الأفكار الغربية عن عقيدة التوحيد وإنما كان دخولهم فيها هرباً من

سيجدهم فى مصر التى هرب منها مكدين بالآلاف فى معسكرات اعتقال عبد الناصر يعذبون لأنهم إخوان ومسلمون لكنهم سينسون آلام التعذيب حالما يرون موسى ويلتفون حوله باكين بدموع الفرح والإيمان ؟ وهلى موسى ديان أولى بداود أم شهداء الأردن الذين احترقوا بالنابالم فى شوارع القدس ومدن الضفة ؟ وكم هى مؤثرة كلمات مريم وهى تهتف بحسرة إن نبوءة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن دخول المسلمين جحور الضب وراء اليهود والنصارى قد تحققت فهاهم الحكام المنتسبون اسماً للإسلام يذبحون المسلمين ويقتلونهم ويبيعون أراضيمهم للأعداء ويفعلون بهم ما لم يفعله هؤلاء المخالفون من أهل الكتاب . وهى تساءل : من أعظم خيانة لشعبنا المسلم من الخديوى إسماعيل الذى باع مصر للإنجليز ؟ ومن أكثر عداً للشريعة والدين من النظام الأتاتوركى والناصرى والبعثى أو البورقيى ، الذين رفضوا الوحي الإلهى لصالح الأنظمة العلمانية واضطهدوا المؤمنين ؟ وهلى كان اليهود أو النصارى هم المسئولون فى الماضى عن استشهاد الأئمة العظام عثمان وعلى والحسين وسجن الامام ابن حنبل وابن تيمية ؟

إنها دعوة للتعرف على الأعداء المستترين والمناقضين وصنائع خصوم الدين ممن فرضوا على مقاعد السلطة والنفوذ فى بلاد الإسلام . وهنا ترك مريم جميلة اليهودية والصهيونية بعد أن تصل إلى من يخدمونها داخل صفوف المسلمين .

اضطهاد أو مجتأ عن التقبل الاجتماعي داخل وسط « الأميين » وهي تقول : إن أهم عيوب المسيحية في رأى اليهود كما هي في رأى الإسلام افتقارها إلى المصدر الإلهي الموثق الصحيح . فالإنجيل ليست إلا أربعة اختيرت من بين العديد من السير الموضوعية عن حياة المسيح عليه السلام بلغة لم يكن يعرفها هي اليونانية ولم تعتمد كنصوص مقدسة إلا بعد أربعة قرون من صلبه المزعوم . وتعبر عن عدم فهمها لاعتبار رسائل القديس بولس موحى بها من الإله ، وهي مجرد تعليقات صادرة منه إلى عدة كنائس في الإمبراطورية الرومانية . وترى أن العقل المسلم لا يستطيع أن يقبل بتحول المصدر الإنساني إلى سلطة معصومة في أمور تتصل بالعقيدة كما حدث في المسيحية من خلال كهنوت الكنيسة الكاثوليكية أو ترك الحرية في تصور العقيدة للفرد بإعتباره يحمل نور الرب في قلبه كما يسود الاعتقاد بين دوائر معينة في الكنيسة البروتستانتية . والمسيحية في التحليل الأخير دين وضعه البشر وتطور عبر مقولات البابوات والقديسين والملوك الدينيين والجماع الدينية .

وأكثر ما رفضته مريم جميلة في المسيحية هو نبذ القديس بولس للشريعة وإحلال الإيمان بالمسيح كمخلص للبشر من خطاياهم محلها وذلك ليجعل هذا الدين مقبولاً عند العالم اليوناني الروماني بتوقعاته الخلاصية . والمسيحية خلو من أى نظام متكامل للهداية يكون بمثابة العامل الحاسم في الشؤون الاجتماعية والسياسية . أما الإسلام (واليهودية

أيضا كما ترى المؤلفة) فيذهب إلى أن لا أثر للإيمان على الحياة البشرية إلا إذا شمل الإيمان بالله كخالق ولكن أيضا كهادٍ ومشرع وحاكم . يرى الإسلام أن الله أرسل إلينا هدياً متكاملأ يوضح كيفية السلوك الفردي والجماعي وأن النحلة الأبدية لا تضمن إلا بالحياة طبقاً للكيفية التي أرادها الله . أما المسيحية فتتنظر إلى الشريعة (الموسوية) ولا سيما ما يتصل منها بالشئون الاجتماعية والسياسية كمجرد شكليات وطقوس جوفاء . وترى مريم جميلة أن وجود الشريعة كنمط موحد لتصور الحياة يوحد بين المسلمين من أندونيسيا إلى المغرب ويعمل على الربط بينهم بمجرد وجوده ولو نظرياً في أذهانهم أما انعدام مثل هذا النمط فإنه لا يساعد على الوحدة المسيحية فلا شيء مثلاً يربط البروتستانتى الأمريكى بالقبطى الأثيوبى .

وأشد ما نفر الكاتبة من المسيحية ارتباطها الوثيق التاريخي بأوروبا والحضارة الغربية . فقد كانت كلمة المسيحية تذكرها في طفولتها بظواهر مثل محاكم التفتيش الإسبانية والحروب الصليبية ومذابح اليهود في روسيا وبولندا وتحت حكم النازى بسكوت أو برضا الكنائس . والمسيحية الأوروبية تعاونت مع الصهيونية بنشاط تحت زعم التكفير عن خطايا الماضي في حق اليهود . وترى أن المسيحية تحالفت مع الإمبريالية الأوروبية منذ عهود الحملات الصليبية لتمثل أشد الأخطار على العالم الإسلامى ، وكان المبشرون النصارى دوماً طلائع الغزو

والهيمنة الأوروبية في أمريكا وآسيا وأفريقيا وهم يعملون من خلال مؤسساتهم التعليمية والخيرية على فصل الأجيال الجديدة عن ثقافتها الأصلية وإلحاقها بثقافة وعادات وسلوكيات الغرب مما يجعل من النشاط التبشيري أهم أدوات تغريب العالم خارج إطار الحضارة الغربية . ويتضح هذا الاتجاه الغربي المتأصل في الكنيسة في عدم تقبل غير البيض كأكفاء مهما آمنوا بالمسيحية واتبعوا تعاليم الكنيسة فهم ما زالوا مضطهدين في جنوب أفريقيا بل وفي أمريكا ذاتها . ومما يدل على أن الكنيسة والنشاط التبشيري هي أفرع للزحف الاستعماري

وعمليات التغريب انهاك هذه المؤسسة في النشاط الخارجي على حساب العمل الداخلي وسط الشعوب الأوروبية والأمريكية التي لم يعد الكثير من أفرادها يؤمنون بالمسيحية بل وتنتشر بين المسيحيين أنفسهم أفكار عن إنكار الوحي الإلهي والثواب والعقاب في الآخرة ويناقش بعض اللاهوتيين الأمريكيين ما إذا كان الإله قد مات فعلاً ! ويتأيد رأى مريم جميلة هذا بما لاحظته مراقب إنجليزية في الفاتيكان (خلال شهر سبتمبر عام ١٩٨٤) من أن رحلات البابا الخارجية الكثيرة تأتي وسط إهمال لمنطقة عمله التقليدية في إيطاليا .

وليس أدل على صواب ملاحظات الكاتبة في الفقرة الأخيرة على أن اتجاهات العمل الكنسي في السبعينيات ركزت على تأصيل وجود المبشرين في بلدان آسيا وأفريقيا بقبول قساوسة محليين للعمل في

الكنائس والادعاء بالرغبة في المحافظة على الثقافة المحلية واستنكار الممارسات الاستعمارية والفصل بين الكنائس وبين سياسات الدول الغربية بل وإدانة العديد من هذه السياسات في المجالات الاقتصادية مثلاً ، والتقرب من الحركات الوطنية وتخصيص الأموال لمساعدتها . وكلها محاولات لتجنب اتهامات كتلك التي تشير إليها مريم جميلة والتي ورددها الكثير من الكتاب الأوروبيين في أوائل السبعينيات متقدين بالكنيسة التي سارعت بالتغيير دعماً لكفاءة التبشير في وجه المد الإسلامي الذي نشط في أماكن عديدة في آسيا وأفريقيا .

وتعود مريم جميلة لتلح على بعض ما رفضته في المسيحية . فتستعين بمقتطفات من كتاب موجز تاريخ العالم للكاتب والروائي الإنجليزي هـ . ج . ويلز يبرز فيها التناقض بين صورة المسيح في الأناجيل كبشر ونبي يتجول في أنحاء فلسطين يصحح مفاهيم الألوهية التي أفسدها اليهود ويبشر بوحدة البشر في مملكة الرب وبين تلك الصورة الجامدة المعزولة عن الحياة والتي تطورت عنه بعد إسباغ عقيدة التأليه عليه . فالمسيح حسب تصور ويلز داعية بشرى إلى إصلاح القلوب وتطهيرها وتغيير الحياة إلى الأفضل في العمل على خدمة الإله المحب للجميع أما الذين أهوه فقد حولوه إلى كائن يعلو عن الحياة وأحوالها بينما كانت رسالته نفسها دعوة إلى تغيير الحياة الفردية والاجتماعية بالكامل .

وتتوقف الكاتبة عند موعظة الجبل لعيسى عليه السلام كما جاءت

سيحي (هو رأى بولس) لتبرير موقفهم المعادى للدين أى الإسلام .  
ويبدو رأيهم للوهلة الأولى منطقياً : إن تطبيق الشريعة الإسلامية  
علاها وحرامها وحدودها وعقوباتها بل وعباداتها وأخلاقياتها لن يحول  
الناس إلى ملائكة ولن يمنعهم من الخطيئة فما هى جدواها؟ أليس من  
الأفضل أن نتجه للإقناع والإصلاح النفسى؟ وهم يذهبون بعد هذا  
الدرس فى التقوى والورع إلى صياغة وفرض قوانينهم الخاصة العاملة  
على تغيير المجتمع وتحديد قيمه ونطاق عمله حسب تصوراتهم ولا  
يكلفون أنفسهم عناء الإقناع والإصلاح النفسى . فهذه الحجة تصوب  
الخطأ فى وجه المطالبين بالشريعة أو القوانين الإسلامية لكنها تختفي عندما  
يعلق الأمر بالقوانين العلمانية على اختلاف اتجاهاتها . وترد مريم جميلة  
على القديس بولس برأى جدير بالعناية لأنه ينطبق على خصوم الإسلام  
الآن .

فهى ترى أنه لم يدرك أن الشرائع أو القوانين وإن كانت عاجزة عن  
إجبار الناس على الفضيلة إلا أنها تمهد الطريق لهذه الغاية بحث الناس  
على انتهاج جادة الصواب . كما أنها إذا حظيت بإسناد اجتماعى قوى  
تؤدى إلى تخفيض الشرور إلى حدها الأدنى . ومن الصحيح أن عيسى  
عليه السلام أدان التمسك الظاهرى الأجوف بنص القانون أو الشرع مع  
مخالفة روحه أو مقصده لكنه لم يدعُ أبداً إلى إهمال الشريعة الموسوية  
بمحجة عدم جدواها . أما بولس فقد تصرف من تلقاء نفسه ونبذ هذه

فى الإنجيل فتلحح فيها عبارات ذات مغزى : بورك من يظمئون  
ويجمعون للحق لأنهم سيسبعون ، بورك من يضطهدون فى سبيل الحق  
لأنهم يرثون مملكة السماء ، لا تظنوا أنى بعثت لألغى شريعة الأنبياء  
فلم أجيء لأنسخ بل لأحقق لأننى أقول لكم بالحق إنه لن تنقصنى ذرة  
من الشريعة قبل انقضاء السموات والأرض . وهى ترى فى هذه  
الفقرات موقفاً محددًا يقر بالشريعة كنظام للهداية فى الدين . لكن  
القديس بولس أبطل الشريعة الموسوية بأسرها بمبادرة مستقلة منه  
ليجعل المسيحية مقبولة عند العالم اليونانى الرومانى . وكانت وسيلته فى  
ذلك مقولة معقدة تعتمد على المفارقة : إن نص الشريعة يقتل بينا  
تهب روحها الحياة . وقد رأى بولس أن ماينجى البشر ليس أعمالهم  
وإنما الإيمان بصلب المسيح ونزف دمه تكفيراً عن خطايا البشر  
أجمعين . ومن يؤمن بالمسيح كمخلص سينال الخلاص الأبدى . ولهذا  
فإن تعاليم شريعة موسى باستثناء الوصايا الأخلاقية تصيح ملغاة لأنه  
لا داعى لها فى النجاة وتأمين الخلاص للبشر . ويضرب بولس المثل  
للإيمان بالختان . فيقول : إن الاختتان تنفيذ لشريعة موسى قد لا يمنع  
الوقوع فى الخطايا وهو يصبح فى هذه الحالة بلا معنى أو كعدم الاختتان  
«فما هى فائدة الختان لليهودى»؟ .

ونلمح هنا نفس الحجة التى يرددها اليوم العلمانيون من أعداء  
الإسلام وشريعته فى مصر . ومن الغريب أنهم يلجئون إلى مفهوم دينى

الشريعة وألغى الختان وأحل أكل الخنزير وشرب الخمر للمؤمنين دون اعتماد على نص صريح من صاحب الدين وليته وقف عند هذا الحد بل مضى إلى الزعم بتجسد الإله في عيسى وهو ما لم يقل به المسيح نفسه. وهكذا ترك المسيحيون منذ عهد بولس الرسالة وعبدوا الرسول وتحولت النصرانية إلى دين يدور حول عيسى ولا يأخذ بتعاليمه . والسبب وراء كل ذلك هو بولس !!

وتقارن مريم جميلة هذه المواقف بتصورات الإسلام . فالقرآن والحديث يدينان كبر اليهود وتمسكهم الظاهري بنص شريعتهم مع مناقضة روحها وجوهرها . لكن الإسلام يفترق عن المسيحية في حفاظه على صفاء ونقاء فكرة التوحيد بإعلانه عن نبوه عيسى وتكفيره لدعاه التثليث . والإسلام يحفظ الشريعة الإلهية التي أسقطها المسيحيون قائلين بعدم نفعها ونسخها . ويعلم الإسلام أن الله ليس الخالق والقيوم والمنجى فحسب بل هو الحاكم والسيد الوحيد لهذا العالم . ولن يكون الله حاكماً إلا إذا أنزل على أنبيائه هداية كاملة تحدد للبشر كيف يوجهون حياتهم أفراداً وجماعات لتحقيق السعادة في هذه الحياة الدنيا والنجاة في الآخرة . وفي رفضه للشريعة الموسوية بل لمفهوم الشريعة نفسه كان بولس ومن خلفوه في الكنيسة المسيحية يعلن نبذه لهذه الهداية والتوجية الإلهي ويذر الدين مجرد خليط من اللاهوت المعقد والطقوس المقدسة تتمزج كالبودية باتجاهات رهبانية وتنسكية قوية .

ترك هذا الدين بعد فصل الشريعة الإلهية عنه محدوداً ومجزئاً وفتح الباب أمام دخول العقائد الوثنية كالطوفان بحيث أصبح القسم الأكبر مما هو موصوف اليوم بالمسيحية بما فيه التقويم المسيحي ذا أصل وثني . وهنا تترك مريم المجال لباحث باكستاني اسمه فضل الرحمن نصارى القادري الذي تتبع في كتابه الإسلام والمسيحية في العصر الحديث التأثير الوثني على المسيحية . وهو أثر يستحق الانتباه ونخصص له الفصل التالي .



## التأثير الوثني

ما هو رأى فضل الرحمن في المؤثرات الوثنية الداخلة فيما يعرف اليوم باسم المسيحية؟ إن الرجل يعتمد على البحث في العقائد الوثنية السائدة وقت ظهور المسيحية ويحاول من خلال عرضها أن يتبين مواضع تأثيرها على أولئك الذين شكلوا عقيدتها على غير ما أتى به عيسى بن مريم نبي الله عليه السلام. وتركه يتحدث:

كانت عبادة الشمس هي الدين الغالب عامة على الإمبراطورية الرومانية وقت ظهور المسيح وإن اختلفت أسماء الهة الشمس في البلدان المتنوعة. وكانت الهة الشمس المعروفة والتي انتشرت عبادتها في بلدان البحر المتوسط في وقت أواخر هي: أيتس في فريجيا (آسيا الصغرى، تركيا)، أدونيس في سوريا، ديونيسوس أو باكوس في اليونان، ميثرا في فارس، أوزوريس وحورس في مصر. ومن أساطير هؤلاء الألهة نستكشف أصول المسيحية.

أيتس: ولد من عذراء وكان يعتبر «الابن الأوحيد المولود والمخلص». وقد ترك يتزف الموت في يوم ٢٤ مارس عند جذع شجرة صنوبر. ويعتقد عابده أن دمه قد جدد خصوبة الأرض ومنح البشر بهذا حياة جديدة، وقد قام من الموت ويحتفل عابده بهذه القيامة كما يحتفلون بموته. وفي الرابع والعشرين من مارس في كل عام يعلقون صورته على شجرة صنوبر ثم يضعونها في مقبرة وهم يولولون

ويصرخون. وفي اليوم التالي يجدون المقبرة خالية ويحتفلون بقيامته وسط ابتهاج عام. ومن أبرز سمات عبادته في المعابد المكرسة له تقديم وجبات مقدسة والتعميد بالدم.

أدونيس أو تموز: هو «المخلص» المولود من عذراء. وقد عانى الموت ليفدى البشرية لكنه قام منه في الربيع. ويحتفل بقيامته سنوياً في مهرجان كبير.

ديونيسوس أو باكوس: هو «الابن الأوحيد المولود» لجوبيتر كبير الآلهة (واسم زيوس عند اليونان) من العذراء ديمتير في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر. وهو يوصف بالفادى والمحرر والمخلص. ويقول باكوس للبشر: إننى أنا الذى يهدىكم ويحميكم وينقذكم. أنا البداية والنهاية. وكان للخمر مكانة مهمة في الاحتفالات المخصصة لعبادته. وقد قتل من أجل فداء البشرية ويسمى بالمذبوح أو حامل الخطايا أو الفادى. وكان أتباعه يحتفلون كل عام بتمثيل موته ونزوله إلى الجحيم ثم قيامته.

بعل: هو إله الشمس ببابل وتعكس قصة حياته ومعاناته شيئاً كبيراً وتفصيلياً بما نسب إلى المسيحية من قصة الصلب والفداء.. إلخ. وقد أمضى اليهود زمناً طويلاً في بابل إبان أسرهم على يد بنوخذ نصار وهوما يفسر هذا التشابه الكبير.

أوزوريس: ولد في التاسع والعشرين من ديسمبر من عذراء وكان

وحولتها إلى خدمة .

**عيد الميلاد :** يعتقد المسيحيون أن يوم ميلاد المسيح يقع في الخامس والعشرين من ديسمبر . وهناك حقيقتان تذكران في هذا الصدد وتستحقان الفحص ! أولاهما : أن هذا اليوم هو تاريخ مولد الشمس في التقويم اليوليوي ويرتبط هذا اليوم والأيام القريبة منه بالانقلاب الشتوي للشمس الذي كان يطلق عليه أتباع عبادتها «مولد» الشمس . وقد ولد العديد من آلهة الشمس في العالم القديم في ذلك التاريخ أو في تواريخ تقربه . وثانيهما هي عدم وجود أدلة تحدد مولد المسيح بهذا التاريخ كما يؤكد ذلك باحث مسيحي مؤمن كالقس فارار . وفي الحقيقة فإن الذي حدد ميلاد المسيح في ذلك اليوم كان راهبا من سكيثيا (منطقة شمال البحر الأسود) هو ديونيسيوس اكسيجوس في عام ٥٣٠ ميلادية أى بعد أكثر من خمسة قرون على مولد المسيح ولم يحدد لنا هذا الراهب مرجعه أو دليله . وتحتفل الكنائس الشرقية بعيد ميلاد المسيح في السابع من يناير . ويقول الباحث ريتشارد جريجورى إن الكريسماس كان عيداً وثنياً اتخذ للاحتفال لمولد المسيح في حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى لإبعاد المنتصرين عن الاحتفالات الوثنية التي كانت تقام في تلك الفترة . ومن أمثال هذه الاحتفالات الوثنية التي أرادت الكنيسة إبعاد الناس عنها بإحتفال الكريسماس عيد يول في شمال أوروبا وكان مواعده

يدعو إلى الوداعة والوثام . ويقال : إن الخمر والذرة من نعمه . وقد قتل بعد أن تعرض للخيانة ومزق جسده . وبعد دفنه مكث في الجحيم يومين أو ثلاثة وثلاثة ليال ثم عاد للحياة . ومن عادة أتباعه وضع صورته في صندوق ثم إخراجها وقت عبادته صائحين : لقد قام أوزوريس . وقد أصبح الاعتقاد في الإله الإنسان على شكل أوزوريس عنصراً رئيسياً في الديانة المصرية إلى أن انتقل إلى المسيحية في صورة المسيح ، الإله الإنسان .

**ميثراس أو ميثرا :** هو إله الشمس عند الفرس المولود من عذراء وهو يمثل الأصل الذي أخذت منه أسطورة تأليه المسيح . وتأسست لعبادته كنيسة انتشرت خارج بلاده وكان الميلاد والفصح من أهم احتفالاتها . وكان أول عابديه في يوم ميلاده في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من الرعاة . ومن قيم ديانتته الاعتدال والطهر ونبد الدنيا وضبط النفس . وكان أتباعه يقدسون كل سابع يوم ويحتفلون في منتصف كل شهر بعيد خاص لميثرا كوسيط . وكان أهم احتفالاتهم المقدسة أو الأسرار كما كانت تسمى العماد والتثبيت والعشاء الإلهي الذي كان متناولوه يشتركون في طبيعة ميثرا الإلهية بتناول الخبز والنيذ .

ويقول السيد ريتشارد جريجورى وهو باحث في الأديان : إن كل احتفال رئيسي في التقويم المسيحي يواصل تقاليد أرسنها المعتقدات الوثنية السابقة . وقد قامت الكنيسة بحكمتها بتبني هذه المعتقدات

متتصف الشتاء ويرتبط بعبادة الشمس ومن رموزه شجرة الكريسماس المعروفة . أما في جنوب أوروبا فكان هناك احتفال بعبادة الأم والابن بقيت آثاره في المزود الذي يوضع فيه الإبن الرضيع .

**عيد الفصح :** استمد عيد الفصح معناه من عبادة ربات النور والربيع في العالم القديم . وكان يحتفل بأعيادها الواقعة بعد الاعتدال الربيعي للشمس (أى بدء فصل الربيع) في مصر وإيرلندا وذلك بتفريق وأكل البيض كما يفعل المسيحيون في الاحتفال بقيامة المسيح . ويقول السيد ريتشارد جريجورى : إن احتفال عيد الفصح يمثل استخدام أوضاع الأجسام السماوية لتحديد تواريخ المناسبات الدينية . وقد احتفل اليهود بعيد الفصح كمهرجان ربيعى في ذكرى خروجهم من مصر وهو بذلك يمثل عيداً للحرية عندهم .

ويقول روبرتسون سميث في الطبعة الرابعة عشرة من الموسوعة البريطانية إن الإسرائيليين وهم شعب رعوى قد ضحوا بأول مواليد قطعانهم في الربيع كقربان للشكر . وعندما استقروا في فلسطين وجدوا فيها احتفالاً زراعياً يرتبط ببداية حصاد الشعير الذى تصادف مع تاريخ خروجهم من مصر وارتبط به عندهم . ويشير ذلك إلى أن حمل عيد الفصح الواقع في الرابع عشر من شهر نيسان بتوقيتهم قد اتصل بهذا الاحتفال الزراعى .

وقد احتفل المسيحيون بالأعياد اليهودية ولكن بروح جديدة ومن

هنا اعتبر المسيح هو الحمل المضحى به في عيد الفصح . وهذا العيد في النهاية يرتبط بعبادة الشمس حيث تبدأ في استعادة قوتها وتتوافق قيامة المسيح مع بعث الحياة التى تمثلها بداية الربيع .

**يوم الأحد :** يوم الأحد هو يوم الشمس وهو اليوم المقدس لإله الشمس أبولو الإله الحامى للإمبراطورية الرومانية خلال عهد الإمبراطور قسطنطين . وقد حدد هذا اليوم بدلاً من يوم السبت الوارد في الشريعة الموسوية كيوم مقدس وذلك لاستكمال أوجه التوافق بين المسيحية الوثنية .

**الرهبان والراهبات :** استعير هذا النظام من الوثنية . وكان له مكانة في عبادة إله الشمس ميثرا حيث لجأ الرهبان إلى حلق دائرة في وسط شعر الرأس تمثل قرص الشمس ليحملوا رمز إلههم على رؤوسهم . ويراعى هذا الطقس في الكنيسة الكاثوليكية .

**الصليب :** لم ينشأ هذا الرمز مع نشأة المسيحية ولم يكن متضمناً في رموز المسيحية الأولى الواردة في القائمة التى أعدها القديس كليمنت مثلاً . وكان أول من جعله رمزاً للمسيحية قسطنطين الذى زعم أنه رآه في المنام . وكان الصليب ذا مكانة بين عباد الشمس في الإمبراطورية الرومانية كرمز للحياة كما هو عند المسيحيين . وهناك صليب مصرى سابق على المسيحية محفوظ في المتحف البلدى بالأسكندرية كذلك عثر على صليب من عهد قبل المسيحية في إيرلندا . وهو يتسمى إلى عبادة

ميثرا وعليه شكل مصلوب .

التي ما زالت وثنية .

وتقول الكاتبة : إن هذا اعتراف صريح بأن المسيحية التاريخية لم تكن أبداً ديناً مكتملاً أو طريقة حياة واضحة بل كانت تأخذ صبغة الشعوب التي اعتنقتها ظاهراً .

أما أسماء أيام الأسبوع وشهور السنة في التقويم المسيحي الغربي فكلها تحمل أسماء وثنية فيوم الأحد هو يوم الشمس كما يدل عليه اسمه بعدة لغات أوروبية . ويوم السبت يسمى على اسم الإله الروماني ساتورن . ويناير هو شهر جانوس الإله الروماني ومارس هو شهر الحرب مارس أو المريخ . ويونيو مشتق من اسم جونو وأغسطس بكرم الأباطور الروماني حامل هذا الاسم .

وتلتقط مريم جميلة خيط الكلام من فضل الرحمن أنصارى لتقول : إن بعض الكهنة المسيحيين لجئوا إلى تبرير تشرب ديانتهم بالتأثيرات الوثنية اليونانية الرومانية . ومن هؤلاء القس س . ه . روبنسون الذي يعترف في كتابه دراسات في شخصية المسيح بذلك الدين الذي تدين به المسيحية للوثنية لكنه يعتبره من المزايا الفريدة للمسيحية . فهو يقول :

إذا كان الفكر اليوناني والروماني مطلوباً لاكتمال تقدير معنى التجسد فلماذا لا يمكن أن نقول نفس الشيء عن الفكر الهندي أو الصيني ؟ ومن المؤكد أننا محقون في اعتقادنا بأن كل بلد وكل شعب لديه شيء يسهم به في المسيحية وأن اكتمال الوحي المسيحي ينتظر هذه الإسهامات . ونحن نعتقد أن هناك العديد من الجوانب الهامة في المسيحية لم تفهم أبداً لأن المسيحية لم تنعكس في تجربة تلك الشعوب

## الكنيسة والدولة

تنتقل مريم جميلة من البحث في العقائد التي أرتبطت بالمسيحية إلى النظرة في بعض الجوانب الهامة من تاريخ الكنيسة وتطور أفكارها . وأول ما يلج إلى الذهن من هذه الجوانب هو ما يمكن أن نطلق عليه الفكر السياسي للكنيسة أو علاقتها كممثلة للمسيحية بالسلطة الحاكمة في المجتمعات التي تقوم فيها . وتعود الكاتبة إلى تصورات القديس أغسطين ( ٣٥٤ - ٤٣٠ م ) في كتابه مدينة الرب لترى ما الذى قاله في هذا الصدد . والقديس أغسطين من آباء المسيحين الأول البارزين وأشهر كتابها وكان أسقفاً لمدينة هيبو في شمال أفريقيا ( بالجزائر الآن ) . وقد كتب هذا الكتاب - بعد سقوط مدينة روما على يد البرابرة عام ٤١٠ . وترى الكاتبة مما له مغزى أن هذا الحدث الجلل لم يثر في فكر القديس أى هجوم على الوثنية الرومانية أو يدفعه إلى إدخال النواحي الاجتماعية والسياسية على برنامج المسيحي .

يحدد القديس أغسطين موقفه من العلاقة بين الكنيسة والدولة بأنه الفصل بينهما . فالكنيسة مجتمع مهاجر يعيش بالايمان وينظر إلى الآخرة وهي توجد على الأرض بجانب الدولة وتستفيد من الأمن الذى تبسطه سلطة الدولة وتعترف لها بمشروعيتها وضرورتها لكنها تمر مروراً سريعاً على مظاهر هذا العالم مثبتة نظرتها على ما يتجاوزه . ويرى أغسطين أن هناك نوعين من المشروعية أو الحق : مطلق ونسبي . فالمطلق يتصل

بالعلاقة مع الرب وهي علاقة شاملة أما النسبي فيتصل بالعلاقات بين البشر وهي علاقات ذات طابع قانوني وتمثل في مؤسسات الدولة كالحكومة والملكية وسيادة الحكومة على رعاياها والأسياد على عبيدهم وتصرف أصحاب الممتلكات في ملكهم . وهذه كلها علاقات نسبية متعلقة بالجانب الخاطيء للطبيعة البشرية مما يجعل الدولة والمجتمع لا يصلان أبداً إلى مستوى المشروعية المطلقة التي تحجز في فكر القديس أغسطين لعلاقة البشر مع الرب فقط .

وتعلق الكاتبة على هذا التصور فتلمح فيه جذور ثنائية معينة هيمنت على تاريخ المسيحية والكنيسة القسم الأول في هذه الثنائية هو القبول بالعلمانية كأسلوب لتنظيم العلاقة بين الكنيسة والدولة أما الشق الثاني فهو التمسك بسلطة الرب المطلقة التي تعلق على سلطة الدولة العلمانية . وكان هذا الشق الثاني يدفع بالمسيحين الأول إلى الاستشهاد ومقاومة الدولة الطاغية إذا رأت أن تسطو على حفرق الرب أو مجاله . ومن هنا سقط الآلاف من الشهداء المسيحين على يد الإمبراطورية الرومانية وفي حلبات المصارعة تحت مخالب الأسود لأنهم رفضوا أن يسجدوا أمام الإمبراطور . وما يوضح هذه النزعة ما قاله أحد زعماء المسيحين لإمبراطور روماني عام ٢٥٠ م : من يهم أمر الإمبراطور أكثر منا ؟ إننا نصلى بلا انقطاع كى يطيل الرب فى عمره وأن يحكم الأمم بسيف عادل وأن يعرف ملكه الأمن والرخاء . لكننا لا نستطيع أن

نقدم القرايين للإمبراطور في المعبد فن هذا الذي يؤله رجلاً من لحم ودم ؟

ويتجلى التمسك بسلطة الرب في مواجهة سلطة الدولة في معارضة المسيحيين الأوائل الشديدة للألعاب الرومانية الوحشية حيث كان يذبح الآلاف من البشر والحيوانات في الحلبات لتسلية الجماهير المتعطشة للدماء . وعلى الرغم من أن هذه الألعاب كانت تعتبر دعامة للاقتصاد الروماني إلا أن المسيحيين رفضوا وحشيتها وكان السبب في إلغائها عام ٤٠٤ راهب يدعى تلياكوس قذف بنفسه إلى الحلبة لمنع المصارعات فرجمه المتفرجون بالحجارة حتى الموت واغضب هذا الفعل الإمبراطور هونوريوس ودفع به إلى إلغاء هذه الألعاب .

ومع هذه المقاومة العنيدة لكل ما يتعدى على حقوق الرب فلم تكن الكنيسة الأولى ترغب في عصيان السلطة الإمبراطورية أو المدنية وتخريب حكمها حتى لو كان على رأس هذه السلطة أباطرة طغاة من أمثال نيرون ودوسيتيان . ويحلل المستشرق ويلفريد كانتوبل سميث قبول المسيحية للعلمانية مقارناً إياه بوجود برنامج سياسي لدى الإسلام . فيقول :

لقد جاءت المسيحية إلى عالم منظم بالفعل وكانت الكنيسة المسيحية في قرونها الأولى المشكلة لطبيعتها واقعة تحت حكم جهات أخرى . وعلى الرغم من أن المسيحية كانت ديانة العامة في الإمبراطورية

الرومانية إلى حد كبير إلا أن الديانة المسيحية دخلت إلى عالم كان ناجحاً قبل مجيئها وله قوانينه الدنيوية ولغاته وحكومته وهيكله الاقتصادي . وبينما اهتم المسيحيون بحياتهم الشخصية والخلقية فإن مهمة تنظيم الكيان الاجتماعي كانت قد أنجزت قبل ذلك بوقت طويل والتي عبء القيام بها على أناس آخرين . وفي الواقع فإنه لم يكن للكنيسة على مدى ثلاثة أرواق الكثير لتقوله بصدد كيفية سير التاريخ . فلم يكن تنظيم سير العملية التاريخية داخلياً في برنامج المسيحية . وحتى بعد أن انتهى الاضطهاد وأصبح المسيحيون هم الذين يكونون المجتمع بعد أن كانوا أقلية تدافع عن نفسها في وجهه ، وعندما ما وصلوا إلى مواقع المسئولية والسلطة فإنهم تقبلوا النظام الاجتماعي القائم كما وجدوه . وقد احتفظوا به مع اعتباره شيئاً خارجاً عن عقيدتهم وكانوا يرون أن واجبهم ربما يستدعي تحسينه ولكنه لا يتطلب أبداً إحلال نظام جديد محله .

وبينما يعرض كانتوبل سميث لقبول المسيحية بالعلمانية عرضاً موضوعياً فإن كاتباً آخر هو كينيث كراج يدافع عن هذا الموقف المسيحي في مواجهة الطرح الشامل للإسلام ويحاول أن يوجد نظرية وراءه متأثراً كما تقول مريم جميلة بوظيفته كأحد كبار الموجهين للنشاط التبشيري في البلاد الإسلامية . وقد أصدر كينيث كراج كتاباً عنوانه نداء المئذنة عام ١٩٥٦ حلل فيه قبول العلمانية في المسيحية . وحسب تصوره فإن الكنيسة قد تحدد وضعها في العهد الجديد على أنها نظام

اجتماعى داخل المجتمع الكبير وأنها لا تمثل هذا المجتمع الكبير أو تتطابق معه . ويلاحظ هنا أنه يتحدث عن الكنيسة وليس عن الدين كعقيدة للجميع . ويقوم مفهوم الكنيسة على فكرة الخلاص التى تتضمن بدورها نظرة إلى الطبيعة البشرية باعتبارها خاطئة وخاضعة للهوى . وهكذا فهناك الإنسان الطبيعى بخطيئته واستعصائه على الهداية وهناك الإنسان الروحانى الذى حظى بالبعث والتجديد الروحى والعضو من خلال تجربة إيمانية تتسم بالطابع الشخصى وليس الاجتماعى وعلى هذا فالمسيحية (وننبه إلى أن الكاتب يعود ليتحدث هنا عن الدين نفسه بعد أن كان يتحدث عن الكنيسة) تكمن فى الناس أنفسهم وليس فى نظام اجتماعى أو ثقافى معين .

وترى المسيحية حسب رأى كراج أن مجتمع الناجين بقبول التصور المسيحى عن عيسى يقف داخل المجتمع البشرى الأوسع ولا يتوحد معه . وعلى هذا المجتمع الأوسع أو الدينوى (العلمانى) أن ينظم شئونه بحرية إذ لا يمكن أن تفرض عليه التشريعات والقوانين لإصلاحه وجعله يقبل بالمسيح . ومن هنا تنشأ النظرية المسيحية عن الانفصال بين الكنيسة والدولة . فمجتمع المؤمنين يقف متميزاً عن الآخرين وهو لا يريد قهرهم على الإيمان بالقوانين وهو يدرك أنه لن يكسبهم كلهم فى صفه . ومن هنا فإن المسيحية لا تطرح كعقيدة اجتماعية ذات تعبير سياسى . أما الإسلام بطرحه الشمولى فى مجالات السياسة والمجتمع

القانون فإنه يختلف عن المسيحية التى تسعى إلى الإقناع على المستوى الشخصى بدلاً من الفرض على المستوى الاجتماعى .

وتسخر الكاتبة من ادعاءات المبشر وتقول : إن التجربة التاريخية لحضها فقد هيمنت المسيحية كعقيدة على القارة الأوروبية لمدة تزيد على الألف عام وكانت لها حرية مطلقة فى العمل على بعث الإنسان الطبيعى الخاطئ وتحويله إلى إنسان روحانى وممارسة فضائلها فى الإقناع دون الفرض فما الذى حدث حقيقة طيلة هذه الحقبة الممتدة من الزمان ؟ إن فضائل الحرية والتسامح والمحبة قد اختفت لتحل محلها الاضطهادات الدينية وحرق الهراطقة ومحاكم التفتيش وإبادة الأقليات الدينية اليهودية والإسلام وإهدار حقوقها وعدم الاعتراف حتى بوجودها . وفى المقابل ازدهرت الأقليات الدينية تحت حكم الإسلام للشمولى المعتمد على القهر دون الإقناع بالإيمان كما يقول كراج . وتتساءل مريم جميلة : أين ذهب المسلمون فى صقلية وإسبانيا واليونان وما هو حالهم اليوم فى قبرص تحت حكم الأسقف مكارىوس ؟ وترى مريم أن تصورات كينيث كراج فى ابتعاد الكنيسة عن السياسة تهدف فى الحقيقة ليس إلى عرض لفكر الكنيسة والنظرية المسيحية فى هذا الصدد بل إلى تبرئة النصرانية عموماً من العداة التاريخى للإسلام ومن تحالفها مع قوى الاستبداد السياسى والقهر الاجتماعى فى البلدان المسيحية نفسها . وكتابات كراج الموجهة

وللمسلمين تسعى من ناحية إلى إقناعهم بالعلمانية أى تنحية دينهم عن الحياة كما تعمل من ناحية أخرى على الإيهام ببراءة المسيحية من تراث تاريخي مظلم بدأ منذ أن قرر الإمبراطور قسطنطين الإعلان عن المسيحية كدين الإمبراطورية الرومانية الرسمي . فالكنيسة لم تتعد عن التعبير السياسي بل انغمست فيه حتى النخاع ولم تترك العالم الدنيوى ينظم شئونه بحرية بل شاركت حركاته الاستثمارية وكانت عوناً لها . ومن أبرز التدخلات الكنسية فى الشؤون الدنيوية حركة التبشير التى يمثل كينيث كراج أحد قياداتها البارزة والتى عملت مثلاً فى أفريقيا على قلب نظام حكم «أوبوكر تفاوا باليوا فى نيجيريا» كحاكم مسلم وساعدت فيما أعقب ذلك من أعمال الفوضى وسفك الدماء والحرب الأهلية فى ذلك البلد صاحب الأغلبية المسلمة . وترى الكاتبة يد الكنائس وهيئات التبشير فى مذابح المسلمين العرب فى زنجبار وإبادة الأغلبية المسلمة فى إثيوبيا على يد الإمبراطور هيلاسيلاسى والتهليل لقيام الصهاينة باحتلال فلسطين وانتزاعها من أيدي المسلمين وطرد أهلها بما فيهم العرب المسيحيون . وهى تقتطف فقرات من كتابات أخرى للمبشر كراج نفسه يبدى فيها إعجابه بالحكومة الأناطورية الدكتاتورية التى أنهت الخلافة وفرضت القوانين العصرية محل الإسلام . وتتساءل معها : أين ذهب الإقناع الشخصى والتجربة الروحية وكراهية فرض القوانين لتغيير المجتمع ؟

وللمسلمين تسعى من ناحية إلى إقناعهم بالعلمانية أى تنحية دينهم عن الحياة كما تعمل من ناحية أخرى على الإيهام ببراءة المسيحية من تراث تاريخي مظلم بدأ منذ أن قرر الإمبراطور قسطنطين الإعلان عن المسيحية كدين الإمبراطورية الرومانية الرسمي . فالكنيسة لم تتعد عن التعبير السياسي بل انغمست فيه حتى النخاع ولم تترك العالم الدنيوى ينظم شئونه بحرية بل شاركت حركاته الاستثمارية وكانت عوناً لها . ومن أبرز التدخلات الكنسية فى الشؤون الدنيوية حركة التبشير التى يمثل كينيث كراج أحد قياداتها البارزة والتى عملت مثلاً فى أفريقيا على قلب نظام حكم «أوبوكر تفاوا باليوا فى نيجيريا» كحاكم مسلم وساعدت فيما أعقب ذلك من أعمال الفوضى وسفك الدماء والحرب الأهلية فى ذلك البلد صاحب الأغلبية المسلمة . وترى الكاتبة يد الكنائس وهيئات التبشير فى مذابح المسلمين العرب فى زنجبار وإبادة الأغلبية المسلمة فى إثيوبيا على يد الإمبراطور هيلاسيلاسى والتهليل لقيام الصهاينة باحتلال فلسطين وانتزاعها من أيدي المسلمين وطرد أهلها بما فيهم العرب المسيحيون . وهى تقتطف فقرات من كتابات أخرى للمبشر كراج نفسه يبدى فيها إعجابه بالحكومة الأناطورية الدكتاتورية التى أنهت الخلافة وفرضت القوانين العصرية محل الإسلام . وتتساءل معها : أين ذهب الإقناع الشخصى والتجربة الروحية وكراهية فرض القوانين لتغيير المجتمع ؟



إن أول ما يلفت النظر في أفكار كينيث كراج وفي أقوال القديس  
أغسطين المستشرق كانتويل سميث هو أن العلمانية (أى فصل الكنيسة  
عن الدولة) كانت خياراً للمسيحية نفسها ولم تفرض عليها من الخارج  
كما تسعى الآن قوى معينة لفرض المفاهيم والممارسات العلمانية على  
الإسلام . ولا ريب أن لغياب الشريعة والتعاليم والمناهج المفصلة في  
المسيحية بولس أثر في اتباع هذا النهج . كذلك فإن المسيحية كما أكد  
كانتويل سميث قد دخلت على عالم منظم بالفعل له أوضاعه الدنيوية  
ولم تكن هي الأخرى في وضع يسمح لها بإيجاد نظام جديد ومن هنا  
نشأ الوجود المتوازي بين الكنيسة والدولة .

ومن النقاط التي لا يلتفت إليها في هذه المسألة أن الفصل يدور بين  
الدولة والكنيسة وليس بين الدولة والدين . فهناك خلط معين في  
المفاهيم بين الدين كعقيدة يمكن لأى شخص أن يعتنقها ولو كان على  
رأس الدولة وبين الكنيسة كنظام اجتماعى خاص بالمسيحية . ومن الجلى  
أن كينيث كراج يغالط عندما يقول : أن المسيحية لا تطرح عقيدة  
اجتماعية ذات تعبير سياسى فمن المؤكد أن أى تصور عقيدى حتى ولو  
كان عن عقيدة الصلب والفداء والخلص سيكون له أثر على حياة  
معتقيه ويؤدى بالتالى إلى تغيرات اجتماعية وسياسية من حيث أن  
السياسة هي إدارة شئون المجتمع وفقاً لرؤية حياتية معينة . وقد كان  
للمسيحيين بالفعل تعبير سياسى عندما جعل منها الإمبراطور قسطنطين

الموارد الاقتصادية وفنون الإعلام وأساليب استمالة الجماهير الواسعة  
والسيطرة عليها واستخدام حركتها . إن المسيحية الغربية اليوم قوة كبرى  
متحركة على المسرح الدولى مهاجمة على المسرح الإسلامى ولا تختلف  
في أساليب عملها أو أهدافها عن قوى دولية أخرى كالشيوعية  
والصهيونية والرأسمالية . والمسيحية الساعية إلى السلطة السياسية في  
بولندا هي نفسها الغارقة في بحار السياسة في الفلبين شرقاً إلى بلدان  
أمريكا الجنوبية غرباً وهي ذات النفوذ المسموع في وسط وغرب وشرق  
القارة الأفريقية . وبابا روما يفوق في سلطاته وقوته والدعاية الإعلامية  
التي تصاحبه وتأثيره على الجماهير المسيحية أى زعيم دنيوى في القرن  
العشرين بما فيهم هتلر وستالين وماوتسى تنج .

ولكن إذا كانت الكاتبة قد فندت مفاهيم المبشر الغربى عن  
المسيحية والسياسة من وجهة نظر واحدة فإن القارئ لها يلحظ أنها  
أغفلت المناقشة النظرية لهذه الآراء ربما لأنها وجدت في الحجج التاريخية  
ما يعنى . ولا أظن أن بعض الملاحظات على أفكار كينيث كراج تخالف  
ما سعت إليه مريم جميلة . فهذه الأفكار نفسها هي التي يرددها الكثير  
من دعاة العلمانية بين المسلمين ناقلين عن المبشرين والمستشرقين الذين  
وضعوا بذرتها لإفساد الإسلام . وربما كان في التوسع في مناقشتها رداً  
ولو غير مباشر على تلاميذ المبشرين الطارحين لأنفسهم كمفكرين  
مستقلين .

كنيث كراج يلمح إلى التمايز والانفصال بين مجتمع إيماني روحاني  
ناهض وبين مجتمع خاطئ ساقط يترك لينظم شتونه بحرية ويكون كل  
يعمل الكنيسة معه اجتذاب أفراد منه إلى مجتمعها هي ولكنها لن  
تجتذب كامل أفرادها . ولكن ماذا يحدث إذا قام هذا المجتمع الديني  
بتنظيم شتونه على صورة تضر بالمجتمع الكنسي سواء من حيث حفظه أو  
معرفة انضمام الأفراد إليه أو محاصرته ومنع نشاطاته ؟ عندئذ يكون  
الخيار أمام الكنيسة بين الاستسلام والضياح أو الثورة والسيطرة على  
تزام الحكم . ويتضح من التجربة التاريخية أن وضع الفصل والتمايز  
هذا كان قلقاً على الدوام ومنتجاً للتوتر والتزاع والاشقاق في المجتمع  
وأنه كثيراً ما انتهى إلى الاتحاد والتعاون لاسيما في مواجهة الأخطار  
الكبرى الداخلية والخارجية كالإسلام مثلاً . نحن إذن لسنا أمام حل  
سعيد للأمور .

ونقف كذلك أمام مفهوم الكنيسة في المسيحية . فما هي الكنيسة ؟  
هل هي هيئة للدعوة ونشر العقيدة وتعليمها وحفظها وأداء الشعائر أم  
أن لها وظائف مقدسة لا يكتمل الدين إلا بها كالقيام بأسرار العباد  
وعشاء الرب والاعتراف ؟ وإذا كانت الكنيسة كما يعرفها كراج هي  
المسيحية وهي المجتمع الإيماني فإن ذلك يعني أن من يكون خارجها هو  
المجتمع غير المؤمن والخاطئ وعلى رأسه الدولة الدنيوية . وعلى حسب  
هذا الفهم تكون الكنيسة محقة في طلب الفصل عن الدولة غير المؤمنة

عقيدة الإمبراطورية الرومانية الرسمية لتكون لذلك عامل إنفاذ لهذه  
الدولة من التفكك . وكراج يغالط كذلك حين يقول : إن المسيحية  
تكن في الناس أنفسهم وليس في نظام اجتماعي أو ثقافي معين . فهو في  
نفس السياق يصف الكنيسة بأنها نظام اجتماعي معين وهي نفس  
الكنيسة التي يجعلها التعبير المادي عن الدين . كما أن الناس (أيا كانوا)  
يخلقون نظاماً اجتماعياً وثقافياً بالضرورة وبمجرد ممارستهم لحياتهم  
العادية . ومن التعسف الفصل بين ما يسميه كراج الناس أنفسهم وبين  
النظام الاجتماعي والثقافي الذي يقيمونه على ضوء إيمانهم الديني حتى  
ولو كان هذا الإيمان يبدو بعيداً عن شئون الدنيا كعقيدة المسيحية .

ويخطيء كراج كذلك عندما يتحدث عن عملية  
الإيمان والتحول من الإنسان الطبيعي الخاطئ إلى الإنسان الروحاني  
القابل لتضحية عيسى المزعومة على أنها عملية شخصية وليست  
اجتماعية . فن المؤكد أن هذه العملية تحدث في بيئة اجتماعية يمكن أن  
تسهلها إذا كانت بيئة إيمانية أو تعرقها إذا كانت بيئة كفرية . كما أنها  
تحدث عن طريق الدعوة أو التلقي من مؤسسة يصفها كراج نفسه بأنها  
اجتماعية وهي الكنيسة . وإذا تمت فإن لها آثاراً اجتماعية ممتدة في السلوك  
والانضمام إلى مجتمع الكنيسة الواقف بمواجهة أو موازاة المجتمع العلماني  
أو الديني .

وبينا يلمح القديس أغسطين إلى التوازي بين الكنيسة والدولة فإن

التي تعيش وسط مجال نفوذها . ويكون طلب الفصل حينئذ حيلة ذكية لضمان النجاة من تأثير الدولة السيئ مع التمتع في نفس الوقت بالخدمات والمزايا التي تضمنها لرعاياها مثل الأمن . وفي هذا الموقف الذي يجمع بين المفصلة والمعاشة خدعة وانتهازية تنتهز فرصة ضعف الدولة للتسلل إليها والتحكم فيها . وتكون الكنيسة في ظل هذا النظام بمثابة دولة داخل الدولة لها كيائها ومبانيها ومؤسساتها التعليمية أو الاجتماعية وهيكلها الإداري والقيادي ذي الشكل الهرمي (الكهنوت) ورئيسها ورعاياها الذين يوالونها بقلوبهم بينما يخضعون جسدياً فقط لسلطة الدولة الزمنية وهم يعلمون أن الروح أهم من الجسد حسب عقيدتهم .

وهنا نذكر أن المسيحية أو واضعها الأول على غير هدى عيسى عليه السلام هم الذين اختاروا نظام الفصل بين الكنيسة والدولة وكأنهم كانوا بذلك يغطون على ضعف موقفهم لإسقاط الشريعة والمنهج الإلهي المفصل ويحاولون في نفس الوقت الحفاظ على العقيدة اللاهوتية المعقدة التي وضعوها بتكريسها في نظام يقف بموازاة الدولة التي عجزوا عن الوصول إليها إما لضعفهم أو لعدم وجود منهج اجتماعي لديهم . كانت العلمانية إذن هي الحل الذي تمخض عنه موقف تاريخي معين خاص بالمسيحية وبأوضاعها الفكرية ومفاهيمها عن الدين والعقيدة بل واستخدامها للمصطلحات .

أما الإسلام فهو مختلف إلى حد يجعل مجرد تطبيق النظرة العلمانية عليه إسقاطاً كاملاً للموضوعية العلمية . فلسنا في الإسلام نواجه ديناً يحصر عقيدته في التجسد والفداء والصلب والقيامه .. الخ . وإنما نواجه ديناً يطرح على المؤمنين به منهجاً حياتياً شاملاً يطبقونه كعلامة على الإيمان ونتيجة له . وهو منهج لا يتألف من الأسرار الكهنوتية وإنما من المبادئ المقبولة عقلاً القابلة للتفصيل والتوسيع والامتداد على يد الإنسان المستنير بالأصول العامة . والمجتمع الإيمانى في الإسلام لا يشكل كنيسة وإنما يكون دولة تمارس فيها الحياة الإسلامية متكاملة للجوانب وتكون قدوة للغير وحافزاً لهم على الإيمان بنجاح تجربتها . والإسلام لا يفصل بين روح وجسد كما فعلت المسيحية مستندة إلى الفلسفة اليونانية أو بعض مدارسها . فن الواضح في الحياة الدنيا أن هذا الفصل عقيم إذا أصر عليه خارج نطاق الدراسة العلمية الطيبة أو النفسية مثلاً وهو حتى غير مطلق داخل هذه الدراسات نفسها . والإسلام لا يطبق شريعته أو قوانينه بغرض فرض الإيمان بدون إقناع لهذه القوانين تطبق على مجتمع مؤمن . وليس غرض تطبيقها قسر الناس على الفضيلة وإنما الإعلان عن هوية المجتمع وخلق بيئة إيمانية صالحة ومواتية لنمو الإيمان وتعميقه في النفوس وتقليل فرص الغواية والانحراف وإيجاد مجتمع يسعد البشر أكثر ما يمكن في هذه الدنيا حسب مفهوم الإسلام للسعادة وللإنسانية أيضاً .

التي تعيش وسط مجال نفوذها . ويكون طلب الفصل حينئذ حيلة ذكية لضمان النجاة من تأثير الدولة السيئ مع التمتع في نفس الوقت بالخدمات والمزايا التي تضمنها لرعاياها مثل الأمن . وفي هذا الموقف الذي يجمع بين المفاصلة والمعايشة خدعة وانتهازية تنتهز فرصة ضعف الدولة للتسلل إليها والتحكم فيها . وتكون الكنيسة في ظل هذا النظام بمثابة دولة داخل الدولة لها كيائها ومبانيها ومؤسساتها التعليمية أو الاجتماعية وهيكلها الإداري والقيادي ذي الشكل الهرمي (الكهنوت) ورئيسها ورعاياها الذين يوالونها بقلوبهم بينما يخضعون جسدياً فقط لسلطة الدولة الزمنية وهم يعلمون أن الروح أهم من الجسد حسب عقيدتهم .

وهنا نذكر أن المسيحية أو واضعها الأول على غير هدى عيسى عليه السلام هم الذين اختاروا نظام الفصل بين الكنيسة والدولة وكأنهم كانوا بذلك يغطون على ضعف موقفهم لإسقاط الشريعة والمنهج الإلهي المفصل ويحاولون في نفس الوقت الحفاظ على العقيدة اللاهوتية المعقدة التي وضعوها بتكريسها في نظام يقف بموازاة الدولة التي عجزوا عن الوصول إليها إما لضعفهم أو لعدم وجود منهج اجتماعي لديهم . كانت العلمانية إذن هي الحل الذي تمخض عنه موقف تاريخي معين خاص بالمسيحية وبأوضاعها الفكرية ومفاهيمها عن الدين والعقيدة بل واستخدامها للمصطلحات .

أما الإسلام فهو مختلف إلى حد يجعل مجرد تطبيق النظرة العلمانية عليه إسقاطاً كاملاً للموضوعية العلمية . فلنسا في الإسلام نواجه ديناً يحصر عقيدته في التجسد والفداء والصلب والقيامة .. إلخ . وإنما نواجه ديناً يطرح على المؤمنين به منهجاً حياتياً شاملاً يطبقونه كعلامة على الإيمان ونتيجة له . وهو منهج لا يتألف من الأسرار الكهنوتية وإنما من المبادئ المقبولة عقلاً القابلة للتفصيل والتوسيع والامتداد على يد إنسان المستنير بالأصول العامة . والمجتمع الإيماني في الإسلام لا يشكل كنيسة وإنما يكون دولة تمارس فيها الحياة الإسلامية متكاملة للجوانب وتكون قدوة للغير وحافزاً لهم على الإيمان بنجاح تجربتها . والإسلام لا يفصل بين روح وجسد كما فعلت المسيحية مستندة إلى الفلسفة اليونانية أو بعض مدارسها . فمن الواضح في الحياة الدنيا أن هذا الفصل عقيم إذا أصر عليه خارج نطاق الدراسة العلمية الطيبة أو النفسية مثلاً وهو حتى غير مطلق داخل هذه الدراسات نفسها . والإسلام لا يطبق شريعته أو قوانينه بغرض فرض الإيمان بدون إقناع لهذه القوانين تطبيق على مجتمع مؤمن . وليس غرض تطبيقها قسر الناس على الفضيلة وإنما الإعلان عن هوية المجتمع وخلق بيئة إيمانية صالحة ومواتية لنمو الإيمان وتعميقه في النفوس وتقليل فرص الغواية والانحراف وإيجاد مجتمع يسعد البشر أكثر مما يمكن في هذه الدنيا حسب مفهوم الإسلام للسعادة وللإنسانية أيضاً .

والفارق بين الإسلام والمسيحية في هذا الميدان هو أن افتقار المسيحية إلى المنهج الحياتي كان نقطة الضعف التي أدت بها إلى العجز عن تكوين مجتمع متكامل ولذلك حصرت مجال انطباقها في ناحية أُسميت الروحية أو الدينية وترك باقي مدى الحياة البشرية للسلطات القائمة تديره وأطلق عليها اسم النبوية أو العلمانية (أى المتعلقة بالعالم) . ولكي يحمى الآباء الأول المجال الروحي الضيق الذى حددوه لأنفسهم كان الإصرار على تقنينه في مؤسسة مادية هى الكنيسة التى أُسندت إليها وظائف دينية لا تؤدى خارجها ولا يقوم بها غير الكهوت وذلك إمعاناً في تخصيصها من الدوبان في دنيا النشاط الإنساني الواسع خارجها . وفي نطاق هذا التحصين وضع مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة بحجة أن الأولى لها مجال الآخرة والثانية لها مجال الدنيا . وهكذا خلقت في المجتمع سلطتان وكيانان يتنازعان ولاء الأفراد وتوجد بينها احتلالات وإمكانات الشقاق والصراع . أما في الإسلام فقد تطور المجتمع الإيماني مباشرة ومنذ عهد النبوة إلى كيان متكامل له تعبير سياسى وعسكرى واجتماعى واقتصادى ومؤسسى وفق تصورات نابعة من الشريعة والمفاهيم الإسلامية الواردة في القرآن والسنة . ومن هنا لم يكن هناك كنيسة ودولة بل مجرد دولة وكيان يقيمه المؤمنون . ولم تقم كنيسة لأنه ليس في الإسلام أسرار معقدة لا يؤديها إلا الكهوت كما أن المؤسسات العلمية والتعليمية في الإسلام لم تتحول أبداً إلى كيان مناقض

للدولة . وحتى عندما كان العلماء يعارضون الحكام أو تقمعهم الدولة فإن ذلك كان يتم في إطار مؤسسة للدولة وليس في إطار صراع بين كنيسة ودولة . والدولة في الإسلام دينية بهذا المعنى أى لأنها دولة يقيمها المسلمون وفق منهج حدده لهم دينهم .

ومن هنا فإن الحديث الذى يروجه العلمانيون الآن بتشجيع من أعداء الإسلام عن فصل الدين عن الدولة يراد به قتل الدين ذاته لأنه لم يجد له تعبيراً دينياً إلا من خلال الدولة . فليس في الإسلام كنيسة يرتد إليها إذا فصل عن الدولة والمؤسسات الذى اصطلح على تسميتها بالدينية (كالأزهر) ليست إلا معاهد تعليمية وهى لا تفارق من حيث الإمكانيات أو التنظيم أو الوظيفة أو التاريخ بنظام الكنيسة كما عرفته المسيحية . إن الإسلام إذا فصل عن الدولة كما حدث في كل بلاد المسلمين في العصر الحديث يفقد وجوده ذاته من حيث ضياع شريعته ومنهجه الحياتي ووحدة أتباعه والمؤسسات العسكرية والاجتماعية والتعليمية التى يتجسد خلالها ولا يتبقى منه إلا عقيدة في نفوس الأفراد تذوب وتذوى تحت تأثير البيئة اللادينية المعادية . أى أنه يتحول إلى مسيحية بدون كنيسة .

وهكذا فإن دعوة العلمانية التى نشأت في صميم المسيحية تنقل مجدافيرها إلى الإسلام وتطرح على أنها نتاج الفكر الإنساني المنحصر الحديث أى الفكر الغربى منذ العصور الوسطى . ويجرى ذلك دون أى

## تفريط وإفراط

كان من أهم عقايل الاتجاه العلماني للكنيسة وابتعادها عن المشاكل الاجتماعية والسياسية بحدوث آثار مدمرة على الكنيسة نفسها حسبما ترى مريم جميلة . وتركزت هذه الأضرار في اتجاهين رئيسيين أولهما وأشهرهما : فساد البابوية وانغماسها في الماديات ومتع الحياة والمؤامرات الدنيئة . وقد وصل بابوات العصور الوسطى إلى أسفل درك من الانحطاط من جراء الاستسلام لمغريات السلطة الواسعة التي كانت لهم على القارة الأوروبية بأسرها تقريبا .

وتتركنا الكاتبة نتابع بعض مشاهد من ذلك التاريخ المؤلم بعد أن أشارت بأصبع الاتهام إلى من جردوا المسيحية من الشريعة والهدى الإلهي والمنهج الحياتي وأحالوها إلى دين لاهوتي لا علاقة له بشئون الحياة ولا يحدد لأتباعه أو رؤسائه الطريق .

وصل البابا بولس الأول إلى المنصب عام ٧٥٧ وبعد وفاته أجبر دوق نبي بعض الأساقفة على تكريس قسطنطين وهو شقيقه غير الشرعي لمنصب البابوية . ولكن اجتمع أساقفة آخرون عام ٧٦٨ وأنتخبوا ستيفن الرابع للمنصب وعوقب قسطنطين بفقه عينيه كما قطع لسان أحد الأساقفة الذين انتخبوه وترك ليموت في جب من العطش . وفي عام ٧٩٥ ألقى ابن عم البابا أدريان القبض على البابا ليو الثالث الذي خلف ستيفن الرابع وذهب به إلى كنيسة حيث فقأ عينيه وقطع

بحث للمصطلحات والتعريفات إلى حد أن مصطلح العلمانية نفسه الذي ينطق بفتح العين واللام ينطق عمداً بكسر العين وسكون اللام كي يفهم الناس منه خطأ أنه يعنى العلم ويتقبلونه ويطالبون به نظراً لأن العلم هو من أحسن القيم في الإسلام نفسه . وحقيقة المصطلح أنه يعنى «العالم» وليس العلم أى الدنيا والاتجاه الدنيوى . وينسى دعاة هذا الاتجاه أو يتناسون كل تلك النقاط التي حاولنا الإشارة إليها .

ولم أكن أهداف هنا سوى إلى التوكيد على أن أسلوب مناقشة وطرح دعوة العلمانية يوحى بالعديد من الشبهات وأن طرحها من خلال شعارات جذابة وكاذبة عن العلم والمساواة والحرية والتقدم إنما هو خدعة قصد بها إخفاء الحقائق . وربما كان من أفضل ما قدمته لنا مريم جميلة في هذا الشأن إلقاء الضوء على حقائق أغفلت عمداً عند الحديث عن العلمانية وهي حقائق تستحق البحث وتحفز على الدرس المتكامل والتفصيل الموضوعى العلمى للدعوة اللا دينية بصورة أكثر تعمقاً من الملاحظات المتناثرة التي حاولت بها أن أكمل تعليقات الكاتبة وأن أثير التساؤلات أكثر من أن أقدم بحثاً منظماً مستوفياً في هذه القضية .

مبراطور أوتو الأول إلى التدخل . وعقد مجمع مقدس محاكمة يوحنا  
في عشر وتبين من الجلسات أنه كان يتلقي رشاً لتركيس الأساقفة  
نصب أسقف لا يتجاوز سنه العاشرة بينما أقام إحتفال سيامة لآخر  
حظيرة للخيل . واتهم البابا كذلك بالزنا مع محظية لأبيه وبارتكاب  
مأحشة مرات لا تعد . وكان معروفاً بالانحراف في الشراب والمقامرة  
لقسم بالآلهة الوثنية . وعندما طلب منه المثول أمام المجمع أبلغهم أنه  
ارج للصيد . وبعد عزله خلفه البابا ليو الثامن عام ٩٦٣ الذي حاكم  
نصومه ومثل بهم إلا أن حياته انتهت على يد رجل كان قد غر  
زوجته .

ولا تمثل انحرافات البابوات على خطورتها جرائم عادية تمت  
بالاستسلام للبواعث النفسية الشريرة . فهؤلاء الرجال كان يفترض  
أنهم معصومون من الخطأ ومهتدون بالروح القدس وأنهم امتداد  
للقديس بولس فضلاً عن كونهم قادة المسيحية الغربية . وترى مريم  
جميلة أن هذه الانحرافات التي استمرت ترى بعد تلك الأمثلة التي  
ذكرناها أدت إلى حدوث ردود فعل عنيفة تشكل الاتجاه الرئيسي  
الثاني الذي أثر على المسيحية ونعني به الاتجاه إلى الرهبة والتنسك  
والبعد عن الحياة الفاسدة المعرقة في المادية .

وقد كان في المسيحية منذ بدايتها اتجاه قوى إلى النزعة الرهبانية عبر  
عنه القديس بولس في موقفه من الزواج . فهو لم يحث على الزواج أو

لسانه وحل مكانه في المنصب . وتم أكثر من مائة سنة في مؤامرات  
متبادلة بين الطامعين في البابوية وكان كل من يصل منهم إلى مبتغاه  
يحاكم خصومه ويحكم عليهم بالموت . وخلال أربعة أعوام فقط من  
١٩٦ إلى ٩٠٠ وصل إلى المنصب أربعة بابوات وعزلوا .

ونصل إلى عام ٩٠٤ لنجد صورة أخرى من الفساد . ففي ذلك  
العام وصل الباب سرجيوس الثالث إلى منصب الخبر الأعظم بالقوة  
المسلحة . وقد كان للعاهرة ثيودورا سيئة الصيت وابتها وهما أيضاً  
عاهرتان تأثير كبير عليه . وكانت ثيودورا تعشق أيضاً أحد الأساقفة  
وساعدته بنفوذها إلى الوصول للبابوية عام ٩١٥ باسم يوحنا العاشر .  
وتمكن هذا البابا من الثبات في منصبه لمدة أربعة عشر عاماً بفضل  
مساندة ثيودورا له لكنه فقد مكانه وأطيح به عندما تأمرت عليه ابنتها  
ماروزيا بعد أن حنقت عليه لأنها فاجأته في القصر البابوي في وضع  
مخل مع ابنة أخيه . وفي عام ٩٣١ أوصلت ماروزيا ابنها غير الشرعي  
إلى البابوية تحت اسم يوحنا الحادي عشر . لكن أحد أبنائها الآخرين  
من الحرام شعر بالغيرة فألقى القبض على أمه وشقيقه ووضعها في السجن  
وجلس على المقعد البابوي . كذلك انتخب ابنه غير الشرعي للبابوية  
عام ٩٥٦ باسم يوحنا الثاني عشر وكان عمره في ذلك الوقت ثلاثة عشر  
عاماً .

واشتهرت فضائح هذا البابا الأخير إلى حد أن الشعب الألماني دفع

القديس مكاريوس في الاسكندرية مثلاً على الإقامة في مستنقع لمدة  
سنة أشهر معرضاً نفسه للدغات الحشرات السامة وكان معتاداً على أن  
يحمل ثمانين رطلاً من الحديد . أما تلميذه سيبوس فقد كان يحمل مئة  
وخمسين رطلاً من الحديد وعاش ثلاث سنوات في بئر جافة . وكان  
بعض النساك يلجأ ملابسه ويزحف على يديه وقدميه لا يغطيه سوى  
شعره الطويل بينما فضل البعض الآخر الإقامة وسط المقابر أو في أوكار  
الحيوانات المفترسة . وكانت نظافة الجسد تعتبر عندهم تلويناً للروح  
وحظي أقلهم نظافة بأكبر قدر من الإعجاب . ويتحدث القديس  
أثناسيوس بإعجاب عن أن القديس أنطوني لم يذنب أبداً بغسل  
قدميه . وكان الرهبان يعتادون التجوال من مكان إلى آخر ويحتذون  
الأطفال ليجندوهم في أديرتهم . وأدى هذا الأمر وغيره من ممارسات  
الرهانية إلى آثار ضارة على الروابط العائلية لاسيما وأنهم كانوا  
لا يطبقون البقاء في ظل امرأة وكانت خطيئة عندهم أن يتحدث المرء  
مع أخته أو زوجته أو والدته . وتحرص الكاتبة على تأكيد موقف السنة  
النبوية المطهرة من الحث على الزواج وتعقب على هذا الاتجاه الرهباني  
في المسيحية بالآية الكريمة : «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا  
ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها» (سورة الحديد ، ٢٧) .

وإذا كان فساد أو تفريط البابوية وخطاياها قد جرت في ظل  
مؤسسة القيادة في العالم المسيحي فإن إفراط الرهبانية كان يتم من خلال

يرحب به وإنما أذن فيه ورخص به فقط كوسيلة لمنع الوقوع في  
الخطيئة . وتنقل عنه الكاتبة قوله : أتمنى أن لا يتزوج الرجال كما فعلت  
أنا . وأقول إلى العزاب والأرامل : إنه من الأفضل لهم أن يبقوا فرادى  
مثلي . ويتفق هذا الموقف مع اتجاهات الرهبنة البوذية والهندوكية لكنه  
يختلف عن الرأي الواضح في قضية الزواج ورفض الرهبنة التي ابتدعتها  
النصارى ولم تكتب عليهم ومع ذلك فلم يوفوها حقها كما يخبر القرآن .

وقد وجدت هذه الروح التعبير عنها في حركة الرهبنة ونشاط  
الأديرة التي كان لها أكبر الأثر على المسيحية الشرقية والغربية طوال  
تاريخها وكانت في بعض المراحل تمثل كما قلنا رد الفعل على فساد  
السلطات الدينية العليا . وتعرض مريم جميلة لمتابعة الرهبانية المسيحية  
بالعديد من التفاصيل تنقل بعضها من «أبوالحسن الندوي» في كتابه  
عن الإسلام والعالم . وهو يقول : إن عدد الرهبان في مصر في القرن  
الرابع الميلادي كان يساوي عدد سكان المدن فيها كما أن عدد الرهبان  
في بعض أديرة أوروبا خلال القرن كان يصل إلى حوالي خمسة آلاف  
راهب في الدير الواحد . وكان يتبع القديس سيرافيم مثلاً عشرة آلاف  
راهب . ولاشك أن هذه أعداد كبيرة بالنظر إلى حركة يفترض أنها  
لا تنضم إلا المستعدين بالفطرة لحياة العزلة والتأمل وممارسة السمو  
الروحي بالتعب وترويض النفس وهم بطبيعة الحال قلة بين البشر .

وقد أقبل العديد من الرهبان على ممارسات متشددة . إذ أقدم



همه ومركزها الأصلي إيطاليا . وقد اشترك في إحدى الحملات الصليبية . ويختلف توماس الأكويني عن الآخرين في أن اسمه لم يرتبط بحركة رهبانية بل بدراسة أعمال الفيلسوف اليوناني أرسطو وقد بعض المرافقات المتمثلة في فلسفة ابن رشد . وأشهر أعماله على الإطلاق كتاب «ذروة اللاهوت» . أما القديس أغناطيوس فهو أسباني وكان من بين الموحاته أن يذهب بجامعة رهبانية إلى القدس حيث إنقاذ النفوس في بلاد الكافرة (المسلمة) لم يستطع إكمال هذه المهمة . وعرفت جامعتهم باسم الجيزويت (جماعة المسيح) . وكان العدل اليدوي والبحث الدراسي يمتلآن نشاطات هامة للعديد من هذه الحركات بجانب التعبد ونشر الدعوة المسيحية .

وتلجأ مرهم جميلة إلى «أبو الأعلى المودودي» لتشير إلى تحليله لظاهرة الرهبنة في المسيحية وامتدادها في الإسلام عند بعض الطرق الصوفية . ويرى المودودي أن هناك فكرة تكمن وراء اتجاه الرهبنة والزهد تقول بأن العالم والجسد هي وسائل لتعذيب الإنسان والروح المحبوسة داخل قفصها (الجسد) . وما المتع والملاذات وحاجات الإنسان الأخرى إلا القيود والأغلال داخل هذا السجن . وكلما اشتغل الإنسان بتحصيل هذه المتع أو الاحتياجات كلما ازداد تلوثه واستحق العذاب . والمهرب الوحيد من سجن الجسد هو الهروب من الدنيا وقمع الرغبات . وفي مقابل هذه النظرة نجد التصوير الإلهي للدنيا والكون كمكان للعمل

الأديرة وحركات الرهبان التي كان لها شهرتها الواسعة داخل وخارج أوروبا . ونجد أن أبرز من أثاروا في هذه الحركات كان القديس أغسطين الذي اعتنق المسيحية في سن الثانية والثلاثين ورسم كاهنا عام ٣٩١ وأمضى بقية عمره في الكتابة والحث على تكوين الأديرة . وأشهر أعماله في مجال الرهبنة عظمان وخطاب مطول إلى جماعة من الراهبات قام بتنظيمهن . وتمثل هذه الكتابات أسس العديد من تجمعات الرهبان والنسك والراهبات . وتشتهر كذلك في الحركة الرهبانية أسماء القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٤٧) والقديس دومينيك (١١٧٠ - ١٢٢١) والقديس فرانسيس الأسيزي (١١٨١ - ١٢٢٦) والقديس توماس الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٤٧) والقديس إغناطيوس لوبولا (١٤٩١ - ١٥٥٦) .

ولكل قديس من هؤلاء سمات مميزة . فالقديس بندكت هو مؤسس الرهبانية الغربية في دير مونت كاسينو أشهر أديرة العالم . وقد أثرت القواعد التي وضعها للنسك في الحياة الدينية الأوروبية لقرون عديدة . وقد حاول أن يخفف من التشدد الذي اتصفت به الرهبانية المصرية لكي لا ينفر المقدمين على حياة الزهد . أما القديس دومينيك فهو مؤسس الجماعة المشهورة المشتقة من اسم (الدومينيكان) وقد أقامها في جنوب فرنسا . ومن أبرز تعاليمه ضبط النفس والسيطرة على شهواتها . والقديس فرانسيس كذلك مؤسس لجماعة مشهورة تحمل

رؤية العصمة مما يبيح لمذمعيها ارتكاب الخطايا دون عقاب في زعمهم .

ولاشك في أن تحليلات « أبو الأعلى المودودي » لعقلية الرهبنة والتزهد صائبة . لكننا نذكر أن الطرق الصوفية في الإسلام مثلاً كان لها باع طويل في التاريخ الحديث والقديم في الجهاد ضد الاستعمار والغزو الأجنبي وفي نشر الإسلام في مناطق واسعة من القارة الأفريقية مثلاً على يد السنوسية والمهدية وطرق المغرب الأقصى . ولازلنا نذكر كفاح المهدي في السودان والملا في الصومال . وإذا نظرنا إلى العالم اليوم نجد أن الطريقة النقشبندية تقوم بدور بطولي في مواجهة الدعاية الإلحادية السوفيتية في بعض جمهوريات آسيا الصغرى من خلال ممارساتها التعبدية في الزوايا ونشر الإيمان الإسلامي . كذلك فإن حركات الرهبنة الغربية تحولت في العصر الحديث إلى مراكز للبحث العلمي والدراسة والتبشير والعمل الإجتماعي .

أما البابوية التي شهدنا فيما سبق طرفاً مما آل إليه مصيرها في القرن العاشر الميلادي فقد تحولت في العصر الراهن إلى مؤسسة أشبه بما كانت عليه الخلافة في عصور الإسلام الزاهية . فهي القيادة الفعلية (روحياً ودينيّاً) لمئات الملايين من المسيحيين . وهي مركز الثقل والتوجيه والوحدة بينهم عبر صراعات المذاهب والقوميات التي خلفتها العلمانية في الغرب . وهي المصدر الذي تنطلق منه دعوة الوحدة بين الكنائس

والنشاط والاختبار والاعداد للآخرة . لكن رؤية الرهبنة تعتبر العالم مباءة للفساد ألقي الإنسان فيها وعليه أن يرفضها ويهجرها بتجنب المسؤوليات . وهي تعتبر العبادات وسيلة إلى التكفير عن الذنوب وليس عوامل لإصلاح الدنيا وإعداد الإنسان لتحمل مهمة خلافة الله في الأرض .

ويقول المودودي : إن الرهبانية والعزلة عن العالم تخدم الإلحاد من حيث أنها تظن أنها تمثل عمق الإيمان وذلك لأنها تعمل على إبعاد الخيرين والأتقياء عن النشاطات الدنيوية وتؤدي بهم إلى الاعتكاف تاركين الدنيا مسرحاً للقوى الشيطانية تديرها كيفما شاءت وتبعث بها بينا ينشغل المؤمنون بتحقيق خلاصهم الفردي . كذلك فإن الاتجاهات الرهبانية تؤدي عندما تشيع بين العامة إلى إفشاء روح التواكل والنظرة التشاؤمية للعالم مما يجعل الجاهير فريسة سهلة في أيدي الطغاة . ولهذا السبب يرى المودودي أن القوى الحاكمة ورؤساء الأديان كانوا على مر التاريخ من محبذى الحركات الرهبانية أو الصوفية . ويقول : إنه لا يوجد أي سجل تاريخي لصراع نشب بين الرأسمالية أو الاستعمار أو البابوية وبين رؤية أو عقلية الرهبانية . وهو يعبر عن اعتقاده بأن فلسفة الزهد والرهبانية مناقضة للطبيعة البشرية بما يؤدي إلى صراع وتوتر ينجم عنها أحياناً أفكار مشوشة كمثل مثلاً المتعلقة بالسمو الروحاني إلى

## الألوهية في العقيدة المسيحية

بعد جولتها التاريخية في تطورات المسيحية الغربية تعود مريم جميلة لبحث جوانب من العقيدة الكنسية . وهي تؤكد على ما ذكرته من قبل بشأن تغلغل الوثنية في هذه العقائد لاسيما ما كان منها مناقضاً بشدة للمفاهيم الإسلامية . وتختار للبدء في تناولها للموضوع فكرة الألوهية في المسيحية . وتسعى لإبراز وشرح هذه الفكرة من خلال تصورات الكنائس نفسها دون أن تتدخل برأى قد يفسد موضوعية العرض . تعتمد مريم في تقديمها لفكرة الألوهية المسيحية على كتاب بعنوان «فهم الإيمان الكاثوليكي» . وربما كان الدافع وراء ذلك أن العقيدة الكاثوليكية تنتشر بين أكثرية المسيحيين في العالم . ويعرض الكتاب لنواحي الإيمان في هيئة أسئلة وأجوبة حسب ما جرت عليه العادة الكنسية المعروفة باسم الكاتاكيزم أو تلقين العقيدة . ونجد صلب هذه العقيدة في العبارات الآتية : أو من بالإله ، الأب القدير خالق السموات والأرض وبعيسى المسيح ابنه الوحيد وإلهنا الذي أنجبه الروح القدس وولد من العذراء مريم وتعذب في حكم بونتوس البيلاطى وصلب ومات ودفن . ونزل إلى الجحيم ثم قام ثانية من الأموات في اليوم الثالث . وصعد إلى السماء حيث يجلس على يمين الإله الأب القدير . ومن هناك سيأتي كى يحاسب الأحياء والأموات . وأؤمن بالروح القدس والكنيسة الكاثوليكية المقدسة .

الشرقية والغربية بعد طول فراق وشقاق وفي وقت تبرز فيه بين المسلمين دعاوى النزاع والتشتت بحجج واهية غابرة كخلاف بين مذهب سني وآخر شيعي أو نتيجة لتوزيعهم بين عشرات من الاتجاهات المختلفة الأسماء المتوحدة المصدر في العلمانية والإلحاد .

لكن هذه الاعتبارات لا تلغى الصورة التي رسمتها مريم جميلة لآثار انعدام الشريعة والهدى الإلهي في المسيحية على قبول هذا الدين بالعلمانية وعلى تطوره تاريخياً في اتجاهات تجمع ما بين تفریط وإفراط ، ما بين انغماس في الشهوات والإجرام عند القيادات وما بين رهبانية متشددة عند قطاعات من الجماهير . وهنا تبرز وسطية الإسلام وتوازنااته الملائمة للفطرة الإنسانية .

وتبدأ الأسئلة والأجوبة بعد ذلك لإيضاح جوانب العقيدة : هل هناك إله واحد ؟ نعم هناك إله واحد . كم شخصاً (أقنوما) يوجد في الإله ؟ يوجد في الإله ثلاثة أشخاص مقدسة ، الأب والابن والروح القدس . ولا يستطيع العقل البشرى بدون مساعدة الوحي الإلهي أن يعرف بوجود الثالوث المبارك لأنه سر غيب . وحتى بعد أن كشف الإله عن وجود الثالوث المبارك فإننا لا نستطيع فهمه . وعندما تؤمن بكلام الإله عن أن هناك ثلاثة أشخاص في إله واحد فإننا لا نعتقد أن ثلاثة أشخاص يكونون شخصاً واحداً أو أن ثلاثة آلهة هم إله واحد لأن ذلك سيكون تناقضاً .

وهل الأب إله ؟ إن الأب هو الإله والشخص الأول من الثالوث المبارك . والشخص الأول من الثالوث المبارك يدعى الأب لأنه منذ الأزل يلد الشخص الثاني ابنه الوحيد المولود . والإله الأب يدعى بالشخص الأول ليس لأنه أكبر أو أكثر عمراً من الشخصين الآخرين وإنما لأنه لم يولد . وهل الابن إله ؟ إن الابن هو الإله والشخص الثاني من الثالوث المبارك . والشخص الثاني من الثالوث المبارك يدعى بالابن لأنه منذ الأزل هو الابن الوحيد المولود من الأب . وهو ينبثق من الأب ويدعى الكلمة الإلهية أو حكمة الأب . وهل الروح القدس إله ؟ إن الروح القدس هو الإله وهو الشخص الثالث من الثالوث المبارك . والشخص الثالث من الثالوث المبارك يدعى بالروح القدس لأنه منذ

الأزل قد اطلق من نفس الأب والابن . وهو مشتق منها ويدعى بمنحة الحب من الأب والابن .

وما الذي نعنيه بالثالوث المبارك ؟ نعني به نفس الإله الواحد في ثلاثة أشخاص إلهيين . وهل الثلاثة أشخاص الإلهيين يتمييزون عن بعضهم البعض ؟ إن الثلاثة أشخاص الإلهيين يتمييزون بكامل عن بعضهم البعض . وعلى الرغم من أن الأب والابن والروح القدس هم ثلاثة أشخاص متمييزون إلا أنهم غير متمييزين في طبيعتهم الإلهية . وهم الثلاثة أشخاص الإلهيين متكافئون تمام التكافؤ مع بعضهم البعض ؟ إن الثلاثة أشخاص الإلهيين متكافئون تمام التكافؤ مع بعضهم البعض لأنهم نفس الإله . ولا يسبق أحدهم الآخر في الزمن أو القدرة وإنما هم جميعاً أزليون وقادرون لأن لهم نفس القدرة الإلهية . وكيف يمكن للثلاثة أشخاص الإلهيين أن يكونوا إلهاً واحداً مع تمايزهم عن بعضهم البعض ؟ إن ذلك لأن لهم كلهم نفس الطبيعة الإلهية ونفس أوجه الكمال ونفس الأعمال الخارجية . ولكن كي نتعرف بصورة أفضل على الثلاثة أشخاص الإلهية فإننا ننسب القدرة وأعمال القدرة كالخلق إلى الأب ، والحكمة وأعمال الحكمة مثل الهداية إلى الابن ، والحب وأعمال الحب مثل التنفيذ إلى الروح القدس . وهل يمكننا أن نفهم الثلاثة أشخاص الإلهيين بكامل على الرغم من كونهم ثلاثة متمييزين ومع ذلك يكونون إلهاً واحداً ؟ نحن لا نستطيع فهم هذه الحقيقة بكامل

فهى سرغيبى . وفي الآخرة سيكون هناك فهم أكثر لهذه الأسرار ولكن لن يكون أبداً فهم تام لانهاى لها .

وإزاء هذا التصور المعقد يحاول المبشرون ودعاة المسيحية أن يعتذروا عنه ويبرروه بشتى الوسائل . وتختار مريم لأحدهم (وهو كينيث كراج الذى سبق أن أشارت إليه) محاولة من هذا النوع . وهو يقول أن مفهوم البساطة ليس له مجال في فهم العقيدة المسيحية ولا يجب أن توزن هذه العقيدة به . كما أن التصور الحسائى لوجود ثلاثة أشخاص في إله واحد مع ما يثيره ذلك من تعقيدات أو صعوبات يجب أن يستبعد هو الآخر . ومفهوم ميلاد الابن من الأب ليس الولادة الجسدية المعروفة وإنما هو تشبيه من الحياة البشرية حيث تعبر العائلة عن فكرة الإله كما يقول القديس بولس وتستمد اسمها منه (ربما يشير إلى عبارة رب الأسرة ، ربة البيت ، إلخ) . والعقيدة المسيحية تعلق على فهم العقل وهى لا تغنى الشرك بل أقرب ما يشبهها هو تعقد وتركيب الشخصية البشرية . فنحن نقول أن شكسبير الشاعر والمسرحى الإنجليزى شخص واحد لكن جوانب شخصيته متنوعة . ونحن نقول إن محمداً شخص واحد لكنه النبي والقائد والقُدوة وهكذا الإله . والحقيقة أن آراء المبشر كراج تحفز دوماً على المناقشة كما شاهدنا عند طرح فكرة العلمانية . فنحن نقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبي والقائد والقُدوة وهو الزوج والأب والابن والعابد والقاضى ولا يعنى

ذلك أن هناك ثمانية أو عشرين شخصاً في شخص واحد وإنما يعنى أننا نختار أفعالاً أو حركات أو صفات أو كيفيات لإنسان واحد ونعزلها وندرسها تحت باب معين أو كلمة معينة لغرض أو آخر . كما أن هذا لا يعنى أن هذه الصفات متكافئة أو ظهرت في وقت واحد أو أن بعضها يخرج منه ليتجسد في شخص آخر كما خرج الابن ليتجسد في المسيح عند المذاهب النصرانية (أو بعضها) . والمهم هو كيف يمكن أن نختار البشر كنموذج ثم نتصور الإله على مثاله ؟ ويقول كراج إن الشخصية البشرية المعقدة تتضمن داخل الإنسان الواحد الكثير من الجوانب والشخصية الإلهية هى على مثالها ولكن أغنى . وهذا يضعه في تناقض فإذا كنا نستطيع أن نعزل في محمد أو شكسبير عشرين أو خمسين أو ألف حال وحركة وصفة فكيف نعزل في الإله ثلاثة فقط ؟ ويتخبط المبشر فهو تارة يعتمد على التشبيه البشرى وتارة أخرى يقول إن هذه أسرار تعلق على العقل والفن ومرة ثالثة يقول إن الدليل الوحيد عليها هو الوحي دون أن يذكر هو أو غيره من النصارى نصوص الوحي الإنجيلى الدالة على ذلك . وهو يستبعد مفهوم البساطة الذى يمكن أن ترفض العقيدة المسيحية إذا وزنت به دون أن يحدد سبب الاستبعاد سوى قوله إن الحلول البسيطة خداعة . ولكن هل نحن هنا في مجال العقيدة المنزلّة الموحى بها أم في مجال السفسطة المتعسفة ؟ وما هو الدليل العقلى الضرورى الذى يثبت أن كل حل بسيط لمشكلة ما هو حل

يؤمنون بوجود الإله الواحد ويتخذون أصنامهم مجرد وسائل للتقرب إليه أو يعدونها من مظاهره و«بناته» .

أما مفهوم المسيحية المركب عن الإلهية فقد ضم أيضاً الصلاة إلى القديسين وتوقير صورهم ومخلفاتهم وعباده «أم الإله» مريم والصلاة للصلبان والتماثيل والصور والإيمان بشفاعة القديسين . وتدلل مريم جميلة على كل هذه النواحي بفقرات مطولة من كتاب «فهم الإيمان الكاثوليكي» وترى أن هذا الفهم قد أدى إلى أن يشغل الملايين من المسيحيين البسطاء بالصلاة إلى القديسين بدلاً من الصلاة إلى الإله الذي يسونه في زحام مئات القديسين الذين تكرسهم الكنيسة الكاثوليكية .

وتعطينا الكاتبة أمثلة من واقعها وممارسات البيئة الأمريكية عن مظاهر الشرك التي أدى إليها مفهوم الألوهية المسيحي وما يحيط به من مظاهر . فهناك مثلاً الصلاة تسعة أيام متوالية إلى القديس أنتوني إذا أراد الشخص استعادة شيء فقد منه . وتقول مريم : إن مدرساً مسيحياً نصحها بذلك عندما فقد منها كتاب مؤكداً قدرة هذا القديس على إرجاع المفقودات . وتفويض في الحديث عن صناعة الصلبان وتماثيل القديسين والمسيح والعذراء ورواج بيع هذه الأشياء في المجتمع الأمريكي والتبرك بها والصلاة لها وأمامها ووضعها في السيارات مثلاً لحمايتها من السرقة . وتتساءل كيف يمكن أن نميز بين هذا اللون من

خادع ؟ ولنفرض أننا أمام مشكلة بسيطة فهل يتحتم أن يكون حلها مركباً ؟ ولا ننسى أن هناك أنواعاً ومستويات من المشاكل ومن الحلول . ثم هو يعترف بأن التصور الإلهي في المسيحية يمثل مشكلة يتحتم لبحث عن حل لها فهل مما يتسق مع الوحي الإلهي والهداية الإلهية أن تترل على الناس أنغازاً يتخبطون في حلها فلا يعرفون الإله المصطوب منهم أن يعبدوه ويتدينوا بدينه ؟

إن سبب التخبط هو أن العقيدة الكنسية قد وضعها البشر دون أي هداية إلهية وتوضح مريم جميلة هذا الجانب في وقت لاحق . لكنها تكفي في المقام الحال برد بسيط ( ١ ) ومفحم على المبشر . فهي ترد على دعائه بأن مفهوم المسيحية المركب لا يتضمن تعدد الآلهة قائلة : إن الإسلام لا يمكنه بتحريم التعدد نفسه أو الشرك بل يحرم كل الطرق المؤدية إليه . ومن المؤكد أن مفهوم الثالوث الذي يحاول بتخبط أن يبرره في إطار مفهوم الإله الواحد كى يحمى المسيحية من تهمة الشرك يؤدي هو نفسه إلى القول بتعدد الآلهة كما تثبت التجربة التاريخية عند المسيحيين . وتتجه الكاتبة أولاً إلى ضرب الأمثلة من بعض العقائد . فاندلسنة الهندوس مثلاً ينفون أن تعدد الإلهة عندهم يعنى الشرك . وتدينهم ثلوث إلهي هو براهمان الخالق وفيشنو الحافظ وشيئا المدر والملايين من الآلهة الصغرى التي يقولون عنها : إنها جوانب أو مظاهر من الإله الواحد . وينطبق نفس الكلام على وثنيي العرب الذين كانوا

تعدد المعبودات وبين الوثنية .

وتؤكد كلامها عن تسهيل مفهوم الألوهية في النصرانية للشرك بنقل صلوات موجهة إلى العذراء مريم التي لها عبادة في الكنائس باعتبارها والدة الإله : تحية أيتها الملكة المقدسة يا أم الرحمة وحياتنا وأملنا . إليك نصرخ نحن أبناء حواء المساكين المطرودين . نرسل إليك بأهاتنا حزاني باكين في وادي الدموع . انظري إلينا بعين الرحمة وأظهري لنا ثمرة رحمك عيسى أيتها العذراء مريم الرحيمة المحبة . تحية يا مريم الرحيمة إن الرب معك ، مباركة أنت بين النساء ومبارك ثمرة رحمك عيسى . أيتها العذراء مريم يا أم الرب صلي من أجلنا نحن الحاطنين الآن وفي ساعة موتنا . اذكرى يا رحيمة أنه ما التجأ أحد إلى حمايتك وتضرع لعونك وطلب شفاعتك ثم ترك بلا مساعدة . إنني أجيء إليك وأقف أمامك خاطئاً نادماً . يا أم الكلمة المتجسدة لا تردى توسلاتي ولكن برحمتك اسمعي واستجبي آمين .

وتقارن الكاتبة بين أمثال هذه الصلوات المؤلفة والتي يمتزج فيها الدعاء لمريم والقديسين بتزعة عاطفية مبالغ فيها بالدعوات في الإسلام المأخوذة من المصدر الإلهي المباشر وهو القرآن ومن السنة المعصومة . وهي دعوات لا أثر للشرك فيها مطلقاً وإنما تخلص التوجه إلى الله وحده .

وهي تستغل تدهور مفهوم الألوهية الكنسي إلى أشكال من التوجه

لغير الله كى تناقش محاولة أخرى للمبشر كينيث كراج في تشويه الإسلام . إذ يعمد هذا الكاتب إلى تصوير تحريم الإسلام للصور والتماثيل اتقاء لخطر الشرك بأنه مفهوم ساذج وقاهر لأن الشرك يوجد في القلب قبل أن يوجد في الصور والأشكال الملموسة ولن يؤدي هذا التحريم إلى منع الشرك الذي يمكن أن يرتبط بعبادة الدولة أو المادة أو الشعب . أما المسيحية كما يرى كراج فإنها لا تخشى من الصور بل تعتبرها مظهراً من مظاهر تجسد الإله في المسيح وموت المسيح على الصليب . ولهذا فإن موقفها أكثر نضجاً من الإسلام . وترد مريم جميلة بأن القضية المطروحة هنا ليست قضية نظرية بل عملية . فمن المؤكد والمعروف أن الشرك يمكن أن يوجد بدون أصنام مجسدة وأن تحريم الصور والتماثيل لن يضمن الوحدةانية المحضة . غير أن وجود الأشكال التمثيلية يساعد على الشرك وتعدد الآلهة من حيث أنه يوفر أجساماً موضوعية تتركز فيها المشاعر النفسية من التوقير والتعلق والإعزاز والحب والإجلال .. إلخ . وهذا في الواقع ما يتناساه المبشر . فهو يتحدث عن عبادة الدولة أو الشعب كأنماط من الشرك . لكن هذه الأنماط ترتبط عادة بأشكال مادية كتماثيل الزعماء أو رموز وأنصاب الجندي المجهول وخلافه والمرايات والشعارات المصورة التي تتحول عند عباد الدولة أو الناس أو أشباه ذلك من العقائد إلى مجسّدات لما يوقرونه وتصبح لها في الحقيقة مكانة الأصنام بينما هي نشأت كأعمال فنية تصويرية . ومن هنا

فإنه مع وجود الاتجاه النفسى الباطنى إلى الشرك فإن وجود التماثيل والأشكال التصويرية يدعمه ويقويه بل ويستثيره بمنحه الجسم الموضوعى الذى يتعلق به ويثبته ويحدده . ولا يجب الاحتجاج كما تقول مريم جميلة، ببعده العهد عن زمن الأصنام فالطبيعة البشرية لا تتغير وهى تخضع دائماً لنفس المغريات .

أما عن استخدام المسيحية للصور والتماثيل سواء فى الأصل من حيث التأكيد على التجسد الإلهى فى المسيح أو فيما بعد بصور المسيح ووالدته والقديسين والصليب وتماثيلهم فتقول مريم جميلة : إن لهذا الاستخدام آثاراً ضارة ومهلكة من حيث أنه يخلق فى الأذهان صورة معينة ومحدودة وقاصرة عن الإله الخالق المتعالى عن عالم الحس والغيبى كما يصفه المبشر نفسه . إن ما يحدث هو أن هذا الإله الذى لا تنكر النصرانية تعالیه يتحول إلى أسير لتصورات بشرية . وبإليتها تصورات راقية بل هى بنت بيئات معينة وتجارب تاريخية نسبية . ومن هنا نجد أن الصورة الرئيسية التى أفرزها الفن المسيحى عن الإله وهى صورة الرجل المسن ذى اللحية البيضاء الجالس فى السماء كان لها أثر سيئ على الدين المسيحى نفسه . وتقول الكاتبة : إنها فقدت إيمانها بالإله عموماً ورفضته نتيجة تصورها له فى مرحلة المراهقة على أنه رجل ملتح عجوز يطل عليها من السماء . أما المستول عن زرع هذه الصورة فى ذهنها فهو عشرات الصور التى كانت تراها له على هذه الصورة فى الكتب

والمتاحف . وترى أن الكثيرين من شباب الغرب يشاركونها فى شعورها هذا . وتستعين الكاتبة بتحليل ذكى للكاتب اليهودى الأصل محمد أسد يوضح فيه هذا الخطر الذى استسلمت له المسيحية : ربما كان أهم خطر فكرى أعاق نهضة أوروبا الدينية هو تصوير المسيح عيسى عليه السلام بأنه ابن الله . وبإلتطع فإن المسيحيين ذوى النزعة الفلسفية لم يؤمنوا بفكرة النبوة هذه بمعناها الحرفى فقد كانوا يفهمونها على أنها تجل للرحمة الإلهية فى شكل بشرى . لكن الأغلبية الساحقة من المسيحيين كانت تنظر إلى لفظة «ابن» بمعناها المباشر . إذ كانت نبوة المسيح للإله عندهم مؤدية إلى إخفاء الطابع البشرى على الإله نفسه الذى اتخذ شكل لرجل العجوز الطيب ذى اللحية البيضاء الطويلة وتؤكد هذا الشكل من خلال صور فنية رائعة لا حصر لعدددها بقيت فى الوعى الباطن الأوروبى . ولم يتجه أحد إلى التشكك فى هذه الفكرة الغربية طيلة هيمنة عقيدة الكنيسة على أوروبا . ولكن مع نشوء حركة التفكير الحر بعد العصور الوسطى لم يعد المفكرون يقبلون صورة الإله الأب ذى الطابع البشرى وهى الصورة التى ارتبطت ارتباطاً راسخاً بالدين فى الذهن الشعبى . وأخذت العقول الأوروبية المستنيرة تتبعد عن مفهوم الإله كما تقدمه الكنيسة . وحيث أن هذا المفهوم كان الوحيد الموجود لديهم عن الألوهية فقد رفضوا معه فكرة وجود الإله نفسه ومعها كل الأديان .



أدخل الشهيد جوستين تعقد الفلسفة الأفلاطونية على بساطة المسيحية فأفسدها . وفي عام ١٧٠ ترد كلمة «ثلاثي» لأول مرة في الكتابات المسيحية . وفي عام ٢٠٠ يستخدم ترتوليان كلمة الثلاث لأول مرة . ويعارض أوريجن في عام ٢٣٠ التوجه إلى المسيح بالدعاء . ويعلن سايلبيوس في عام ٢٦٠ أن الأب والابن والروح القدس هي ثلاثة أسماء لإله واحد أو لنفس الإله . وحتى عام ٣٠٠ لم تعرف الكنيسة أية صلاة تعبر على المفهوم الثلاثي . ويكتب لاكتانيوس عام ٣١٠ أن المسيح لم يدع نفسه بالإله قط . ويقول يوسيبوس عام ٣٢٠ إن المسيح يعلمنا أن ندعو أباه بالإله الحق وأن نعبد (أى الإله الحق) . ويوافق مجمع نيقية عام ٣٢٥ على تسمية المسيح بإله من إله والإله الحق من الإله الحق . وتتصاعد في عام ٣٥٠ صراعات شديدة في الكنيسة حول عقيدة الثلاثي . ونشأت عام ٣٧٠ عبارة «المجد للأب والابن والروح القدس» وقوبلت بالاعتراض عليها كبدعة . أما في عام ٣٨١ فقد وضع مجلس القسطنطينية اللمسات الأخيرة على عقيدة «ثلاثة أشخاص في إله واحد» . وهدد الامبراطور ثيودوسيوس في عام ٣٨٣ بمعاقة كل من لا يؤمن بالثالث ولا يعبد . وصدر عام ٤٩٦ مرسوم من جيلاسيوس بإدانة إنجيل برنابا الذى يدعو إلى التوحيد الخالص ويتنبأ بمجئ محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد فرض الإمبراطور قسطنطين عقيدة الثلاث بقوة الدولة وجعل

وهكذا يتضح الخطأ الفادح الذى وقع المبشركراج فيه . فتقبل الصور والتماثيل والتجسيد لم يكن علامة للقوة والذكاء في المسيحية تواجه سداجة الإسلام الخائف من التماثيل كما يقول بل كان الباب الذى دخلت منه أخطار الشرك والتوجه إلى غير الله وفرض الطابع البشرى المحدود على الإله وإنزاله من مستوى الغيب الذى لا تدركه الأبصار إلى مستوى الصورة المجسدة التى تنفر منها العقول المستنيرة وتتجاوزها رافضة معها الدين وفكرة الألوهية ذاتها . وتتكشف خلال ذلك نواح من الحكمة الإسلامية لم يتبها إليها أحد من أولئك الذين يسارعون إلى تقليد الأجانب والنصارى بدون وعى في أى قضية كانت .

وتعود الكاتبة إلى البحث في عقيدة الألوهية الكنسية لتؤكد على ما سبق أن رددته من أن هذه العقيدة قد صاغت اليد البشرية . وتتابع معها التطور الذى أدى إلى نشأتها في القرن الرابع بعد الميلاد : تسجل الأنجيل في العام ٣٢ من الميلاد عبارة : إني أصعد إلى أبى وأبيكم وربى وربكم . ويكتب بولس في حوالى عام ٥٧ : لا يوجد غير إله واحد . وبالنسبة لنا لا يوجد غير إله واحد الأب والابن المسيح عيسى . ويكتب كليمنت حوالى عام ٩٦ : لقد أرسل الله المسيح وأرسل المسيح الحواريين . وفي عام ١٢٠ بدأت عقيدة الحواريين في الظهور عند الكنيسة وكانت تقول : إني أؤمن بالإله الأب القدير . وفي عام ١٥٠

ليس هنا مكان الحديث عنها . كذلك فإن من مكملات الحديث عن هذه العقيدة المركبة النظر في مسألة الخوض في ذات الله دون دليل والبحث الفج في مسائل التشبيه والتجسيم والمفهوم الحرفي للصفات الإلهية وغير ذلك من النقاط التي دخل فيها ما يسمى بعلم الكلام في همدان الفلسفة عند بعض المتسبين للإسلام (واليهودية أيضاً) .

والحقيقة التي يرتاح إليها العقل هي : أن الطريق الوحيد لمعرفة الله هو الوحي المنزل من عنده وما علمه نبيه المرسل نقلاً عنه . أما الخوض في ذات الله وحقيقته فهو ليس عملاً دينياً جليلاً وواجباً مفروضاً بل هو على أفضل التصورات وبدون التشكيك في دوافع من يقدمون عليه لا يعدو أن يكون نشاطاً عقلياً يرحمه بالغيب والظن ويصنع فيه الإنسان صورة للإله على مثاله وحسب مدركات ذهنه وخياله في فترة معينة ومكان معين وداخل إطار ثقافة ما ووفقاً لنظام فلسفي ديني منطقي أو آخر . ولا يخرج هذا النشاط عن طرح تصور وضعي للإله لا يلزم إلا واضعيه حتى ولو لجأ في بعض الأحيان إلى استعارة ثياب دينية إسلامية أو غير إسلامية . فالمصدر المعتمد هو الوحي المعصوم المتواتر الذي يحدد أن الله ليس كمثل شيء وهو ليس مقولة فلان أو إعلان . وإذا فقد الوحي أو تشوه وضاع من عند قوم فراحوا يأخذون من الوثنية والفلسفة الوضعية والتصوف اليوناني منطلقات عقائدية فليس هذا بمسوغ لأناس آخرين يزعمون أن عندهم الوحي المنزل المحفوظ أن يبدءوا في صناعة

مخالفتها جريمة يعاقب عليها القانون مدفوعاً برغبته في مسابرة نفوذ الكنيسة القوي ومنع الخلافات والاضطرابات وضمان وحدة رعاياه من خلال وحدة الكنيسة . وقد أدت كل هذه التطورات إلى تعميق الجدل والملاحاة بين المسيحيين العاديين حول هذه القضايا اللاهوتية المتشابهة . ويصف جريجورس النياسى أحوال القسطنطينية عاصمة بيزنطة في القرن الرابع الميلادي فيقول : تمتلئ هذه المدينة بالعمال والعبيد وكلهم يدعى الفقه المتعمق ويبشرون في المحال والشوارع . فإذا أردت رجلاً ليصرف لك قطعة من الفضة فإنه يجربك عن النقاط التي يختلف فيها الابن عن الأب . وإذا سألت عن ثمن رغيف الخبز جاءتك الإجابة بأن الابن أقل مرتبة من الأب وإذا سألت عما إذا كان الحمام قد أعد ليكون الجواب بأن الابن قد خلق من العدم .

ونرى أن بحث مريم جميلة في التأثيرات الوثنية على العقيدة المسيحية في الألوهية يكمل ما استعرضناه في هذا الفصل ويضاف إلى تتبعها لتطور ونشأة الأصل الوضعي الكنسي لهذه العقيدة التي صارت مفروضة بقوة الدولة في وجه الآراء المسيحية الأخرى ومنها ما كان يقرب كثيراً من عقيدة التوحيد لكنها اعتبرت هرطقات مرفوضة . وربما كان ينقص اكتمال المعالجة أن تتعرض الكاتبة إلى المؤثرات اليونانية على ظهور هذه العقيدة كأفكار أفلاطون عن الإله والعقل والروح وفلسفة أفلوطين عن الفيضات أو الصدور الإلهي وغير ذلك من المجالات التي

## مفهوم الخطيئة في المسيحية والإسلام

تواصل مريم جميلة عرضها لعقائد المسيحية فنتقل إلى مفهوم الخطيئة فيها وهو من أشهر تصوراتها وأكثر ما يفرق بينها وبين الإسلام من ناحية أخرى . ويبدأ هذا المفهوم من بداية الخلق أى من عند آدم وحواء . وفي الإسلام أن الله غفر لها خطيئتها ورفع آدم إلى منزلة الأنبياء . فما هو التصور في المسيحية ؟ إن الرب لم يغفر لها . وترتب على ذلك أن كل من يولد من نسلها يصل إلى الحياة حاملاً الخطيئة ولا ترفع عنه إلا بعد أن يتعمد في الديانة المسيحية ويقبل بالإيمان بالمسيح كابن الرب الوحيد المولود وفادى خطايا كل البشر وعندئذ يغفر له الإله . وهذا هو مفهوم الخطيئة الأصلية التي يولد بها الطفل وتلصق به من أصله . ويقابل هذا التصور في الإسلام ميلاد كل طفل على الفطرة وعدم تكليفه إلا بعد البلوغ حيث تحسب عليه الذنوب إذا استسلم لوسوسة إبليس أو الحسنات إذا قاوم .

وفي العقيدة المسيحية أن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء هي شجرة معرفة الخير والشر وكانا مأمورين بالامتناع عنها وكان جزاء ذلك حرمانها من الرحمة الإلهية وتعرضها للموت والمعاناة والميل إلى الشر والطرد من الجنة ويولد البشر نتيجة لذلك محرومين من الرحمة الإلهية ووارثين للعقاب الذي استحقه أبواهما . أما التصور الإسلامي فتعبر عنه كما هو معروف الآية من ١١٥ إلى ١٢٣ من سورة طه : « ولقد عهدنا

الآلهة كما فعل الآخرون . إن صياغة عقيدة وضعية في غياب الوحي بالأخذ من مصادر لادينية هو نفس الشيء كصناعة إله وضعى كما حاول العديد من علماء الكلام عند المسلمين . وكلا الشيتين لا يختلف في كثير أو قليل عن صناعة العجل الذهبي الذي عبده بنو إسرائيل أو صناعة العديد من العقائد والآلهة في المذاهب العصرية وتخصيصها بالعبادة وأبرز هذه الآلهة في الفكر الأوروبي الحديث هو الإنسان نفسه بعد أن كف هذا الغربي عن صناعة آلهة صنية أو فكرية خارجية وعبد نفسه في صور عديدة .

شاء ويطمع في المغفرة إذا ندم وأحسن التوبة فإننا نجد أن التصور المسيحي يصدمننا بضرورة التعميد على يد قسيس كشرط لمجرد رفع خطيئة لم يكن للإنسان أو للطفل المعمد يد فيها . ويرتكب الآباء خطيئة عظمى إذا لم يبادروا بتعميد أطفالهم بأسرع ما يمكن لأن الطفل إذا مات دون تعميده لم يدخل الجنة وأقصى ما يطمع فيه حسب رأى بعض المذاهب المتشددة مثل الكالفنية أن يوضع في أدنى درجات الجحيم عقاباً على خطيئة ارتكباها آدم الذى سيجلس على يمين الرب يوم الحساب مع المسيح وصفوة المختارين ليشارك في حساب البشر . ونصدم مرة أخرى عندما نجد القديس أغسطين يتحدث عن الطفل كخاطئ بالولادة مما يتجلى في حقه على شقيقه إذا شاركه في لبن أمه ولرغبته في الاستئثار بهذا اللبن . ولكنه ينسى أن هذا الحقد أو الأثرة إن صح وجودها عند كل طفل إنما تختلف عما قال به رؤساء دينه عن وراثة خطيئة آدم وهى غير مكتسبة للطفل بأى حال .

نحن إذن أمام مفهومين مميزين عن الخطيئة . أحدهما يجعلها ملصقة بالإنسان دون كسبه أو عمله في حالة لها تدعى الأصلية وهى لا ترتفع بعمل فردى أو إحسان وتقوى وصلاح بل بعاد كهنوتى وقبول بعقيدة الألوهية الكنسية . أما الآخر فلا يعرف فكرة وراثة الخطيئة بالأصل أو تحميل وازرة وزر أخرى بل يحدد للخطيئة مفهوماً يتصل بإدراك الإنسان ووعيه واكتمال عقله وحرية ومسئوليته ويجعلها مرتبة

إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا . وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنتك لا تظمأ فيها ولا تصحى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوء أئهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى .

وفي الإسلام أن التكليف مرفوع عن النائم والمجنون والطفل حتى يبلغ . فإذا بلغ فإنه حر الإرادة فى أن يذنب أو يحسن . وهو مسئول عند تمتعه بكامل قواه العقلية . وتأتى كرامة الإنسان من نجاحه فى مقاومة الإغراء بالخطيئة رغم قدرته على ارتكابها . والحياة بالنسبة له اختبار يتصل بالآخرة . فمن يستسلم لله وشريعته وأوامره كما جاءت فى القرآن والسنة ويضحى بمنع هذا العالم فى سبيل الحياة الآخرة فقد فاز . أما من ينكر حاكمية الله ويطيع غيره ويرفض الشريعة الإلهية مفضلاً القوانين البشرية ويتبع هواه فسيدان يوم القيامة ككافر ويخلد فى العذاب . وتنطبق هذه الحرية والمسئولية على كل فرد رجلاً كان أو امرأة . وإذا خرجنا عن إطار هذا التصور الإسلامى العام للخطيئة أو الذنب الذى يمكن للإنسان أن يتوب عنه أمام الله وحده وفى أى وقت

العذابات التي تنتظر الخاطئين في جهنم . ويقص علينا الكاتب مشاعر الخوف التي كانت تتابه من جراء هذه العظات المخيفة من رجل يكره مجرد الابتسام . ويقول : انه كان يتخيل الرب وحشاً يريد أن يقص عليه من ركن في الغرفة ويفترسه عقاباً على خطاياها . ولم يكن يجرؤ حتى على مجرد تحريك ساقه أو الاعتدال في جلسته خلال قراءة عمه في الإنجيل . وكانت تلم به في نومه أحلام مزعجة يرى الشياطين فيها تصرخ وتطارده . وقد أبعده هذه التجارب عن الدين .

ولاريب أن أمثال هذه السلوكيات تنبع من نظرة ترى الخطيئة قدراً مفروضاً لا فكاك منه ولا يرتفع بتوبة أو بجهاد شخصي . وتقتضينا الموضوعية أن نشير إلى أن تلك الاتجاهات قد اختفت أو كادت من الحياة الدينية المسيحية في أوروبا وأمريكا وحل مكانها على سبيل رد الفعل أو مجازاة إنحراف المجتمعات تساهل شديد تجاه الخطيئة والذنوب ومخالفة التعاليم الأخلاقية . وأصبح من المألوف والشائع الآن أن نرى رجال الدين هناك والكنائس يعتمدون أساليب ربط التدين بالبهجة والسرور والموسيقى والغناء والتجاهل التام لذكر أي عذاب في الآخرة على الذنوب والمعاصي . وليس من المبالغة القول بأن الحال قد تغير إلى النقيض من تلك الصورة المتجهممة التي تنقلها لنا مريم جميلة والتي ربما سادت خلال القرن الماضي وفترات من الحالى . ولعل قانون رد الفعل قد أعمل عمله في الغرب فيما يختص بالتدين . ولكن من المؤكد أن

على مخالفة النهج الإلهي كما يجعل منها مخرجاً فردياً بالتوبة المباشرة إلى الله دون وسيط وتخيل هذه التجربة بأسرها بما فيها من صمود وثبات ومخالفة للهوى إلى علامة على كرامة الإنسانية ومغزى أو حكمة تجربتها وطريق لها إلى النجاة في الآخرة .

ويرتبط بمفهوم الخطيئة في المسيحية عقيدة سبق التقدير التي قال بها المذهب الكالفني والتي تقضى بأن الرب قد حكم على الجنس البشري بالتخليد في الجحيم عقاباً على الخطيئة الأصلية واستثنى من ذلك طائفة قليلة من المختارين ينجون من العذاب الأبدي . وأدت هذه العقيدة كما يدرك من توسع في قراءة الآداب الغربية الحديثة كالإنجليزية والأمريكية مثلاً إلى شيوع روح من التشاؤم واليأس والتخويف المرضى من العقاب الإلهي دون ذكر رحمة الله والتبشير بمغفرته . وكان لهذه الروح المنفرة والمخالفة لما في الإسلام مثلاً من التأكيد على عدم اليأس من الله ورحمته ومغفرته أسوأ الأثر على التدين في الغرب حيث ارتبط الدين بالجهامة والصرامة والحزن مع القنوط من حسن المصير . وتذكر لنا الكاتبة نموذجاً لكاتب مسيحي ابتعد عن الدين نتيجة لنشأته في بيت متمسك ببعض هذه المذاهب الداعية لإله معذب منتقم دون رحمة .

يقول هذا الكاتب : إن عمه كان يدير كنيسة تابعة للمذهب الميثودست . وكان يجمع الأسرة بعد وجبة العشاء كل يوم ويحدثهم عن

الكنائس هناك في محاولاتها لاجتذاب الناس بأى ثمن بعد الضربات الشديدة التي تلقها عقيدتها قد لجأت إلى التساهل وإسقاط مفهوم الخطيئة وهو من أبرز تصوراتها . ولم تعد القضية المطروحة بالنسبة لنشاطها تخليص البشر من الخطيئة الأصلية أو تلك المكتسبة في الدنيا بأعمال التعبد والخير.. إلخ بقدر ما أصبحت جذبهم إلى الكنيسة كتنظيم اجتماعي قائم واستخدام أساليب التأثير الجماهيري التي تلجأ إليها التنظيمات الأخرى من أحزاب وجماعات . وربما كان هذا التغير من أهم سمات علمنة الكنيسة في الفترة القريبة .

ولا تبعد هذه التطورات كثيراً عن اتجاهات معينة يراد لها أن تروج في الأوساط الإسلامية . فعلى الرغم من وسطية المفهوم الإسلامي عن الذنب واعتماده على الترغيب والترهيب دون بث لليأس أو اسلام للآمال الكاذبة في النجاة بدون سعى لها نجد أن البعض يصور حركة التدين الإسلامي بأنها تشبه تلك المفاهيم المريضة التي سادت بعض الكنائس الغربية عن هلاك البشر بدون خلاص وبأنها تتسم بنفس روح التزمت والجهامة التي خلقتها تلك المفاهيم . ولا ريب أن هذا التصور ينبثق من عقول لا تبصر الواقع بل تقلد ما سمعت عنه في الغرب وتطبق الرؤى الغربية على الحياة الإسلامية دون تمييز . فالتدين الذي تسعى حركة النهضة الإسلامية إلى نشره لا يشبه من قريب أو بعيد تلك الصور المريضة التي أشارت مريم جميلة إلى طرف منها . وهو إذا كان يقترن

بالتحذير من الذنوب والمعاصي والدعوة إلى البعد عنها فإنه يرتبط في الوقت نفسه بالتبشير بالرحمة والمغفرة وطرح بديل هو الحياة الإسلامية المتوازنة المحققة لإمكانات النفس البشرية بما يرضى الله ويسير على منهجه ولا يعمل على العزلة عن الحياة ولا يكره البسمة والضحكة البريئة ولا ينفر من الله عز وجل . ولا أشك في أن من يصورون التدين الإسلامي بهذه الصورة الكاذبة يعملون من طرف خفي على محاربهته وعلى أن يسود بين المسلمين رد فعل يميل إلى التساهل والتسيب والانغماس فيما لا يليق بحجة الانطلاق والتحرر والصدق مع النفس وعدم التنفير من الدين .

## عن المرأة

يرتبط مفهوم الخطيئة الأصلية في المسيحية بنظرة تقلل من شأن المرأة ومكانتها باعتبار حواء هي المسئولة عن إغراء آدم بالأكل من الشجرة المحرمة حسب القصة الواردة في سفر التكوين من الإنجيل الموجود الآن . وقد أدان آباء الكنيسة الأوائل المرأة باعتبارها أقوى مصادر الخطيئة والغواية . وما زالت بعض الأديرة في اليونان تحرم دخول النساء إليها بل تمنع كذلك دخول الإناث من الحيوانات المنزلية ! ولا توجد في الإسلام نظرة تؤصل تدني مكانة المرأة . فكل من آدم وحواء مسئول مسئولية متكافئة عن عصيان أمر الله . وتضع مريم جميلة منذ بداية مناقشتها لمسألة المرأة موقف الإسلام منها في مواجهة الموقف المسيحي . وهي تبرز هذا الموقف بالآية ٣٥ من سورة الأحزاب : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا . » هنا نجد المساواة الكاملة في الإنسانية وشرف العبادة وفرض المسئولية الخلقية والجزاء .

وإذ كان القرآن يرسى قواعد المساواة بين الرجل والمرأة فإننا نجد القديس بولس يرسى أسس تدني وضع المرأة فيقول : لأن حواء أكلت

أولاً من الفاكهة المحرمة ثم أعطتها بعد ذلك لآدم وهكذا فالرجل لم يبدع بينما اتخذت المرأة تماماً ووقعت في الخطيئة والمعصية . وتوضح الكاتبة أن السبب وراء تركيزها على هذه النقطة هو هجمات المبشرين التي لا تنقطع على الإسلام بوصفه ظالماً للمرأة . وترى أن هذا الكذب من أصحاب البيوت الزجاجية يجب أن يكشف بإبراز المعالم الحقيقية لتصوير عقيدتهم لوضع المرأة وأشهر هذه التصورات يتصل بمسئولية المرأة عن الخطيئة الأصلية . ولا تتوقف الأفكار الحاطة لشأن المرأة عند هذا الحد . بل نجد في مواقف تبدو صغيرة لكنها ذات مغزى . ولنستمع إلى القديس بولس مرة أخرى : أريدكم أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ورأس المرأة هو الرجل ورأس المسيح هو الرب . والرجل الذي يصلى أو يعظ ورأسه مغطاة يهين رأسه أما المرأة التي تصلى أو تعظ ورأسها مكشوف فإنها تهين رأسها .... إذ يجب على الرجل عدم تغطية رأسه لأنه صورة ومجد الرب أما المرأة فهي مجد الرجل . وليس الرجل من المرأة بل المرأة من الرجل . ولم يخلق الرجل من أجل المرأة بل خلقت المرأة من أجل الرجل . ولهذا يجب أن يوضع غطاء على رأس المرأة من أجل الملائكة . والنقطة التي تهتم مريم جميلة هنا هي أن الدعوة لتغطية رأس المرأة في الصلاة أو العبادة تنطلق من دافع تأكيد تدني مكانتها بالنسبة للرجل . ومن الواضح أن هذا الدافع يختلف عما يحدث في الإسلام من تغطية كل من الرجل والمرأة لرأسه في

حررت المرأة أو الرجل . وإذا كانت قد تراجعت اليوم قليلاً عن مواقفها في مسألة الطلاق فإن ذلك لم يحدث إلا في كنائس محدودة وظروف ضيقة ولكنه حدث خارج إطار الدين في المجتمع المدني والقانون الوضعي وضد رغبة الكنائس الكبرى .

وتلاحظ مريم بدكاء بعض اللمحات فتفضل عدم زواج الأرامل يشبه من بعيد ما نصت عليه الهندوكية من أن تحرق الأرملة نفسها مع جثة زوجها كي تلحق به في العالم الآخر . والحث على العزوبية كي لا يشغل الرجل أو المرأة عن الروح بالجسد يشبه دعاوى مماثلة في الهندوكية والبوذية . وتقول تعاليم الكنيسة الكاثوليكية إن الآباء يذنبون إذا ما أجبروا أبناءهم وبناتهم على الزواج وهم يفضلون البقاء عزاباً . وتضع الكاتبة هذا الرأي بجانب دعوة الإسلام إلى الزواج المبكر واعتبار الآباء مسئولين عن ذنوب أبنائهم إذا لم يزوجهم مع القدرة على ذلك .

وعلى الرغم من هذه المواقف الكنسية العقيدية من المرأة فإن دعاه النصرانية ولاسيما من يذهب منهم إلى البلاد العربية والإسلامية لا يكفون كما تقول مريم جميلة عن الطعن في موقف الإسلام من المرأة ويروجون لأكاذيب وأساطير تتحول إلى مفاهيم راسخة عندهم لكثرة ترادها وينقلها عنهم من يميل ميلهم بين المسلمين ويحولونها إلى شبهات كبرى يستخدمونها في تنفير النساء المسلمات من دينهن وإشعار المسلمين

الصلاة (حسب السنة بالنسبة للرجل) . كما أن الأمر بالحشمة في الملبس ينطبق على الجنسين وهو في حالة المرأة لا ينطلق من اعتبارات تحقير المرأة وإخفائها عن الأنظار بل لدوافع اجتماعية من سد الذرائع وتحاشي الفتنة . وتطهير البيئة الخارجية من مظاهر قد تدفع إلى إثارة الشهوات أو الانشغال بها . ويجدر بالذكر في هذا المقام أن أعداء الإسلام الذين يحاولون الهجوم على حجاب المرأة المسلمة يستخدمون رأى القديس بولس وينسبونه إلى الإسلام ثم يأخذون في السخرية من هذا التحقير للمرأة الذي يقارنونه بمكانتها السامية في المجتمعات الغربية المسيحية . وربما يرتد عون قليلاً إذا عرفوا مصدر الرأس الذي يلصقونه كذباً بالإسلام . وهو مصدر لا يجردون على الطعن فيه لأنه يخالف «إيمانهم العميق» بالوحدة الوطنية .

وتعلق الكاتبة على تصور المسيحية لتدني مكانة المرأة عن الرجل لتقول : إن الأفكار الغربية الحديثة عن تحرر المرأة ليست مستمدة من التعاليم النصرانية كما يزعم المبشرون المرسلون إلى البلاد الإسلامية كي يتزعموا النساء من دينهن إلى المسيحية . بل إن هذه الأفكار جاءت على الرغم من المسيحية ولم تقبل بها الكنائس إلا تحت ضغط المجتمع العلماني . فالمسيحية التي ترى طاعة الزوجة العمياء والمطلقة لزوجها وتحريم الطلاق تماماً (حسب ما جاء في تعاليم القديس بولس) وتفضل عدم زواج الأرامل ثانية وتعتبر العزوبية مثلاً أعلى ليست هي التي



تقدمية على لسان العلمانيين الذين يدعون أنهم محايدون بين الأديان كلها وأنهم يجذبون القوانين والتصورات الوضعية المنفصلة عن كل دين فإذا بهم يقدمون لنا مسيحية الغرب على أنها هي الشرائع الوضعية المحايدة العلمية المزعومة . ولا عجب ينطقون باسم الغرب في كل شيء ويصوغون تفكيرهم (المحايد!) حسب مفاهيمه العليا .

تنظر المسيحية إلى الزواج باعتباره سرًا مقدسًا من أسرار عقيدتها . ويلجأ دعاة النصرانية إلى استخدام هذا المفهوم لرفض تعدد الزوجات . فإذا كانت العلاقة مع الإله هي علاقة وحدانية ورفض للتعدد فهي مع الزوجة علاقة توحيد ورفض للتعدد . والعلاقة الزوجية تتم من خلال التوحد النفسى والروحي بين جسدين بحيث يصبحان شخصًا واحدًا ولأن هذا الشخص الواحد المكون من جسدين قد تكون في ظل الكنيسة وبمباركة وجمع الرب فإنه لا يصح له أن يفصل ليعود شخصين كما كان قبل الزواج . وأشير هنا عابرًا إلى أن الشاعر المصرى إسماعيل صبرى له عبارة تقول : إنه يحب الوجدانية في الدين والمرأة . ولست أدري هل ألقها بمفرده أم استعارها من مفهوم المسيحية عن الزواج .

وتقول الكاتبة : إن مفهوم الزواج في الإسلام يختلف . فهو ليس سرًا مقدسًا كهنوتيًا يكرر في البشر تلك الوحدة التي تراها المسيحية في الإله ذى الثلاثة أشخاص . بل هو عقد يهدف إلى إضفاء مشروعية

بالذلة والنقص وهز تمسكهم بعقيدتهم واشغالهم دومًا بالدفاع عن شريعتهم وانتحال الأعذار عما تحويه . وبذلك يضعف موقف الإسلام من جراء أكاذيب مفضوحة لا يكلف أحد نفسه عبء تنفيذها بالرجوع إلى الأصل بينما تروج النصرانية أو تقوى بناءً على تغطية مواقفها الحقيقية من المرأة ونسبة ما حدث في الغرب من تحرير للمرأة (حسب المفهوم الغربى) إلى الكنيسة وتقدمها الفكرى . وتذكر لنا الكاتبة طرفًا من الاتهامات المتكررة التي يرددها المبشرون كاندغام حقوق المرأة في الإسلام وبيعها لأى رجل يطلبها للزواج وحرمانها من التعليم وتهديدها بالطلاق وتعدد الزوجات . وتقول إنها بناءً على تجربتها الواسعة في بلاد إسلامية عديدة كمصر والسودان والسعودية وباكستان قد ثبت لها علو مكانة المرأة بين المسلمين حتى في البيئات الفقيرة وغير المتعلمة . والتماسك الأسرى ثابت بين المسلمين على عكس ما هى عليه الحال في الغرب . والعلاقات الزوجية تقوم على تبادل الولاء والمودة . والزيجات التي يرتبها الأهل والأقارب تمضى سعيدة دون ما يعكر الصفو .

وتصل الكاتبة في مقابلاتها لوضع المرأة المسيحية بوضعها في الإسلام إلى مفهوم الزواج في كل من العقيدتين . وهى تقدم لنا في هذه النقطة معلومات مهمة تستحق التدبر لأنها تؤثر على الكثير مما نراه حولنا من تشويه لمفاهيم الإسلام في مجال العلاقة بين الجنسين ومحاولة اجتياحها بحجة التخلف وزرع مفاهيم نصرانية مكانها توصف بأنها

على العلاقات الجنسية وإيجاد الأسس لجو أسرى صحي لتربية الأطفال . وإذا كان الإسلام يحرم العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج فإنه يحيل هذا التحريم إلى حقيقة عملية بتسهيل الزواج والطلاق وإعادة الزواج بحيث لا يكون هناك عذر للعلاقات المحرمة . وتلقي مريم جميلة الضوء على مفاهيم الزواج في الدينين مستعينة بتصور للكاتب الإنجليزي المسلم محمد مارما ديوك بكتال (الذي ترجم معاني القرآن إلى الإنجليزية) . ونقل هذا التصور بالكامل لأهميته وقد كتبه عام ١٩٢٧ :

قيل أن نظرة الإسلام للمرأة هي نظرة الرجل بينما نظرة المسيحية إليها هي نظرة المرأة . ويتجه معتقو النظره المثالية العاطفية عن المرأة إلى سوء تقدير قيمة الموقف الإسلامى وإلى أن يتحدثوا كما لو أن الإسلام قد حط من المكانة الاجتماعية والأخلاقية للمرأة الشرقية متجاهلين أن قسماً لا بأس به من نساء المسيحية قد انحطت مكانتهن (بسبب تحريم تعدد الزوجات قانوناً وحرمانهن من فرص الزواج) إلى وضع ينظر إليه المسلم بفرح . كما أن أعداداً كبيرة من هؤلاء النسوة يحرم من لهذا السبب ممارسة وظائف طبيعية مما يعتبره المسلم ظلماً شديداً . ويتهم معظم الغربيين عقيدتنا لأنها لا تدعو إلى عدم التعدد بصرامة وقد شككوا في نبوة الرسول نفسه بسبب تعدد زوجاته . وأنه هؤلاء إلى أنه لا يوجد في التاريخ نموذج للزيجة الواحدة أنصع من زواج استمر ستة وعشرين

عاماً بين الرسول والسيدة خديجة . وقد كان مثالياً وهو متزوج بواحدة كما كان عندما تعددت زوجاته .

ولم يطبق عدم التعدد في بلدان الغرب تطبيقاً حقيقياً لكن أثر هذا التحريم أدى إلى معاناة أعداد لا حصر لها من النساء وأطفالهن . ويعمد الإسلام إلى تحطيم كل المحرمات التي تؤدي إلى انعاس أقسام من مخلوقات الله . أما في أوروبا فإننا بجانب عبادة المرأة من ناحية نرى الحط من مكانتها واليأس الذى يصيبها من ناحية أخرى . والنظام الإسلامى إذا طبق بأكمله يعتبر الرجل مسئولاً عن تصرفه تجاه كل امرأة وعن نتائج هذا التصرف . وهو يستبعد بالمثل الكثير من النزعة العاطفية المغرقة التى نسجها الكتاب الغربيون حول حقائق الاتصال الجنسى . فالرومانسية وهم ولا داعى لأن نحزن على زواله . وإذا قرأت الأدب الغربى الحديث الرائج ستجد أن هدف حياة الإنسان على الأرض يصور وكأنه حب المرأة وذلك فى شكل الحب المثالى لامرأة واحدة وهى المختارة التى يكشفها بعد أن يحرب أكثر من واحدة . وعندما يعثر على هذه المرأة يحدث بينها اتحاد روحى وهذا هو هدف الحياة . وفى الحقيقة إن هذا مراء . لكنه يعكس أثر تعاليم الكنيسة المسيحية بشأن الزواج . فالمرأة مخلوق جذاب لكنه محرم وهى بطبيعتها خاطئة إلا عندما يحدث معها اتحاد روحى غامض يشبه اتحاد المسيح بكنيسته وهو اتحاد يباركه الكاهن .

والشروع الاجتماعية . أما عن سهولة الطلاق وهي لم تكن أصلاً في النظام الغربي فقد أدخلت فيه مؤخراً وإن في حدود ضيقة تحف بها الدعاية والفضائح نظراً لبحث قضايا الطلاق في المحاكم العلنية . ووجود رخصة التعدد في الإسلام يدل على أن الزواج فيه قد جعل للرجل والمرأة ولم يجعل الرجل والمرأة للزواج . ا . هـ .

وتشير هذه الآراء للكاتب الإنجليزي تأملات شتى وبالذات على ضوء التهنك والانبيار الأخلاق الحاد وموجات الإباحية الطاغية بالغرب والتي لم تكن قد استشرت وظهرت إلى السطح عندما كتب تصورته منذ أكثر من النصف قرن . إن الغرب عموماً ومن خلال المنظور التاريخي والمعاصر يقدم لنا صورتين متناقضتين عن العلاقة بين الجنسين تعكسان التضارب وانعدام التوازن وفقدان الاتجاه . فنحن من ناحية نجد عبادة المرأة وتقديسها وهي من آثار الوثنيات القديمة وعبادة ربات الخصب والثناء وتقديس مريم العذراء وتراث عصور الفروسية (ومعظم آثارها أسطوري غير حقيقي) وعهود الأرسقراطية الملكية ويقاهاها في المجتمعات البورجوازية حيث كان ينظر إلى علاقة التقديس والتطلع للمرأة كتعبير عن رقي الذوق وجمال الأخلاق واكتمال التهذيب . وأفرزت لنا كل هذه المؤثرات ذلك المفهوم الغامض والمشوه الذي أحاط بعاطفة الحب حسب مفهومهم الذي انتقل إلينا الآن عبر عمليات التغريب . فالحب عاطفة غير محده الأصل والدافع لكنها قدر

أما مفاهيم الإسلام فهي جد مختلفة . فلا يوجد هناك شيء اسم اتحاد روحي بين بشرين بحيث يصبحان شخصاً واحداً ومن يسعى إلى مثل هذا الاتحاد فيضل الطريق . بل هناك التعاطف والحب . لكن كل روح بشرية وحيدة من المهد إلى اللحد إلا إذا حظيت بالتعرف إلى الله والتقرب منه . وكل روح حرة ومستقلة عن كل روح أخرى وهي مسئولة مسئولية كاملة وعليها أن تحمل عبئها بالكامل وتجد طريقها بأداء الواجب بين مصاعب الحياة . ولا فرق بين الرجل والمرأة في هذا المجال . ولا يوجد في الزواج اندماج للشخصيات . بل يبقى كل من طرفيه متميزاً ومستقلاً . وكل ما فعلاه هو أنهما دخلا اتفاقاً لأداء واجبات معينة نحو بعضها البعض وهو اتفاق يديمه الاحترام المشترك والحب . وإذا لم يستمر التعاطف والحب فمن الأفضل أن ينتهي الاتفاق بالطلاق . والزواج في الإسلام ليس سرّاً مقدساً ذا قيمة غيبية وليس قيدياً . بل هو عقد بين عبد الله وعبدة الله وكلاهما حر . وقد أوصى الله بالحبية بينهما وحدد بوضوح حقوق كلاهما على الآخر ورسم لعلاقتها خطوطها وقواعدها المتسمة بالشرف والاحترام . فإذا لم يشعر بالحبية بينهما ويخافان أن يخالفا الحدود يتحتم إنهاء العقد . وتحتفظ المرأة بكامل شخصيتها وممتلكاتها واسمها ولها حق المسكن المستقل في حالة التعدد . وإزاء هذه الحقوق فإنه لا يهم أن تسود المجتمع الزيجات المتعددة . وفي الحقيقة فإن تحريم التعدد أدى إلى العديد من الأمراض

محتوم غيبي يقع بالشخص (الرجل عادة) فينقلب سلوكه ويأخذ في عباده محبته والتقرب إليها بأنماطٍ شتى من السلوك سجلها لنا الأدب الغربي . وإذا لم تحدث كارثة وانتهى الأمر بالزواج فإن ذلك يتم بعد تحضير طويل وطقوس معقدة وتحت ادعاء باتحاد روحي يتجسد رغم ذلك في الإقامة بمنزل مستقل فخم أو قصر لتبدأ بعد ذلك أوضاع الحياة وحفائقها في تبيدوهم الاتحاد الاندماجي ويكتشف الطرفان استحالة الطلاق فيمضيان حتى النهاية في يأس وغربة تولدها مرارة حلم الاندماج الساقط وتحف بهما فضائح العلاقات الخارجية .

وفي مقابل هذه النظرة المثالية غير الواقعية والمستحيلة تبرز الصورة الأخرى التي ألقينا إليها وهي صورة الانحلال والتدهور الأخلاقي حيث يغيب مفهوم الحب المثالي ويظهر الجنس كتنقيض واقعي مزعوم وكرد فعل . وتأخذ النظرة إليه شكل اعتباره مجرد وظيفة حياتية كالوظائف الأخرى تؤدي بلا أي ارتباط بمواقف أخلاقية أو دينية أو اجتماعية وفي أي مكان أو زمان (الشوارع ، الحدائق ، المراحيض العامة) ومع أي شخص (عادية أو شاذة) بهدف واحد هو تصريف التوتر الجسدي . وفي ظل هذه الصورة تتحول المرأة والرجل أيضًا إلى مجرد مواضيع للذة والشهوة كما يسقط مفهوم الزواج والأسره . ومن المؤكد أن دعوات الاتجاهات الواقعية ضد المفهوم المثالي الضيق قد أدت إلى هذه الإباحية عندما انتشرت بين قطاعات واسعة من جواهر الغرب ودخلت فيها

المبالغة ودفعت إلى حدودها المنطقية .

وهكذا نجد أن الغرب المسيحي لم يفرز إلا صورًا فاشلة ضاربة للقطرة الإنسانية سواء أرفعت شعار السمو المثالي أو الواقعية العملية فنحن أمام إنكار أو إهدار لإمكانات الجسد . والغرب أسير لهاتين الصورتين يتقل من إحداها إلى الأخرى لأنه لا يعرف بديلاً يخرج من حركة البندول ونقصه بالبديل المفهوم الإسلامي المتميز . ولستأ نحن المسلمين بعيدين عن هذه الصورة فإن عمليات التغريب قد جسدت لنا صورة كاملة ومؤلمة من حديث رسول الله ﷺ عن تقليد المسلمين لليهود والنصارى والوصول إلى دخول جحر الضب وراءهم لو دخلوه . ففهوم الزواج المسيحي ينقل إلى الدول الإسلامية من خلال تعديلات متتابعة تدخل على قوانين الأسرة فيها وتوصف بأنها اجتهادات إسلامية لخداع الجماهير أو يقال أنها إصلاحات إنسانية محايدة بناء على فكر مستنير تقدمي يعمل لإنصاف المرأة . ونقصه بهذا المفهوم منع الطلاق وتعدد الزوجات وتعقيد العلاقة الزوجية بصورة تنفر من الدخول فيها . كذلك فإن مفهوم الحب الغربي المثالي كشيء غامض محتوم يتسرب إلينا عبر الأعمال الفنية المختلفة ويراد تكريسه ليكون عرفًا اجتماعيًا بين المسلمين باعتباره عاطفة إنسانية عالمية موجودة لدى البشر في كل زمان ومكان . والغريب أن أحدًا لا يجلل مفهوم الحب الذي يروج بين الناس لا سيما الشباب . فهل هو جاذبية جنسية مستترة ؟ هل هو مجرد

تقليد لمشاهد واتجاهات تروج في الوسائل الفنية الفعالة كالقصص والسينما .. ألخ ؟ هل هو مجرد مسابرة لسلوكيات تشيع بين طبقات معينة أرستقراطية سابقة أو متغربة حالية ؟ هل هو بحث عن التعارف والتصالح أو حتى التسلية والترويح يأخذ شكل العلاقة بين الرجل والمرأة (بدلاً من الصداقة العادية بين الرجل والرجل) في ظل توفر فرص الاختلاط بين الجنسين ؟ إن عاطفة الحب كاتجاه معين نحو الجنس الآخر قد توجد لدى البشر كلهم لكن من المؤكد أن أشكال التعبير الاجتماعي عن هذه العاطفة تختلف اختلافاً بيناً بين الثقافات والأزمنة والحضارات والأديان . وما يحدث في الفترة المعاصرة هي أننا أخذنا أحد أو بعض أشكال التعبير الاجتماعي عن عاطفة الحب في بعض بلدان الحضارة الغربية (وهو ليس الشكل الوحيد فيها لكنه هو الذي نشر بيننا لأهداف معينة) وروجناه على أنه هو الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتخذه هدف العاطفة ورفضنا في المقابل أشكالاً تقدمها لنا عقيدتنا وحضارتنا الإسلامية . واعتبرنا أن مظاهر الحب المنقولة عن الغرب (الاختلاط المسرف ، التزهر والمرافقة بين الشبان والفتيان ، تمركز بؤر الشعور والوجدان على الجنس الآخر تنحية أي اهتمامات أخرى ، الإيمان بقدرية حتمية غامضة لهذه العاطفة . استباحة ضرب جميع التقاليد الاجتماعية في سبيل إشباعها . الخ) هي مظاهره الوحيدة وأن هذه العاطفة إما توجد بهذه الأشكال الاجتماعية أولاً

توجد على الإطلاق . ومن هذه الزاوية مثلاً سقط مفهوم الحب في الإسلام كمودة ومعاشرة وتعاطف ينمو داخل إطار الزواج الذي يتم بعد إعجاب أو اقتناع عقلي وقلبي وحل محله مفهوم العلاقة الطويلة الحميمة الشبيهة من جوانب بالزواج لكنها قبل الزواج . كما سقطت مفاهيم إسلامية أخرى كالحياء .

والحقيقة أن قصة استزراع مفاهيم الغرب المسيحي المختلفة عن العلاقة بين الجنسين وفرضها على حساب مفاهيم الإسلام تمثل أخطر نقاط الصدام بين الحضارتين في الوقت الراهن . ولا يستهين أحد بمدى التفكك والدمار الذي تحدثه التصورات والممارسات الغربية (لا سيما الإباحية التي أخذت الكنائس هناك تتساهل معها) على المجتمعات الإسلامية . والمطلوب إعادة مناقشة الكثير من المفاهيم الغربية الأصل التي روجت بين المسلمين في مسائل المرأة والزواج وما يتصل بها والتي حاول البعض أقلمتها بالتماس تفسيرات إسلامية لها أو باعتبارها مفاهيم إنسانية أبدية أزلية وليس مجرد تصورات نسبية تابعة لثقافة ما في زمن ما ومتأثرة بتراث المكان والبيئة .

## الكنيسة في الغرب

### لمحة تاريخية واتجاهات معاصرة

تدخل الكاتبة إلى الحديث عن دور وتاريخ الكنيسة النصرانية من خلال تهمة ورد . فالمبشرون والمستشرقون يلقون التهم المتكررة ضد الإسلام بوصفه ديناً جامداً ومتخلفاً أشاع بين أتباعه الجهل والجمود والتعصب . ونرى مريم أن هذه التهمة قد ذاعت وشاعت من جراء الإلحاح عليها إلى حد أن الطبقات الحاكمة والمثقفة في بلاد المسلمين صارت تؤمن ببديهيّة تقول : إن الإسلام هو سبب التخلف العملي والاقتصادي للمسلمين . وهي لا تلجأ إلى التفاصيل المطولة التي ألفناها في الكتابات الدفاعية لتضرب الأمثلة على قيام حضارة إسلامية علمية واقتصادية زاهرة . لكنها تعتمد إلى ذكر بعض الأمثلة التي تلقي بتهم معاداة العلم والتقدم على الغير وتترك لهم عبء الرد عليها إن استطاعوا . تقول : إن المسيحية حكمت وسادت أثيوبيا لما يقارب الألفي عام فما هو حال ذلك البلد اليوم ؟ وتكشف لنا جانباً من مذابح وأفعال وحشية ارتكبتها مسيحيون في هذا البلد ضد مسيحيين آخرين خلال بعض حروب الصراع على العرش في فترة العشرينيات من القرن الحالى . وتعود بنا إلى القرن الرابع الميلادى لنرى كيف أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس أوامره عام ٣٨٩ (أو ٣٩١) بتدمير السيرايوم أو الجمع العلمى الشهير بالأسكندرية . وفاد الأسقف ثيوفيلوس هذه العملية

بجاس وشارك فيها المسيحيون حارقين للتراث الوثنى وحارقين معه لأعمال الفئات المسيحية التي وصفت بالهرطقة بحيث أن ما نعرفه اليوم عن أفكار هذه الفئات منقول عن كتابات خصومهم ضدهم .

وتستشهد مريم جميلة في هذا المجال بآراء لباحث أمريكى هو ر . و . سوثيرن نشرها في كتابه آراء غربية عن الإسلام في العصور الوسطى يقابل فيها بين شخصيتين عاصرتا بعضها في أواخر القرن العاشر الميلادى وأوائل الحادى عشر وهما البابا جربرت وابن سينا . كان تحت تصرف ابن سينا مكتبة سلطان بخارى وتضم عشرين غرفة خصص لكل فرع علمى أو أدبى غرفة مليئة بصناديق الكتب ويسهل الوصول إليها جميعاً كشاف دقيق . أما جربرت فلم يكن أمامه في كل المكتبات التي عرفها في الأديرة والقصور إلا عدد محدود من المراجع لا تكاد تذكر أمام ما كان متاحاً لابن سينا . وينعكس هذا التفاوت العلمى على الأعمال التي كتبها كل من الرجلان فنجد أن أعمال جربرت المحدودة والبدائية تتضاءل أمام بحور العلم التي خلفها ابن سينا وقد طواها النسيان بعد وقت قصير من وفاته . وتتساءل الكاتبة إزاء هذه الوقائع وغيرها : هل الإسلام حقاً هو المسئول عن تدهور المسلمين في النواحي العلمية ومعها الجوانب الاقتصادية أم أن البعد عن الإسلام هو السبب ؟ وهل المسيحية التي ينهال مبشروها الغربيون بالتهم على الإسلام في حالة أفضل سواء في الماضى والحاضر ؟ وماذا عن مظاهر

الفقر والتخلف البشع في بلدان مسيحية عريقة بجنوب أوروبا وأمريكا الجنوبية؟ وهل يسوغ القول أمام هذه المظاهر بأن المسيحية هي السبب وبأنه على المبشرين أن ينشغلوا بإصلاح دينهم؟ وتجب على هذا السؤال الأخير بالإيجاب. إن ما دفع الغرب إلى الثورة العلمية والاجتماعية والاقتصادية التي رفعتة إلى مكانة السيطرة على العالم لم تكن المسيحية بل ظهور ونمو النزعة الإنسانية لليونان والرومان بما أمتزج بها من عناصر وثنية وملحدة وديوية فيما عرف بعصر النهضة بجانب إحياء الأذهان واستارتها بفضل نشاط العلماء والفلاسفة المسلمين. وكانت هذه النهضة بطابعها الثوري العنيف ضد الكنيسة هي المؤدية إلى تقدم الغرب الراهن.

وبعد أن قلب مريم الاتهامات رأساً على عقب وتردها على مطلقها تأخذ في استعراض بعض الجوانب المتصلة بالكنيسة في الغرب مكتملة بذلك ما سبق أن تعرضت له عند الحديث عن البابوية والرهبانية. وتختار أن تبدأ بالانقسام الذي تصاعد من القرن الثامن الميلادي حتى القرن الحادى عشر وأنتج أكبر شقين للمسيحية في العالم وهما الكنيسة الكاثوليكية في الغرب والأرثوذكسية اليونانية في الشرق. ومن الطريف أن كان للإسلام دور غير مباشر في بدء هذا الصدع حيث أضطر الإمبراطور ليو الثالث البيزنطى في عام ٧٢٦ إلى تحريم عبادة الصور والتماثيل في الكنائس تحت تأثير للإمبراطور وأعوانه. لكن الأخير بادر

إلى سحب جنوب إيطاليا وصقلية من سلطة البابا الروحية. فما كان من هرمانجورى إلا أن استعان بشارل مارتل الذى هزم المسلمين في جنوب فرنسا. وانتهت الأحداث باستيلاء البابا على مقاطعة رافينا بشمال إيطاليا من إمبراطور بيزنطة وصار يحكمها دنيوياً ويحصل على ريعها تحت اسم أملاك الكنيسة. وزور البابوات وثيقة اشتهرت في التاريخ باسم هبة قسطنطين تعلن أن الإمبراطور البيزنطى الذى يحمل هذا الإسم قد تخلى لهم عن الأملاك المزعومة. وأخيراً وفي عام ١٠٥٤ ميلادية وبعد رفض الجناح الشرقى للكنيسة لنشاطات البابا الطموحة وبسط سلطته على سائر الكنائس وقع الانشقاق المذكور.

وعلى الرغم من هذه الطبيعة السياسية الجلية لصراع الكنائس الشرقية والغربية فما زالت تعاليمها تنص على إعطاء دور مقدس وغيبى للكهنوت. فرجال السلك الكنسى عند الكاثوليكية هم خلفاء مباشرون للمسيح وموكلون بأداء الطقوس والأسرار ذات الطابع الإلهى كالعامة والتثييت والاعتراف والقربان، وهم بهذا يختلفون عن سائر المسيحيين الذين يوصفون بالعموم أو المدنيين. ونلمح هنا أصل تلك الدعوة التى ينقلها بعض العلمانيين في مصر عن الغرب مطالبين بما يسمى حكومة مدنية وليست دينية وهم بهذا يرمون الإسلام والمسلمين بداء عرفته المسيحية هناك وبتقسيم غير معروف في الإسلام بين ما هو كهنوتى مكلف بأداء وظائف غيبية لا يستقيم الإيمان إلا بها وبين ما هو مدنى أو

مسيحي عادي لا يتمتع بسلطات الكاهن . والقس عند الكاثوليكية كما عند غيرها من المذاهب النصرانية لديه قوة أن يغير النيذ لخبز في سر القربان إلى دم وجسد المسيح كما أن لديه سلطة غفر الذنوب والعتو عنها لأنه يعتبر ممثل المسيح ومتولى تصريف بركاته .

والقس مسئول عن صحة العبادات والقربات كما أن الكنيسة لها سلطة إسقاط العقوبات الدنيوية المستحقة على الذنوب التي غفرت من خلال سر الاعتراف . وهذه السلطة هي الغفران أو العفو أو الإسقاط الذي ذاع صيته في التاريخ بفضل صكوكه التي كانت تباع لطلاب النجاة من الآثام في العصور الوسطى . والعفو لا يمحو الخطيئة كما لا يمحو العقاب الأخرى عن الكبائر لكنه يمحو أو يقلل العقوبة المستحقة في الدنيا عن الذنوب ويمنح بعد ترديد أدعية وعبارات وتوسلات موجهة للمسيح وللعدراء أمام صورهما أو أمام الصليب . وكان لهذا المفهوم وسوء استغلاله أثر كبير في إحداث الثورة البروتستانتية في القرن الخامس عشر ضد فساد الكنيسة الكاثوليكية وانغماسها في المادة والترف وجمع المال وفرض الضرائب والانحلال الخلقي . وكان مارتن لوثر القس الألماني هو الذي جهر بالمعارضة عام ١٥١٧ لبيع صكوك الغفران واتهم الكنيسة بالخروج عن الدين . وقد سبقه في الثورة على فساد الكنيسة شخصيات مشهورة مثل جون ويكليف القس الإنجليزي الذي رفض دعوى تحول النيذ والخبز في القربان وجون هس

القس التشيكي وسافونارولا الأب الإيطالي . وقد أحرق الأخيران بتهمة الهرطقة .

وقبل أن تواصل الكاتبة رحلتها مع تاريخ الانقسام الثاني الكبير في المسيحية بين كاثوليكية وبروتستانتية تذكركم بخلو الإسلام من الوساطة بين الرب والعبد في الدعاء أو العبادة أو العلم أو طلب العفو والمغفرة . ثم تمضي لتقص علينا كيف انتشرت دعوة لوثر في القرن السادس عشر بين شعوب وحكام المقاطعات الألمانية وأيدوه حتى غطت أفكاره منطقة وسط وشمال أوروبا كما كان لترجمته الإنجيل إلى الألمانية أثر خطير في خلق الوعي والروح القومية هناك . غير أن دعوة لوثر إلى الطاعة العمياء للأمراء والحكام أدت أيضًا إلى إيجاد النزعة الاستبدادية في الأمة الألمانية .

وتابع رفع لواء البروتستانتية أوروبيون آخرون في القرن السادس عشر مثل السويسري أو لريش زفنجلي الذي رفض تعاليم الكاثوليكية كبدع وأصر على العودة إلى الإنجيل وحده والفرنسي جون كالفن الذي وضع أسس البروتستانتية النظرية . وفي نفس القرن انفصلت الكنيسة الأنجليكانية في إنجلترا على يد الملك هنري الثامن وراجت قراءة الإنجيل المترجم إلى الإنجليزية في عبادات هذه الكنيسة .

وكان القاسم المشترك الأعظم في هجوم البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكية هو مسألة صكوك الغفران التي استندت إلى رأى يقول :



إن المسيح والعداء والقديسين تجمع لهم رصيد حسنات ضخم لا يحتاجونه ولذلك فقد وضعوه تحت تصرف الكنيسة لتنفق منه على طلاب العفو من الآثمين. وانتقد البروتستانت أيضاً نظام الكهنوت الهرمي وعبادة القديسين والصور ونظام الأديرة وبعض الطقوس.

غير أن حركة الإصلاح الكنسي والديني جلبت معها كوارث على المسيحية جعلت منها بعد ذلك لقمة سائغة ضعيفة لتيارات الإلحاد والمادية التي هيمنت على الغرب في الثلاثة قرون الأخيرة. فع إسقاط سلطة الكنيسة والدعوة إلى أن يفسر كل إنسان الإنجيل حسب فهمه راجت الأهواء وتضاربت الآراء والأمزجة في العقيدة وأسسها. ومع ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية العامية وترك اللاتينية انفتح الباب لمزيد من التحريف فيه. ومع التخلي عن كل من البابوية واللاتينية بطابعها الوحدوي الشامل انفتح الباب للقوميات العلمانية حيث نشأت في كل بلد أوروبي بروتستانتي كنيسة قومية محلية تابعة للحكومة وتحت سيطرتها مما أخضع الدين للسياسة القومية بتقلباتها.

أما من ناحية العقيدة فقد احتفظت البروتستانتية بالأسس الجوهرية للكاثوليكية كالنثيت والتجسد والخطيئة الأصلية والغفران من خلال الصلب. ونتيجة لهذا فقد بقيت حركة الإصلاح أسيره لنفس عيوب من انقلبت عليهم من انعدام الأصل الإلهي للعقيدة ووقوفها عقبة في سبيل التقدم الفكري والعلمي مما دفع بتيارات الإنسانية والعلم إلى

الانقلاب عليها هي الأخرى والمضى قدماً في تأسيس ما أطلق عليه أسس العصر الحديث من فلسفات وتصورات مادية طبيعية بجثة لا تفصح مكاناً لوجود الإله. ومع ترسخ جذور هذه الفلسفات والحضارة القائمة عليها وجدت الكنائس نفسها في موقف صعب لا سيما وهي ملوثة بدماء حروب الإصلاح ووصمة محاكم التفتيش الكاثوليكية الرهيبة. وكانت في غمرة انشغالها بهذه الأمور قد أفلست من أى سلاح فكري يواجه الملحدون والماديين. وضاعف من سوء وضع المسيحية زوال قوتها الدنيوية بعد هزائم الكاثوليكية على يد البروتستانتية ثم بعد ذلك في عهد الثورة الفرنسية.

وبدأت آثار هذه التراجعات تظهر في سلسله من التطورات تمتد إلى العصر الحديث وتؤثر كثيراً على أوضاع الكنيسة عموماً في الغرب. وأبرز هذه التطورات انقلاب العديد من مؤيدي الكنيسة ومفكريها وإبانها إلى نقاد لها وطاعنين في عقائدها بل وفي كتابها المقدس ناكرين أنه وحى إلهي معتبرين إياه مؤلف بشري وضعته أيد عديده بعد قرون من وفاة الأنبياء والآباء. وكانت هذه هي الحركة الفكرية الكبرى التي اشتهرت منذ القرن التاسع عشر باسم «التقد الأسمى» وخلصتها إثبات الأصل البشري للإنجيل الموجود لدى الكنيسة. وتسعى حركة التحديث كما أطلقوا عليها إلى إنكار المعجزات الواردة في الكتاب المقدس ضمن أشياء أخرى.

وتختار مريم جميلة أحد وجوه هذه الحركة المعاصرين لتعرض بعض أفكاره . وهو قس فرنسي سابق يدعى الأستاذ لوازى . يرى أن المسيح لم يكن سوى أحد الثوار اليهود المتأثرين بفكرة ظهور مخلص وأنه قد صلب عقاباً على الثورة . أما المسيحية التي تشكلت كدين حول قصة هذا الثائر فليست أكثر من تجميع لأساطير وثنية كانت معروفة في المنطقة كأسطورة أدونيس (التي أشرنا إليها في فصل سابق) واحتفالات الربيع وقيامه الإله من الموت .. إلخ ثم نسبتها إلى المسيح على سبيل التكريم ويرى لوازى أن قصة قيامة المسيح في اليوم الثالث بعد الصلب المزعوم تتوافق مع حدث مماثل في قصة أدونيس . وهو يحمل أبعائه بالتشكك في صحة الأناجيل الموجوده واصفاً إياها بالملحمة غير المنظمة التي بدأت في شكل شذرات حول سيرة المسيح ثم أضيفت إليها قصص المعجزات والنبوءات ونسقت بحيث تخدم قصة الخلاص على يد المسيح والتجسد الإلهي فيه . وترى الكاتبة أن أمثال هذه الاتجاهات في المسيحية تذهب إلى أن كم التعاليم والعقائد الذي آلت إليه هذه النحلة الكنسية قد أصبح غير مبرر من الناحية العلمية والتاريخية .

وهي تنتقل لمتابعة تيار ثان من تيارات المسيحية المعاصرة نشأ على يد قسيس بريطاني هذه المرة هو . ر . إنج . ويتلخص هذا التيار في محاولة الدفاع عن المسيحية وإيجاد دوره في عالم اليوم بتفسيرها على أنها عقيدة تمثل عقل وروح الإنسان الغربي والجنس الأبيض وأنها لذلك

فضل ما يجب أن يعتنقه هذا الإنسان من فلسفات . ويكاد هذا الاتجاه يقتل المسيحية ويطن في أصولها وهو يدعى أنه يدافع عن وجودها ويبرره . ويذهب القس البريطاني إلى أن الأسويين رفضوا المسيحية إبان ظهورها مفضلين اليهودية ثم اندفعوا إلى الإسلام . ويؤكد ذلك في يومنا هذا عدم نجاح التبشير الغربي في بلدان آسيوية عديدة . أما أوروبا حسب تصوره فقد اعتنقت المسيحية بعد أن احتفظت هذه العقيدة بالتأثيرات اليونانية والرومانية قوية داخلها حتى اصططغت بها . ويدلل إنج على دعواه بأن القديس بولس كان يهودياً من المهجر وليس من فلسطين وتم رسائله عن انغماسها في المصطلحات والأساليب اليونانية كما لا يمكن فهم الإنجيل الرابع بدون الرجوع إلى فيلو الذي كانت عقيدته يونانية أكثر منها يهودية . ويرى القس إنج أن المسيحيين الأول كانوا يقولون بتشابه أفكارهم مع الفلسفة اليونانية بل يذهب القديس أغسطين إلى القول بأن كلمات قليلة فقط هي التي تفرق بين المسيحية وبين فلسفة أفلاطون .

ويقول الباحث البريطاني : إن المسيحية المتأثرة باليهودية لم تعش طويلاً وكانت ذات انتشار محلي محدود . وعنده أن حركة الإصلاح الديني كانت تمرّداً على الجانب اللاتيني أو الروماني في المسيحية وعودة في نفس الوقت إلى أصولها الهيلينية أي اليونانية . وتعتبر مريم جميلة عن استغرابها من هذه المحاولة العصرية التي تنتهي إلى تحويل المسيحية إلى

عقيدة باردة محدودة لا تصلح إلا للأقلية كما يقول القس .  
ونصل إلى الاتجاه الثالث الذى أفرزته حركة التجديد أو التحديث  
فى الكنيسة الغربية عموماً وهو النتيجة المنطقية لضعف البضاعة الفكرية  
والانكسار أمام موجات المادية والإلحاد والتشكك فى الإنجيل  
والعقائد . وهنا نرى التسبب الكامل فى العبادة وإدارة الكنائس  
والتفكير والسلوك . وتطوف بنا مريم جميلة فى جولة صحفية داخل  
التيارات المجددة أو المطورة .

نبدأ فى أمريكا فى أواسط الستينات حيث نجد جماعة من الكهنة  
تسمى جماعة «موت الإله» ترى كما ذهب الفيلسوف الألمانى نيتشه أن  
الإنسان العصرى قد قتل الإله (!) باستغنائهم عنه وأنه يجب على الدين  
وضع هذا الموقف فى الاعتبار وبناء فكر يتمشى مع مجتمع ما بعد  
الإله . ثم نخرج على تيارات مسيحية أمريكية أخرى فى نفس الفترة  
تتحظى بانتشار لأنها جددت فى أشكال العبادة بعد أن ضاقت بموسيقى  
الأرغن الرتيبة التى تصاحب القداسات فأدخلت فرق الجاز والموسيقى  
الصاخبة إلى الكنيسة لجذب الشباب والمراهقين . وتعلق الكاتبة على  
ثبات أشكال العبادة فى الإسلام وأخذها عن الرسول عليه الصلاة  
والسلام بحيث أنه لوزار المسلمين اليوم لوجدهم على نفس ما علمهم  
من المناسك والعبادات . وترى أن هذا الأمر عامل يقين ووحدة بين  
المسلمين .

ونقرأ عن أسقف نيويورك يعلن أن عقيدة التثليث أصبحت عبثاً  
يجب التخلص منه وأستاذ اللاهوت بمدينة أمريكية أخرى يدعو إلى  
عدم استخدام كلمة «الرب» وثالث يقول : إن المسيحية يجب أن  
تخضع لنا موس التطور والتغيير . وعن حفلات راقصة داخل كنيسة  
بواشنطن وعن كاهن فى مدينة نيويورك يعين مستشار لبعض الفرق  
الموسيقية ويطوف معها فى الملاهى الليلية وعن مجموعة من القسس  
الشبان تقيم خدمة استشارية للشواذ جنسياً فى سان فرانسيسكو ونسمع  
لرأى استرالى اعتنق الإسلام بعد رفضه للمسيحية : إن أغلبية  
الاستراليين لم تعد تؤمن بالدين ونتيجة لخلو الكنائس يلجأ الكهنة إلى  
حيل متنوعة كى يجلبوا الناس كإقامة قداسات خاصة للراقصين  
وما أشبهه .

وتحدثنا مريم جميلة عن جماعات من العصرين تحاول يائسة  
التمسك بالدين وتقديمه للناس وسط سيطرة الفكر المادى فتلجأ إلى  
حذف ما لا تراه يتمشى مع العلم من العقيدة المسيحية مما يؤدي  
بالتدرج إلى إنكار الدين كله . بينما يعمد آخرون إلى تحويل الطقوس  
الكنسية إلى مهرجانات لاجتذاب الناس كما تجتذبهم المحال التجارية  
ويلجئون فى ذلك إلى استخدام أساليب العلاقات العامة والإعلام  
والإقناع النفسى التى برع الأمريكيون فى توظيفها . ومن ذلك قيام أحد  
القسس الأمريكين . بإيقاف مجموعة من الفتيات الجميلات داخل

أطر من الزهور أمام الكنيسة ليعلن بذلك عن خطبة له بعنوان « الفتاة التي أريد أن أتزوجها . » وكان قسيس آخر أبرع في التذكير حيث ابتدع فكره يوم الأحد السعيد الذي تعرض فيه أفلام على مجموعات مختلطة من المراهقين والمراهقات على أن يعقب ذلك مباشرة عظة . ويقول هذا القس : إنه لا بد من الإسراع بالعظة بعد انتهاء الفيلم مباشرة وإلا سارعوا بالخروج من الكنيسة . ويضيف أن الأضواء تحفت في صالة العرض حتى يتمكن الفتيان والفتيات بالصورة الطبيعية الملائمة لسنهم شريطة ألا يتعدى ذلك الحدود ! وينصح القس الفتيات اللواتي لا يجدن رفقاء بارتداء ملابس أفضل كي يجتذبن الرجال .

وتتد هذه الموجة إلى مجال العلاقات الجنسية تحت اسم الأخلاقيات الجديدة . فجالس الكنائس في أمريكا وأوروبا لا تجد مانعاً في ممارسة الجنس قبل الزواج بينما ذهب إعلان كنسى إلى القول بأن الشذوذ قد يكون أكثر تحقيقاً للذات من الزواج . وفي اجتماع عقد عام ١٩٦٥ في كلية اللاهوت التابعة لجامعة هارفارد اتفق أكثر من تسعائه قس وطالب على أن الأخلاقيات الجديدة هي أمر صحى كمحاولة لتحقيق مقولة القديس بولس « بأننا خلال المسيح تحررنا من الشريعة » وقال كاهن بارز : إن قوائم الممنوعات والمباحات لا معنى لها بينما أكد آخرون أنه لا يجب على الكنيسة أن تدين تماماً أى علاقة جنسية . وترى النزعة الأخلاقية الجديدة أن المقياس النهائى لما هو صواب وخطأ

ليس هو الأمر الإلهى بل رؤية الفرد لما هو خير له ولجيرانه في موقف معين .

ولا تمر هذه التيارات الكنسية المعاصرة دون أن تثير ردود أفعال مضادة . فترى مراهقة أمريكية أن عيب الكنيسة هو أنها تخلت عن قيادة المجتمع لتستسلم للإباحية السائدة . كما يقول قس كبير إن التنازل والتسوية في العقيدة يعنى إنكار أصلها الإلهى . وتؤيده الكاتبة في ذلك الرأى إلا أنها تذكره بأن المسيحية التي وضعها القديس بولس كانت بشرية المنشأ ولا يوجد مجال فيها للنص المقدس الثابت الأصل والشريعة الراسخة الشاملة . وكم للمسلمين من دروس فيما آل إليه حال العصرين والمجددين الكنسيين .

ومع هذا الإفلاس المضاعف للكنيسة في الغرب والانهيار في جهات مختلفة والارتباط بالحضارة الغربية كان من الطبيعى أن ترى هذه المؤسسة في الإسلام عدوها الأكبر الذى يمتلك كل ما تفتقر إليه من مقومات الأصل الإلهى والشريعة والثبات واليقين . كان يمكنها أن تتقاضى بل وتتعامل مع البوذية والهندوكية كعقائد صوفية غير مؤثرة . لكنها أمام القوة الحضارية التي يمثلها الإسلام تم عليها الصدام معه . وكانت عملية التبشير هي نقطة اللقاء في هذا الصراع .

## التبشير والصراع بين الإسلام والغرب

ترى مريم جميلة أن المدخل الوحيد لفهم ظاهرة هجمة وكالات التبشير ومؤسساته على العالم الإسلامي هو عداء الغرب المسيحي للإسلام والمسلمين . وتسعى لبحث جذور وأسباب العداة مستندة إلى كتابات باحثين غربيين . وتنقل عن أحدهم قوله إن وجود الإسلام في حد ذاته يثير عميق الانزعاج عند الغرب . فالإسلام في نظر الغربيين خطر يزيد من حدته غموضه وعدم قابليته للوضع تحت منظار التنبؤ والقياس . والغرب لم يكن في البداية يستطيع فهم الإسلام ولم يجد العون على ذلك من أى مصدر جديد أو قديم . وعلى الرغم من وجه الشبه الذى لاحظته الغربيون بين الإسلام واليهودية - حسب رأى الباحث الغربى - إلا أن اليهودية بتخلفها وخضوعها للمسيحيين لاسيما في العصور الوسطى لم تكن مستعصية على الفهم والإسقاط من الاعتبار كقوة مهزومة ضعيفة . أما الإسلام فكان حتى العهود الحديثة قوة ناهضة ناجحة متجددة مها ضربتها المحن . وبالتالي لم يكن الغرب ليستطيع أن يتحكم على دين اعتنقه رجال يكبرهم الغرب نفسه ولا يشك في حكمتهم كصلاح الدين الأيوبي والفارابي وابن سينا . ويذهب كاتب غربى آخر إلى أن سبب عداة الغرب المسيحي للإسلام يكمن في توسع هذا الدين ومجاهته للنشاط التنصيرى وقيامه بالدعوة لجلب الأتباع والمؤمنين . ويقول هذا الباحث وهو عضو في

لجنة التبشير بكنيسة سكتلندا ان الأديان الأخرى كاليهودية والهندوكية لا تنشر نفسها بينما يطرح الإسلام نفسه كدين عالمى وينافس المسيحية في هذه الدعوة . ويضيف : أن المسلمين الذين أسقطوا الصليبان في الشام وغيرها يتطلعون الآن إلى بناء مساجدهم في قلب إنجلترا وإسقاط الصليبان حتى في الكنائس الريفية النائية بذلك البلد . والإسلام كما يقول الباحث المبشر آخر دين كبير جاء بعد المسيحية وعقيدته نسخ هذا الدين وإنكار حقيقته . والإسلام هو الدين الوحيد الذى هزم المسيحية في فترات الصراع بينهما وهو الوحيد الذى يتصدى لها في أجزاء كثيرة من العالم . وهو الذى يتحدى المسيحية بإنكار كل مبدأ من مبادئها الكبرى ويجعل من هذا الإنكار عقيدة راسخة عنده سواء تعلق الأمر بأبوة الرب أو بنوة المسيح للرب وتجسده وصلبه أو قيامته . والقرآن جاء ليصحح هذه المفاهيم . ولا يوجد دين آخر يتخذ هذا الموقف من المسيحية والإسلام فوق هذا وذاك يحير المسيحية برفضه الاستسلام بعد هزائمه السياسية في العصر الحديث وببساطة عقيدته في التوحيد وخلوها من مظاهر التعقد والأسرار الكهنوتية . والمسلمون هم وحدهم الذين يجابهون المسيحية بدين موثوق في أصله التاريخي وبكتاب يؤمنون بأنه وحى ولا يستطيع خصومهم أن يشككوا في نسبه إلى الرسول أو في دخول التحريف عليه .

وهكذا نجد أن جذور العداة ضاربة . وهى لا ترجع إلى طمع

السياسى للبلدان الإسلامية يتواكب مع ما يسميه بحركة عصرية تدعو إلى تقليد الغرب ونقل نماذجه ومثله الفكرية والاجتماعية . ويركز على أهمية النظام التعليمى الحديث بالنسبة لجهود المبشرين حيث يرى أنه يعرف الناشئة وهم فى سن الانطباع على حضارة الدين المسيحى وتمتدح الحكومات المقامة فى البلاد الإسلامية والتي نشرت مثل هذا النظام على حساب التعليم الإسلامى . ويلمح فى هذا الوضع الجديد فرصة لم تتح من قبل منحها الرب حسب قوله لتنصير الطفولة المسلمة . ونتركة يتحدث : لقد فقد الإسلام قوته فى كل مكان . وبينما كانت غيرة الحكام المسلمين فى السابق تمنع جهود التبشير بين المسلمين أو تعرقلها فإن سيف الإسلام الآن قد انكسر وذلت قلوب المسلمين وخضعت فى كل الأرجاء بسبب الكوارث التى قامت بهؤلاء الحكام . ولا ريب أن وقوع البلدان الإسلامية تحت الحكم الأوروبى بما يعنيه من استقرار الإدارة والتعليم يعنى حتمية انهيار المعارضة الإسلامية . وقد عقد ممثلو الجمعيات التبشيرية مؤتمراً لهم فى القاهرة منذ وقت قريب أكدوا فيه أن العناية الإلهية فتحت الأبواب أمام تنصير المسلمين» .

وتستخلص الكاتبة من هذه الأقوال وما يشابهها سنة لا تتغير من سنن الهجوم الغربى على الإسلام . فهناك التوسع العسكرى والاقتصادى والثقافى للغرب ويتواكب مع تغريب البلاد الإسلامية بالكامل وضياع

اقتصادى أو توسع استعمارى بقدر ما تفسر بالخوف أمام تحدى الإسلام الدينى والحضارى والسياسى ونرى أن الأطلاع الإقتصادية الاستعمارية هى التى تفسر بالعداء للإسلام ولا تفره . فالغرب يطمع فيما عند المسلمين من موارد لأنه يكرههم ويبغض أن تكون بين أيديهم ويريد أن ينتزعها منهم لعلهم يتكسون ويضيع معهم دينهم . والغرب يتوسع فى أراضيهم ليستأصلهم ويضيع عقيدتهم وهنا تربط الكاتبة بين حركة الاستعمار فى العصر الحديث وبين العداء للإسلام والتمكين للنصرانية فى بلاد المسلمين . وتقتبس مريم جميلة فى هذا الصدد فقرات مطولة من كتاب الطفولة فى العالم الإسلامى الذى ألفه المستشرق صمويل زوير عام ١٩١٥ . ويهلل زوير لظواهر الاحتلال الإنجليزى للعراق والإيطالى لليبيا التى كانت تحدث فى ذلك الوقت ويتنبأ بأنه مع امتداد السيطرة الاستعمارية على العالم الإسلامى من الهند وما وراءها إلى المغرب فإن العادات والتقاليد والقيم والقوانين المسيحية الأوروبية ستنتقل إلى بلاد المسلمين وتهيئهم بعد ذلك لتقبل المسيحية نفسها بعد ضياع الإسلام . ونستغرب عندما نجد هذا الكاتب الذى يقول عنه الكثير من تلاميذ المستشرقين عندنا انه باحث جاء يصفق بيديه فرحاً لانتشار الملابس الغربية بين المسلمين لأن ارتداء الأحذية والجوارب كما يقول بالحرف ستزيد من صعوبة الضوء ! .

ويزيد الاستغراب والتساؤل عندما يقول زوير إن ضياع الاستقلال

أراضيها واستقلالها في هذه المجالات ثم إضاعة الإسلام بعقيدته ومظاهره وإحلال العقائد الغربية وعلى رأسها النصرانية محلها . وهي تؤكد أن النجاح الذي حققته جهود التبشير في السنوات الأخيرة في إندونيسيا وباكستان لم يكن ليحدث إلا في ظل سيطرة غربية كاملة على حكومات هذا البلاد التي شجعت بالفعل النشاط التنصيري ودعمته لإرضاء مسانديها الغربيين محتجة بشعارات التسامح والليبرالية والعلمانية . وهي تضرب لنا المثل على ذلك الاتجاه بما وقع في إندونيسيا عقب الانقلاب العسكري الموالي للغرب الذي حدث هناك عام ١٩٦٦ . وتختار لنا شهادة مجلة تايم الأمريكية في ١٦ يونيو ١٩٦٧ :

إن هذه الأمة الإسلامية اليوم مسرح لنشاط تنصيري متصاعد أطلقت عليه جريدة مسيحية أمريكية وصف أكبر حركة باتجاه المسيحية في الفترات الحديثة . إذا يقدر أن الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية قد اكتسبت حوالي ربع مليون مناصر خلال الأشهر العشرين التي أعقبت الثورة المضادة للشيوعية . وقد اعتنق المسيحية في جاوة الشرقية والوسطى في تلك الفترة خمسة وستون ألف شخص بينما انضم ستة عشر ألفا إلى الكنائس في سومطرة الشمالية . وأقيمت ثلاثون كنيسة جديدة في إقليم واحد بغرب بورنيو تضم خمسة آلاف شخص . ونظمت في العاصمة خمسون حلقة لدراسة الأناجيل التي نفذت طبعاتها لاشتداد الطلب عليها . وقد خصص مجلس الكنائس الأمريكي حوالي ثلث

مليون دولار لمساعدة الكنائس البروتستانتية بإندونيسيا على استيعاب الأعضاء الجدد .

وعلى الرغم من أن معظم المنتصرين إن لم يكن كلهم من القطاعات الوثنية أو المسلمة بالنسبة فقط إلا أن مجرد قيام هذا النشاط الوقح المدعم بالأموال الأمريكية في بلد تصفه المجلة الأمريكية ذاتها بأنه مسلم بنسبة تزيد على ٩٠٪ يدل على أمور خطيرة .

وبعد أن أرست مريم جميلة الخلفية الحقيقية للنشاط التبشيري وارتباطه بالاستعمار والتغريب تمضي في استعراض بعض أساليب المبشرين . وتنتقي مثلاً من مخطط وضعه أحدهم لمنطقة غرب أفريقيا ونيجيريا في مواجهة الإسلام ومدته .

ومن الغريب أن نجد المبشر يضع خطة ويعنونها باسم الجهد المنظم لمكافحة تقدم الإسلام في غرب أفريقيا . وتتساءل مع الكاتبة هل المطلوب نشر النصرانية أم ضرب الإسلام أم أن الاثنين لا ينفصلان؟ وتتساءل نحن عمن يمكن لهؤلاء . أن يضعوا خططهم وينفذوها هل هي الحكومات الاستعمارية التي زالت رسمياً أم خلفاؤها الذين يتربعون على رءوس السلطة تحت اسم الحكام الوطنيين المستقلين؟ ونسير مع خطة المبشر لنجده يوصي بإصدار كتب باللغات العامية تتناول دحض ما يسميه الافتراءات المحمدية القائمة على الجهل . ويقول : إن هناك مواداً كافية متاحة حول هذا الموضوع في مصر والهند والمطلوب نقلها إلى

غرب أفريقيا حتى تستخدم الأسلحة المصاغة على الحرب ضد الإسلام في كل مكان .

والخطوة الثانية في مشروع البشر أخطر من الأولى : يجب أن تدرس في مدارس البعثات التبشيرية كل أخطاء الإسلام وأن يحذر التلاميذ منها . ومدارس البعثات التبشيرية هذه هي القائمة بيننا بأسماء أجنبية معروفة والتي تتقاضى أعلى المصروفات . أما الخطوة الرابعة فننادى بعقد اجتماعات خاصة للمحمدين كما يسميهم المبشر والبحث في الوسائل التي يمكن بها النفاذ إليهم والتأثير عليهم وترك دينهم والإقبال على النصرانية . والخطوة الخامسة لافقة للنظر : يجب احتلال المراكز (المدن) المحمدية الهامة حيث أن الدعوة الإسلامية تنتشر منها إلى المناطق البوذية المجاورة . وتتساءل عن سيحتل هذه المراكز وكيف سيكون الاحتلال ؟ والخطوة السادسة خطيرة وذكية : يجب تعيين مبشرين أو دعاة متجولين للنصرانية على غرار الدعاة المسلمين المتنقلين . وعلى كل منهم أن يمكث في القرية الواقعة ضمن نطاق عمله مدة تكفي للتأثير على الناس وإقامة مكان للعبادة . ويجب الاعتناء باختيار هذه العناصر إذا كانت هناك قرى مسلمة في المنطقة . والخطوة السابعة ليست غريبة : يجب إقامة كلية مسيحية تضم الخبراء في الشؤون الإسلامية في كل مكان يكون فيه المسلمون أغلبية .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود يقف الإسلام الأعزل يتحدى

المخططات . ويحاول الكاتب الأمريكي ألان مور هيد في كتابه النيل الأبيض (الصادر عام ١٩٦٠) تحليل التحدي الإسلامي تمهيداً للتغلب عليه . ويحدد التحدي الإسلامي في بساطة العقيدة فكراً وممارسة وغياب الكهنوت وسهولة العبادة دون وساطة . ويرى مور هيد أن هذه السمات تلائم العقل الأفريقي الساذج والمتخلف الذي لا يستطيع أن يفهم أسرار وفلسفات المسيحية . وياله من اتجاه عنصري يسم الأفاقة بالبلاهة وهو يخطط لتنصيرهم ! غير أن الكاتب نفسه يعود ليكشف عن حقيقة غربة النصرانية عن أفريقيا وتناسب الإسلام معها ورسوخه في تربتها . فيرى أن المسيحية جاءت إلى القارة السوداء بطراز معارى أوروبي للكنائس وبثياب أوروبية ضيقة لا تتفق والمناخ الحار . أما عمارة المسجد لمساحاته الممتدة تحت القباب المستديرة فيتواءم مع البيئة ونوعية الأرض كما يناسبها الجلباب العربي الفضفاض .

وتنصب جهود المبشرين الأجانب حتى وقتنا الراهن في محاولة استنباط شكل من الممارسة الكنسية يكون ملائماً لأفريقيا وآسيا ويمكن عقيدتهم من الوقوف في وجه الإسلام إلا أن مريم جميلة تلاحظ بوعي أن المؤسسة الكنسية الضخمة للمسيحية هي نبت أوروبي سار مع مسار التاريخ الغربي وتطور مع تطورات الحضارة الأوروبية في وقت ضعفت فيه الكنائس الشرقية وذبلت . ولا ريب أن أى محاولة لتغطية الوجه الغربي الأوروبي للمسيحية العالمية هي محاولة مصطنعة فاشلة .



وتمر مريم جميلة على قضية يثيرها المبشرون في أفريقيا لتشويه صورة الإسلام بربط التجار المسلمين بالرق والوصول من ذلك إلى أن الإسلام يناصر الاستعباد . وهنا نقف مرة أخرى لنسأل هل هم ينشرون المسيحية أم يجارون الإسلام ؟ وتذكر الكاتبة بأن الكتب المقدسة للمسيحيين لا تقول شيئاً عن الرق إلا في رسائل القديس بولس حيث تأمر العبد بالطاعة والاستسلام لسيده إلا أنها لا تتعرض لحاله على الأرض بينما يحث الإسلام على عتق الرقاب ويجعل ذلك كفارة عن بعض الذنوب ويسد ينابيع الاسترقاق ويفتح باب التحرير . وتلاحظ مريم أن النصارى والمسلمين كان لهم دور في تجاره الرقيق بأفريقيا في القرن التاسع عشر غير أن قيام بعض المسلمين بذلك كان مخالفاً لتعاليم الإسلام . ثم تذكر بأن نظام العبودية ظل قائماً في أمريكا المتحضرة حتى عام ١٩٦٥ بينما ما زالت آثار التفرقة العنصرية والتعصب ضد السود قائمة حتى الآن في الكنائس المنفصلة . ولا يغير تغرب الأسود وتقبله للنصرانية من الأمر في شيء . فهما فعل يظل أقل في المكانة عن الأبيض .

وتحدد نظرة كل من المسيحية والإسلام إلى المسألة العنصرية أو الطبقيّة في قضية وحدة العبادة . فإزالت كنائس البيض منفصلة عن كنائس السود حتى الآن في مناطق واسعة من أمريكا وفي كل أنحاء جنوب أفريقيا . وعندما عقد مؤتمر كنسى في هذا البلد الأخير أواخر

عام ١٩٥٤ قسمت القائمة إلى نصفين خصص أحدهما للكهنة البيض والآخر للسود جلسوا ليبحثوا في مشكلة التفرقة العنصرية . وقد خطب في الجمع قس أسود فقال لهم : إنهم قسموا المسيح كما قسموا القاعة وسخروا منه وهم يقولون إنه ابن للأب . فإلى أي فريق ينحاز الأب وإلى أي جماعة يذهب المسيح إذا عاد إلى الأرض . وأدان قس آخر دفاع الكنيسة البروتستانتية في جنوب أفريقيا عن مبدأ التفرقة العنصرية مذكراً قاداتها بأن الحب الذي يقولون إنه جوهر المسيحية لا يتحقق عندما يحرم طفل أفريقي من التمتع بحمال حديقة مقصورة على البيض أو يمنع عامل أسود من الجلوس مع مخدوميه البيض في كنيسة واحدة .

وتتفق مريم جميلة صورة مناقضة تعبر عن المساواة في العبادة عند المسلمين . وهي صورة رسمها قلم كاتب إنجليزي زار القاهرة في مطلع القرن الحالى ودخل أحد المساجد خلصة ليفاجئ في صفوف المصلين بنماذج لكل طبقات ومستويات المجتمع المصرى تقف متراسة متوحدة خاشعة لله في الصلاة بدون تفرقة أو تمييز . ويحدثنا الكاتب عن الفلاح الواقف بجانب التاجر الغنى والعامل المكود والطالب لابس الثياب الأفرنجية والشيخ بعباته . وتعدد أشكال وألوان الملابس داخل المسجد ولكن تتوحد القلوب وأركان الفريضة لتدل على أعظم إنجازات الإسلام كما وصفها المؤرخ البريطانى المشهور توينبى وهى إلغاء المشاعر العنصرية .

وتعود الكاتبة لتلقي الأضواء على بعض أساليب المستشرقين لافتة النظر إلى التفاصيل بعد أن تعرضت للخطوط العامة . ونظر معها لنجد الاستغلال البشع ممثلاً في تلك الجماعة التبشيرية التي استقرت بالمغرب في أوائل القرن الحالى واحتمت بالاستعمار الفرنسى والأسباني لتأخذ أيام المسلمين في مدينة طنجة وتنصرهم لقاء الخبز والمأوى ثم ترسل لهم ليكونوا مرتزقة في خدمة الجيش الفرنسى الاستعماري في حروبه ضد الشعوب المسلمة وغير المسلمة . ونلمح معها التدنى والحقارة في قصة ذلك المبشر الذى أقنع أحد الأطفال الهنود المسلمين بأنه إذا صلى للمسيح ورسم علامة الصليب على صدره فإن فريقاً لكرة الكريكت سيتنصر على الخصوم بفضل الرب . ثم نرى كيف يضع المبشرون أساطيرهم حول مهارتهم في التنصير لنقرأ ما كتبه أحدهم عن شاب دمشقي من عائلة مسلمة كفر بالدين بعد اطلاعه على العلم الحديث لكنه عاد وآمن بالمسيحية عندما أخبره صديق نصراني أن المسيحية لا تحرم الموسيقى والرسم كما يفعل الإسلام المتعصب .

لكن الجانب الأخطر في كل هذه النشاطات التنصرية كما تلاحظ الكاتبة يكمن في جهل المسلمين بها وسليبتهم إزاءها وتواطؤ الحكومات في البلاد الإسلامية معها . فالدعوة الإسلامية غائبة عن الأقليات غير المسلمة المقيمة في بلاد المسلمين . والحكام العلمانيون تخلوا عن واجب الحاكم في الإسلام الذى يحتم عليه رعاية القيم الدينية لمواطنيه وتشجيع الدعوة لنشر الإسلام . ويقف المسلمون في حالة من الغفوة المشينة إزاء

لكن الجانب الأخطر في كل هذه النشاطات التنصرية كما تلاحظ الكاتبة يكمن في جهل المسلمين بها وسليبتهم إزاءها وتواطؤ الحكومات في البلاد الإسلامية معها . فالدعوة الإسلامية غائبة عن الأقليات غير المسلمة المقيمة في بلاد المسلمين . والحكام العلمانيون تخلوا عن واجب الحاكم في الإسلام الذى يحتم عليه رعاية القيم الدينية لمواطنيه وتشجيع الدعوة لنشر الإسلام . ويقف المسلمون في حالة من الغفوة المشينة إزاء

وتقف مريم عند نشاط المبشرين في مجال العلاقات الاجتماعية في البلاد الإسلامية . لتلاحظ أنهم يهتمون كثيراً بما يسمونه تحرير المرأة أو تنفيرها من الإسلام وتعويدها على العادات الغربية لهن الإيمان في نفسها وزعزعتة أو وأده في أطفال المستقبل . ويركز المبشرون في العديد من المناطق على ضرورة نخلي المرأة المسلمة عن الزي المحتشم وتمردها على

وببساطة شديدة انتهت زنزبار كمعقل إسلامي كبير وقديم في شرق أفريقيا .

ويمتد الأخطبوط التبشيري بتحالفاته السياسية الواسعة إلى قلب بلد كان يظن أنه بمنجى من مخططات التنصير والتغريب وهو باكستان التي قامت على الإسلام لجمع شمل المسلمين . فما هي الصورة في ذلك البلد؟ ولنترك الأرقام التي تذكرها مريم جميلة تتحدث . ففي عام ١٩٥٨ ذكر المسيحيون أن أعدادهم هناك تبلغ حوالي ثلاثمائة ألف وقالوا إن نسبة زيادة المسيحيين خلال عشر سنوات من عام ١٩٤١ إلى ١٩٥١ بلغت حوالي ٣٠٪ وكانت الزيادة في منطقة البنغال الشرقية وحدها (بنجلاديش الآن) تصل إلى ٤٥٪ ووصلت في منطقة لاهور بالجزء الغربي من البلاد إلى ٥٠٪ بينما ارتفعت في مدينة كراتشي إلى مائة بالمائة . أما في الفترة من عام ١٩٥١ - ١٩٥٨ فقد زادت الأعداد بنسب أعلى لاسيما فيما يتصل بالمنضمين إلى المذهب الكاثوليكي . وترجع نشاطات التنصير إلى أواخر الأربعينات حيث أستغلت الهيئات التبشيرية حالة الفوضى السائدة عقب التقسيم وما تبعه من متاعب ونشوء تجمع لاجئين كبير في الانتشار بين الأوساط الإسلامية والتركيز عليها . وقد ذكرت جريدة العالم الإسلامي التي تتبع إحدى جهات التبشير الأمريكية أن المجتمع الإسلامي قد ساهد الاضطراب عام ١٩٤٧ مما أدى إلى أن يصبح المسلمون أكثر تقبلاً لصداقة المسيحيين

المبشرين المسلحين بالأموال الطائلة والنفوذ السياسي والذين يسخرون المؤسسات الاجتماعية الضرورية كالمكتبات والمدارس والملاجيء والمستشفيات ودور الرعاية ومراكز الشباب لنشر دعوتهم حتى في داخل بلاد المسلمين أنفسهم . والمبشرون ينوعون أساليبهم ما بين الإقناع والإرهاب والإغراء واستغلال الجهل والحاجة . وهم يجتذبون الفقراء بالمال أو تزويد المسكن أو الإرشاد الزراعي أو الخبز أو فرص التعليم أو مناصرة قضايا المظلومين بالاستناد إلى الحماية الخارجية . وهكذا يتحول المبشرون إلى تيار اجتماعي سياسي قوى ينافس الدولة ويخيفها إن لم يسيطر عليها . وبهذه الطريقة ضاعت الأغلبية المسلمة في كثير من الدول الأفريقية واهتزت في بلاد إسلامية كبيرة كأندونيسيا والباكستان .

وعندما قام حاكم مسلم مستنير كأحمد ويبلو وأبو بكر تيفاوا بالبو في نيجيريا أسقط فوراً في انقلاب عسكري دموى دبرته الصليبية الدولية بالتحالف مع الصهيونية وكانت جريرته التي قتل بها في يناير عام ١٩٦٦ أنه شجع الدعوة الإسلامية مما أدى إلى اعتناق الألوف المؤلفة من النصارى والوثنيين للإسلام . وقبلها بعامين تحالفت الصليبية مع الوجه الشيوعي السابق جولوس نيريري وبعض الاتجاهات العسكرية الماركسية لقلب حكومة زنزبار المسلمة وتنحية الحاكم العربي الشرعي السلطان جمشيد وإحلال حكم مسيحي محله بعد ذبح أعداد لا حصر لها من المسلمين في هذه الجزيرة وتصفية سكانه من العرب .

المبشرين الذين قدموا المعونات والهداية والإرشاد من خلال تنظيماً مثل اللجنة المسيحية لإغاثة باكستان الغربية ومقرها لاهور. وقد دعمت حكومة باكستان هذه الأعمال التبشيرية وسهلت لها نشاطاتها من النواحي المادية والمعنوية فضلاً عن تدفق الأموال من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والسويد على أكثر من أربعين منظمة تبشيرية تنشط في باكستان من خلال المؤسسات التعليمية وغيرها.

وتركز جهات التنصير في باكستان على التواحي التعليمية بعد أن استقرت هناك باستغلال الاضطراب والعوز الناجمين عن التقسيم. ومن المؤسسات التعليمية كلية فورمان المسيحية للشباب وكلية كينيرو للشابات ودير عيسى ومرم للأطفال. وكلها تدرس بالإنجليزية ومقرها لاهور. وتعتمد الحكومة الباكستانية أساليب وأنظمة ومناهج وفلسفات التعليم في المدارس والمعاهد التبشيرية كمنهج وقودو ومثل عليا تصاغ على أسسها سياسات التعليم في المدارس الحكومية باللغتين الأردية والبنغالية. ولهذا السبب تتضاءل أهمية تدريس اللغة العربية والفارسية في التعليم الحكومي وتهمين الإنجليزية ليس كلفة فحسب بل وثقافة أيضاً حيث يدرس الأطفال تاريخ إنجلترا على حساب تراثهم الوطني. ولا يتعلمون أى شىء عن الإسلام أو تاريخه سواء في الخارج أو في بلدتهم الإسلامى نفسه. وتحاط دراسة المواضيع الإنجليزية بمغريات شتى تحب التلاميذ فيها بينما تقدم مادة الإسلاميات في صورة

منفردة غير متصلة بالواقع سواء في مراحل التعليم الأولية أو الجامعية. أضف إلى ذلك أن الدراسات الإسلامية في الجامعات تقدم من وجهة نظر غربية استشراقية مما يعنى أن الطلاب المسلمين يدرسون دينهم على يد أعدائه. ومما لا ينبغي إغفاله أن المدارس التبشيرية الخاصة في باكستان تعتمد إل صياغة سلوكيات الطلبة على الأنماط الغربية فتفرض عليهم الزي الأوروبي الكامل بما فيه رباط العنق الذى لا يتناسب مع حرارة الطقس كما تقدم لهم أصناف الطعام الإنجليزي.

وترى مريم جميلة أن مواجهة النشاط التبشيري في البلاد الإسلامية يجب أن تبدأ بمنع هذه التحركات المستغلة للعوز والحاجة كما لا بد أن يقترن ذلك بدعوة إسلامية إيجابية وذكية متحررة من قيود السلطة أو روتينية الوظيفة يقوم بها الأفراد والجماعات. وتؤكد في عمق وذكاء أن الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين لن يكتب لها النجاح على نطاق واسع إلا إذا قام مجتمع أو دولة إسلامية تكون بمثابة القدوة للطبيعة العملية والممكنة للمنهج الإسلامى وتقدم البديل العملى الناجح والقائم في وجه المنهج الغربى الفاشل على تعدد أساليبه. وهى ترى أن مثل هذه الدولة الإسلامية الحقيقية هى الكفيلة بإنجاح جهود الدعوة كما كانت المدينة المنورة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان المبشرون يعتمدون على مجال الخدمات الاجتماعية والاقتصادية للوصول إلى الجماهير المحرومة فلا بد من دعم جهود التنمية

والوفاء بحاجات الناس الصحية والتعليمية من خلال مؤسسات إسلامية تابعة للحكومات أو الأفراد أو الهيئات. ولا بد كذلك من التعرف بتعمق على الفكر والعقيدة المسيحية وأوجه الضعف فيها. وهنا تحاول الكاتبة أن تطرح بعض الملاحظات العامة على المسيحية الغربية تعتقد أنها مناطق عيب تقابلها أوجه قوة في الإسلام.

أولى هذه الملاحظات تتعلق بغياب مفهوم الأمة الواحدة العامة في الممارسة المسيحية وغلبة المفاهيم العنصرية والقومية. فالعنصرية تحكم المسيحية الغربية مع الشعوب الأخرى حتى لو اعتنقت المسيحية والقومية تهيمن على العالم المسيحي الغربي الذي يفصل بين الدين والدولة مما أدى إلى ظهور شرور النازية والفاشية والشيوعية. وفي كل الأحوال فإن غياب مركزية التوجه ووحدته قد أصاب المسيحية الغربية بضعف شديد تحاول الآن التغلب عليه من خلال تحركات البابوية الرومية ومجلس الكنائس العالمي في ميدان السياسة.

والعيب الثاني الرئيسي في المسيحية هو تعقد عقائدها وغموضها المضطرب كعقيدة التثليث مثلاً. ونجم عن ذلك أن تحولت المسيحية إلى مجرد محاولة غير ناجحة لتحويل بعض الأفكار الفلسفية إلى دين لا تقبله الفطرة الذهنية. كما نجم عنه أيضاً حركات الإصلاح المتتابعة منذ البروتستانتية والتي سعت كلها إلى جلاء غموض الفلسفات والمذاهب المتداخلة في العقيدة المسيحية. لكن هذه الحركات بدورها

حولت الدين إلى كتلة باردة فاقدة لحرارة الإيمان والإخلاص. وانتهى الأمر إلى ضيق المفكرين والعامة من الأمر برمته ورواج الدعوة إلى فصل المسيحية عن تسيير الشئون السياسية والاجتماعية إذا كانت عقائدها الأساسية على هذه الدرجة من التخبط. ومع ذلك بقي دعائها يؤكدون أن صعوبة عقائدها تعني أنها موجهة بالأساس للعقول المتحضرة وليس للسذج في بلدان آسيا وأفريقيا ممن يقبلون على الإسلام بساطته.

والعيب الثالث القاتل هو خلو المسيحية من فلسفة اجتماعية شاملة وفعالة. فهي منذ بدايتها لا تعلق على شئون الحياة والبشر وليس لديها رأى في مسائل الدولة والقانون والإنتاج. ولا بديل أمامها إلا أن تعيش منفصلة عن الدولة أو أن تسعى إلى مناقضة نفسها بالعمل على السيطرة على الدولة التي توجد الكنيسة في دائرتها. وتعود نظريتها في هذا المجال إلى القرنين الأول والثاني من تاريخها حيث ترعرعت إلى جانب الدولة الرومانية وتركت قضايا الحياة للقيصرة الأقوياء مكفية بالحديث عن ملكوت الرب. وكان من شأن هذه الثنائية والبعد عن الحياة أن تتور ردود فعل قوية ضد المسيحية في تاريخها الطويل في أوروبا لعل أشهرها كان نفشى المذهب الشيوعي في بلدان الغرب ليحاول ملء الفراغ الدنيوى الخالى من أى توجيه ديني. ولا ريب أن محاولة فصل الدين عن الحياة تفشل لأن الحياة لا تقبل أن تنقسم

وتحصر في أطر ضيقة .

## كلام في الإسلام

تحدثت مريم جميلة بإيجاز عن اعتناقها للإسلام وإيمانها به . وطافت بنا حول اليهودية والمسيحية تسلط الضوء وتنبه وتحذر وتعلم مؤدية واجب النصيحة ومبدية الغيرة على دينها الجديد في وقت نام فيه الكثير من أتباع هذا الدين المولودين في نعمته عن هذا الواجب وغيره . وربما جاء الدور الآن على الإسلام كي تحدثنا مريم عنه ونعرف بعض ما فهمته من هذا الدين وشدها إليه بعد أن عرفنا ما نفرها في العقائد الأخرى . ولنستمع إليها كما سرنا معها من قبل .

إن اليهودية تنتسب إلى قبيلة يهوذا والمسيحية إلى النبي عيسى عليه السلام أما الإسلام فهو الانقياد المطلق لإرادة الله كما أوحى بها في القرآن وبينها السنة النبوية . وفي هذا بيان لعالمية الدعوة الإسلامية في مواجهة اقتصار اليهودية على قوم بعينهم أو رضوخ المسيحية لمبدأ العلمانية الذي ينحيا عن جل الحياة البشرية . ولا يمكن أن تكون اليهودية الموجودة وحيأ حقاً أو ديناً إلهياً بينما يعلن أحد رؤسائها الأمريكيين أن تعاليمها وصلاحياتها تنطبق على اليهود وحدهم ولا شأن لها بغيرهم . فليس من المعقول أن يرسل الإله وحيه لقوم بعينهم من بين البشر الذين خلقهم ويذر الباقين بلا هداية .

والإسلام هو الدين الوحيد الذي يفاخر بكتاب سماوى خال من التحريف نزل بلغة ما زالت مقروءة ومفهومة . أما الآخرين فليس

ومن العيوب الأخرى التي أصابت المسيحية اقتصرها على الشعوب الغربية وتطبعها بأفكارها ومذاهبها وعاداتها . ولم تنتشر المسيحية خارج أوروبا إلا في بلدان العالم الجديد في أمريكا الشمالية والجنوبية حيث واجهت وثنيات متخلفة . لكنها حينما حاولت أن تتوسع في البلدان ذات الأديان المنظمة حتى وإن كانت وثنية كالهندوكية والبوذية فشلت ولم تحرز أى تقدم إلا في ظل سيطرة الاستعمار الغربي وبمساعدهه والتحالف معه واستغلال أوضاع محلية معنية من الأزمات والحروب والفقر والجهل والتفكك الاجتماعى والتدهور الثقافى وضرب الحضارات الأصلية .

وتختتم الكاتبة جولتها المطولة غير أفكار وممارسات المسيحية بتساؤل : ترى لو عاد المسيح عليه السلام فهل سيتعرف على أتباعه في الفاتيكان أم في مسلمى فلسطين والبلاد المجاورة الذين سيعرفون قدره كني ويرحبون به حتى وهم في حالة الاستضعاف ؟ إن عيسى عليه السلام لن يسعى إلى مقابلة البابا لكنه سيحاول تحرير القدس كما حررها من قبل من الفارسيين والكنبة والمنافقين . وسيقود جيش المسلمين من فلاحى مصر والشام وفلسطين . وليست هذه كلماتنا لكنها كلمات مريم جميلة الأمريكية ذات الأصل اليهودى التي أسلمت وتقيم في باكستان .

عندهم كما يعترفون إلا ترجحات محرقة ومتغيرة عن نصوص أصلية كانت بدورها سيرا عن حياة الأنبياء وضعت بعد وفاتهم بقرون ولم يكن لهم فيها من نصيب إلا اقتباس بعض الأقوال والأفعال عنهم . ولو أعيدت هذه النصوص إلى لغاتها الأصلية لما فهمها أحد ممن يقولون انهم يؤمنون بها الآن .

ونعرف الآن عن فلاسفة اليونان أكثر مما نعرف عن حياة موسى وعيسى . أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد خضع لأدق مراقبة ومتابعة تعرض لها بشر وما كان يطيقها لولا أنه نبي مكلف بالتبليغ والهداية والتبيين . لقد سجلت السيرة كل تفاصيل حياته حتى أدقها وأخصها . فعرفنا مشيته وجلوسه وطعامه وملبسه وملامح وجهه وأعضاء جسده وحديثه وخطابته وابتسامته ونومه وأكله وعطره وركوبه وعبادته وتحتيته وتعبيرات وجهه وفعله عند السرور والحزن وكيفية صلواته وحربه وصومه ووجهه وتقواه وخشيته لربه ومعاملاته وأمانته وصره وحسن ضيافته وبره وأحواله مع قرابته ومع الغرباء والأعداء وكرهيته للنميمة والغرور وتواضعه وشجاعته وعزمه ومعاملته للكبار والصغار والرجال والنساء واكتسابه لرزقه وشفقته على الحيوان . ولا تكاد السيرة تترك جانبا من حياة الرسول إلا وتحدثنا عنه حتى تدخل عليه بيته وحياته الخاصة مع زوجاته . تتبع الجميع حياته ومنهم أعداؤه فلم يجدوا إلا الخير والقدوة . فهل هذا إلا نبي ؟ وقد كان عليه السلام يحض على

اتباع سنته لأنها من الهداية والوحي الإلهي .

وبالقرآن والسنة يتكامل الإسلام ديناً شاملاً وأسلوب حياة متكاملاً يتوازن فيه الفرد والمجتمع والمادة والروح في تناسق بديع . وتهدى الشريعة السمحاء الحياة الفردية والاجتماعية فتحدث عن العبادات والأخلاق والعادات والروابط الأسرية والشئون الاجتماعية والاقتصادية والإدارة والحكم وحقوق وواجبات المواطن والنظام القضائي وقواعد الحرب والسلام والعلاقات الدولية . وتوضح الحق والباطل والحلال والحرام والنافع والضار والمندوب والمنهى عنه . وترسم نطاق الحريات الفردية وحدودها وكيفية إقامة المجتمع المسلم . والشريعة لازمة لأن العقل البشري قاصر عن أن يكتشف وحده مراد الله ومبادئ الأخلاق الخالدة . وهدف الالتزام بتعاليم الشرع هو مرضاة الله كما أن هذه التعاليم والمبادئ والأخلاق ثابتة غير متغيرة لأنها من وضع الله وليس البشر . ولا يتغير المسلم الحق مع تغير الزمان بل يغير الأوضاع لتتمشى مع مفايسه .

والإسلام يرفض العلمانية ولا يسعد المسلم أو يقوم له كيان إلا في بيئة إسلامية يكون واجبه إقامتها وإيجادها . ويرى الشهيد سيد قطب عليه رحمة الله أن لا غنى لحياة المسلم عن مجتمع إسلامي محكوم بالإسلام . وبدون ذلك وفي المجتمع الجاهلي تتحول تعاليم الإسلام إلى قيود ثقيلة لا يستطيع المسلم أن يمارسها . وقد اقتضت واقعية الإسلام أن يعيش

المؤمنون به في بيئة يهيمن عليها الدين . وتؤكد مريم جميلة أن الإسلام هو الدين الوحيد في العالم الذي أوجد أمة تحكمها الدوافع الأخلاقية والدينية مثبتاً بذلك ضرورة خضوع السلطة السياسية للقيم الأخلاقية .

ويعلمنا الإسلام أن السمو الروحي لا يكتسب إلا من خلال المشاركة.النشطة في الحياة اليومية وهو لذلك يرفض الرهبانية والعزوف عن الدنيا والعزوبية . وعقائده بسيطة واضحة وهو واقعي عملي في معالجته للمشاكل البشرية ويأمر بالاعتدال والتوسط في كل الأمور . ولا ينوء بعبء لاهوت معقد أو طقوس متعبة . وإذا كانت الأديان الأخرى تعانى من عنصرية وانغلاق على قوم زعموا أنهم مختارون أو من إلقاء للتبعية بكفارة للذنوب على يد ابن الاله المثلث الأقانيم فإن رسالة الإسلام جليلة لا لبس فيها . وتستعير مريم جميلة كلمات جامعة في وصف الإسلام لأبي الأعلى المودودي :

إن طريق الحياة الصحيحة للإنسان هو تمام الطاعة لله . والإنسان لا يحدد كيفية الطاعة والعبادة بل يرسمها الله . وهو بصفته رباً قد بعث بالأنبياء من وقت لآخر لهداية البشر وأنزل عليهم الكتب . وواجب الإنسان أن يأخذ منهاج حياته من ينابيع الهداية الإلهية هذه . وهو مسئول أمام الله عن أفعاله في الحياة . وزمن المساءلة هو القيامة . أما فترة الحياة القصيرة ففرصة للتحضير لهذا الامتحان العسير . ويجب أن تتركز كل جهود الإنسان في هذه الحياة الدنيا على ابتغاء مرضاة الله في

الآخرة . والإنسان بكل قواه ومواهبه في حالة امتحان وسوف توزن أعماله وسلوكه وزناً عادلاً من قبل رب لديه السجل الكامل والصحيح لكل حركات وتصرفات الإنسان بل وخطراته ومشاعره ونواياه .

ويقول الإسلام إن الله قد جعل الإنسان خليفته في الأرض . والهدف الوحيد لخلق الجسد هو أن تتخذ منه الروح أداة للممارسة مسئولياتها وأداء واجباتها . ولهذا فالجسد ليس سجنناً للروح بل أدواتها ومصنعها ومعملها ولا إمكانية لنمو وتطور الروح إلا من خلال القوى والآلات والأدوات التي يمنحها إياها هذا المصنع والمعمل . ومن هنا فإن هذه الدنيا حقل أرسلنا الله لنعمل فيه وننفذ واجبتنا نحوه . ولا ينبغي أن تكون وجهة التطور الروحي للإنسان مضادة للجسد ومعادية له . بل يجب أن يسخر الإنسان هذه الأداة للخير ويعمل بها ومعها . فالحياة بكل مجالاتها بمثابة ورقة الاختبار للإنسان . والبيت والأسرة والجيرة والمصنع والمدرسة والمحاكم وأقسام الشرطة والبرلمان ومفاوضات السلام وميدان الحرب كلها أسئلة في الامتحان مطلوب من الإنسان الإجابة عليها . وإذا تركها بدون إجابة فانه راسب لا محالة . وطريق النجاح الوحيد هو أن يبذل الهمة في معالجة هذه الأسئلة والإجابة عليها بأفضل ما يستطيع .

وتتحدث مريم جميلة بعد ذلك عن عقيدة التوحيد الصافية النقية في الإسلام التي ترفض كل أشكال القومية والعنصرية والتثليث وعبادة



القديسين وتقديس الصور والكهنوت . والتوحيد يجعل المؤمن يتعاطف مع كل المخلوقات التي أوجدها نفس الإله وبقية الخوف من غير الله ويدفعه إلى التقوى وعدم اليأس ويث في العزاء بأن الله القوى القادر خالق كل شيء يستطيع نجاته برحمته . وفي ظل الإيمان بعقيدة التوحيد فالانتحار والتشاؤم والقنوط أمور لا محل لها في نفس المؤمن . فالمؤمن الحق يصبر ويثابر ويثق في الله ويتوكل عليه ويمتلئ قلبه بالشجاعة وهو مستعد دوماً للتضحية بكل شيء في سبيل الله لأنه يعلم أن الله كل شيء . والله في عقيدة المؤمن هو مالك كل شيء ومسبب الأسباب وهو الذي يعطي ويمنع . أما الملحدون والمشركون فيضيعون بين عبادة الأسباب وتقديس ذواتهم ولا يجدون الراحة النفسية .

والإسلام هو الوحيد من بين أديان العالم الذي أوجد أخوة عالمية تقوم على وحدة النظرة إلى الحياة ووحدة الشعائر والسلوك والمثل . وهو مثلاً يوحد بين البشر يوحد بين مختلف نشاطات الحياة ولا يقبع في المساجد . فالمسلم ليس مسلماً في المسجد وحده وقومياً أو اشتراكياً في السياسة . كذلك فإن الإسلام دين مفتوح للجميع بدون تمييز يقوم على القومية أو المستوى الثقافي والفكري أو الوضع الاجتماعي أو السن أو الجنس . والمسلم يعتبر أن غير المسلم يمكن أن يصبح مسلماً لأن الهداية من عند الله . وهو مأمور بالعدل والإحسان معهم ليكون قدوة في سلوكه . والمسلم وهو يؤمن بأن دينه هو الحق وأن غيره هو الباطل ليس

متعصباً أو مغروراً . ولا يجبر أحداً من غير المسلمين في ظل حكم الإسلام على اعتناق هذا الدين .

والإسلام حين يعارض الأديان والفلسفات الباطلة لا تحركه كراهية أفراد معينين بل رفض الأنظمة الشيطانية التي أفرزت هذا الباطل . وكراهية الشر ومحاربتة فضيلة وليست تعصباً أو تطرفاً . والكره هنا هو الوجه الآخر للحب - حب الخير والفضيلة والرغبة في التمكين لها بإزاحة الشر عن طريقها . وهنا وفي إطار المفهوم الإسلامي تصيح الحرب في سبيل إقرار الحق والعدل والفضيلة خيراً وعملاً إيجابياً .

ويقول الإسلام أن الإيمان المشترك هو الرابطة الوحيدة التي يمكن أن تجمع الجنس البشري . والمعيار الوحيد الذي يجب أن يحكم به على المرء هو الإيمان والكفر ودرجة تطبيقه لإيمانه على سلوكيات الحياة اليومية . أما معايير العنصر والقومية والحالة الاجتماعية فهي صدف نشأت بالمولد ولا سيطرة للفرد عليها ومن ثم فإن التمييز على أساسها يعد ظلماً فادحاً . فالفرد مسئول فقط عما يعتقد ، ويفعله وهو دوماً حر في تحديد عقيدته والسيطرة على سلوكه .

ولن تحقق الأيديولوجيات المتصارعة السلام في العالم إلا إذا انتصرت إحداها على الأخرى تماماً . ولذلك لن يعرف العالم السلام إلا إذا سادت فيه المثل والقيم المشتركة لدين واحد . وفي الأوضاع الراهنة فإن تحالف اليهودية والمسيحية العالمية ضد الإسلام أمر يثير القلق ويمنع

## الفهرس

الصفحة	الموضوع :
٥	المقدمة.....
١٨	مریم جمیلة والإسلام.....
٢٧	الإسلام فی مواجهة اليهودية والصهيونية.....
٤٠	عقائد وكتب اليهودية.....
٥١	عبادات وأخلاق فی اليهودية.....
٦٢	مفهوم الحرب عند اليهود.....
٦٨	من الشريعة اليهودية.....
٧٦	التعلیم الدینی.....
٨٧	لمحة عن المرأة.....
٩٣	اليهود فی أوروبا الحديثة.....
١٠٥	الحركة الصهيونية.....
١١٣	مأزق فی أرض الميعاد.....
١٢٦	نحو موقف إسلامی.....
	الإسلام فی مواجهة المسيحية ونشاطاتها التبشيرية فی البلدان
١٣٣	الإسلامية.....
١٤٢	التأثير الوثني.....
١٥٠	الكنيسة والدولة.....

حلول السلام . لقد اتحدت قوى الصهيونية والتبشير والماسونية للقضاء على المسلمين مادياً وليس فقط دينياً وثقافياً . وعلى هذا فلا يمكن أن تتحقق العلاقات السلمية بين المسلمين وغيرهم على أساس القوة . ويخطئ المسلمون إذا ظنوا أن الاعتذار عن عقيدتهم ومحاولة تطويعها لمفاهيم الغرب سينقذهم أو يضمن لها الانتشار بل إن الدعوة الصادقة الأمانة وبث الإيمان في نفوس المسلمين بالاسم هي الخطوات الأولى والضرورية نحو تقوية هذا الدين . ولا بد أن يقترن ذلك بإقامة دولة إسلامية حقيقية تكون قدوة ونموذجاً يشجع جهود الدعوة ويثبت نجاح الإسلام . لكن المطلوب قبل هذا وذاك تحطيم مؤامرات الصهيونية والماسونية والاستشراق والتبشير ومقاومتها بالقلم وبالسيف . ومن هنا فقط يفتح باب السلام مع أهل الكتاب .

وتتركنا هنا مریم جمیلة بعد هذه الوصايا الأخيرة التي تستند إلى ما عرضته طوال كتابها من الأفكار وعبر التاريخ .

٦٧	..... تفريط وإفراط
١٧٧	..... الألوهية في العقيدة المسيحية
١٩٣	..... مفهوم الخطيئة في المسيحية والإسلام
٢٠٠	..... عن المرأة
٢١٤	..... الكنيسة في الغرب
٢٢٨	..... التبشير والصراع بين الإسلام والغرب
٢٤٧	..... كلام في الإسلام

رقم الايداع بدارالكتب ١٩٨٥ / ١٩٩٠

دار نافع للطباعة والنشر

تليفون ٩٠٠١١٨

- مريم جميلة والإسلام
- الإسلام في مواجهة اليهودية والصهيونية
- عقائد وكتب اليهودية
- عبادات وأخلاق في اليهودية
- مفهوم الحرب عند اليهود
- من الشريعة اليهودية
- التعليم الديني
- لحظة عن المرأة
- اليهود في أوروبا الحديثة
- الحركة الصهيونية
- مأزق في أرض الميعاد
- نحو موقف إسلامي
- الإسلام في مواجهة المسيحية ونشاطاتها التبشيرية في البلاد الإسلامية
- التأثير الوثني
- الكنيسة والدولة
- تفريط وإفراط
- الألوهية في العقيدة المسيحية
- مفهوم الخطيئة في المسيحية والإسلام
- عن المرأة
- الكنيسة في الغرب
- التبشير والصراع بين الإسلام والغرب
- كلام في الإسلام